www.ibtesamh.com/vb

روايات عالمية

وجوه في الظلام

** معرفتي **
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesamh.com/vb

www.ibtesama.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

روايات
عالمية

العدد رقم ٢٤٧

www.ibtesama.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

وجوه في الظلام

للكاتبين الفرنسيين

بيير بوالو

وتوماس نارسيجاك

ترجمة أحمد عادل

www.ibtesama.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

- ١ -

تحسس هيرمانتييه بأصابعه الورقة الموضوعة أمامه وتحركت شفتاه .. كان وجهه مقطبا وهو يعود بأصابعه الى أول السطر يتحسسه ويضغط عليه ، ويتأوه أحيانا ويوقف تنفسه أحيانا أخرى وهو يحاول تركيز ذهنه فيما أمامه .. الا أن أطراف أصابعه سرعان ما كان العرق يغشاها فكان يضطر الى التوقف ليمسحها فى كمه .. ثم يعود ليبدأ من جديد ، وهو يعد النقاط بجد .. نقطتان فى أعلى ونقطتان فى أسفل .. أى حرف هذا ؟ أى حرف .. يا للعنة ..!

وانفجر هيرمانتييه أخيرا . لقد نلت ما يكفينى من هذه النقاط اللعينة .. لماذا لا يريدون أن يتركونى بسلام ، لقد بلغت من السن عتيا ، ولا أمل يرجى فى أن أعود الى المدرسة من جديد !..

وأزاح هيرمانتييه الأوراق جانبا وجمع قبضته وأهوى بها غاضبا على المائدة .. وانتصب واقفا ودفع المقعد من ورائه فسقط .. كذلك سقط شىء آخر على ما يبدو اذ سمع هيرمانتييه صوت زجاج يتناثر خلفه .. واستدار فى موقفه وقد ثقل تنفسه وخرجت من فمه صيحة كالعواء .. أحس بأنه شىء ضخم ثقيل ، يقف وسط الظلمة المدلهمة التى انتشرت فيها أشياء صغيرة تحول بينه وبين أن يتحرك بحرية .

ولعن هيرمانتييه ما حوله فى يأس ، لن يستطيع أبدا أن يعود كما كان ، لقد بذل المستحيل فى خلال الشهرين الماضيين من أجل ذلك دون جدوى .. يداه الضخمتان اللتان كان يستخدم بهما الأدوات بمهارة وحذق صارتا عاجزتين عن الاستجابة لتلك النقط .. ثم ما الفائدة من كل ذلك ؟ ما جدوى هذا الكفاح .. ان كل هذا لمجرد ان يتمكن من قراءة «الفرسان الثلاثة» ! أى خير يمكن أن يجلبه هذا ؟.. انه لا يهتم بالقراءة ولم يهتم بها أبدا .. ان كريستيان تعرف ذلك كما يعرفه تماما . اذن لماذا تصر عليه كل هذا الاصرار ؟ ..

www.ibtesama.com/vb

تقدم بضع خطوات بحذر .. ومس كمه احدى قطع الأثاث .. لا .. ان هذا رف المدفأة ، مر عليه شهر كامل وهو لايستطيع بعد أن يتلمس طريقه الى غرفته .. أين هذه الحاسة السادسة التى يتحدث الناس عنها ويقولون أنها ميزة العميان ؟..

توقف لحظة وهو يرتكن باحدى يديه على الحائط ، وبدا كمن يقف قليلا ليلتقط أنفاسه ، ثم بدأ من جديد ، وهو يجر قدميه جرا .. واصطدمت ساقه اليمنى بمسند مقعد .. هذا معناه .. أن النافذة هناك ، أمامه مباشرة ، انه الآن يواجهها ولا شك ان وجهه قد سقط عليه الضوء . وربما تكون الشمس قد ألقت بأشعتها عليه .. ومع ذلك فليس ثمة شعاع واحد يخفف هذه الظلمة التى اكتنفته .. ظلمة ؟ لا . ليست هذه هى الكلمة المناسبة . انه الفراغ على الأصح . كان من قبل أن يكف بصره يستطيع أن يغلق عينيه ويضغط عليهما بيديه .. وكان يستطيع عندئذ أن يرى سوادا .. سوادا لطيفا يتخلله لون قرمزى .. كسماء توشك أن تبزغ نجومها . لقد كان يعتقد أن هذا هو السواد الذى يعيش فيه العميان . انه مستعد أن يتنازل الآن من أى شيء فى سبيل أن يستعيد هذا السواد الذى خلا من النجوم ، وان كان ينبيء بمقدمها .

لكنه لا يجد أمامه سوى الفراغ ، سوى العدم ، لا ظلال ولا حتى احساس بعمق هذا الفراغ . لا شيء . لا شيء على الاطلاق .

لقد وجد نفسه فجأة فى بيئة جديدة، أصبح كحيوان من فصيلة مختلفة ، فلماذا اذن قد احتفظ بقدرته على الرؤية «من الذاكرة» .. انه الآن مثلا يتطلع من هذه النافذة غير المرئية الى نهر الرون وجبل فورفيير . انه يستطيع أن يرى الأرصفة التى تحفها الاشجار على ضفاف النهر . يستطيع أن يعد هذه الأشجار .. كل التفصيلات قد انطبعت فى ذاكرته بدقة عجيبة .. لم يكن هذا صوابا . كيف يستطيع أن يسترشد بالرائحة مثلا أو بهذه

www.ibtesama.com/vb

الحاسة السادسة الغالية ، التى يتحدثون عنها ، بينما يتسلط على ذهنه تماما عالم الرؤية المطلقة ..

دفع يده بطريقة آلية ليمسح الزجاج الذى ظن أن أنفاسه قد تركت آثارها عليه كالضباب . الساعة العاشرة هذه ساعة الصالون قد دقت .. ألن يفرغوا أبدا من تعبئة كل هذه الحقائب فى السيارة ؟

وسمع كريستيان تصيح : هل هذا شىء مأمون ؟..

فأجابها كليمان : ثقى بى ..

كان كليمان هو سائق السيارة ، ولم يكن يجرؤ منذ خمسة أشهر فقط على أن يجيب بهذه اللهجة ..

تحول هيرمانتييه عن النافذة وهو يعبث بيديه فى جيوبه .. أين ذهبت سجائره .. لقد كانت العلبة بجواره على المائدة الصغيرة وهو يكد ويكدح وراء كلمات «البريل» هذه . كان قد تناول سيجارة ثم وضع العلبة فى جيبه . أن هذا هو ما يذكره على أية حال ..

أحس هيرمانتييه أن من الجنون أن يجهد ذاكرته هكذا وراء أكل شىء تافه . وشعر بأن كل ما ليس فى متناوله قد اختفى كأنه تبخر . انه يظل طوال اليوم يسأل نفسه ويجيب .. فلنرى الآن .. لقد كنت جالسا هنا .. ثم قمت .. وهكذا ..

أما عن السجائر فلا شك أنه أزاحها مع أوراق البريل .. ولاشك أنها تبعثرت على الأرض . وكع على ركبتيه وبدأ يتحسس ما حوله .. نعم . هذا هو هيرمانتييه العظيم .. مدير مصانع هيرمانتييه الضخمة يجثو على الأرض باحثا عن سيجارة ! اجتاحت صدره مرة أخرى موجة من الغضب . واصطدم بقطعة أثاث تلو أخرى .. وأخذ يسب ويلعن دون أن يحس لذلك بأدنى شعور بالراحة .. ثم سمع الباب يفتح خلفه .

وصاح صوت كريستيان : ماذا تفعل بحق السماء . ها أنت ذا قد كسرت آنية الزهور !

فقام هيرمانتييه وتطلع جهة الصوت وقال : لا تزعجى نفسك

www.ibtesama.com/vb

بهذا .. سأشترى لك آنية أخرى .. لكن لماذا لم تقرعى على الباب ؟ لقد قلت مئات المرات اننى لا أحب أحدا يقتحم على المكان دون ان يطرق الباب .. وهذا يسرى عليك أيضا ، واذا كنت تريدين أن تعرفى ما كنت أفعل .. فاعلمى اننى كنت أبحث عن سجائرى ..

فقالت كريستيان : كان يجب أن تقرع الجرس . لا . لا تتحرك ستطأ السجائر بقدميك ..

وشعر هيرمانتييه بالعلبة توضع فى يده .. وداعب أنفه شذا العطر الذى تستخدمه كريستيان .. فمد يديه نحوها،ولكنها لم تكن هنـــاك ..

وسمع صوتها : أنا هنا .. ألتقط شظايا الزجاج المحطم . لقد كان من الممكن أن تجرح نفسك . وهذه الدروس . دروس البريل .. لقد تناثرت فى فوضى ..

كانت نبرات صوتها تنبىء بضيق وتبرم .. ووضع هيرمانتييه سيجارة بين شفتيه .. وأشعل قداحته وأمسك بها على مسافة مناسبة من وجهـــه .. كان هذا هو الشىء الوحيد الذى تعلم أن يفعله باتقان ..

ـ تستطيعين أن تلقى بهذا البريل بعيدا .. اننى لا أريده على الاطلاق .. ان لدى فى المصنع أجهزة للاملاء ولدى سكرتيرات .. أما هنا فى المنزل فعندى لسانى على الأقل ، والحمد لله ..

وغمغمت كريستيان : يالك من مسكين أيها العزيز .. لا شك أنه يجب أن تتذرع بالصبر .. ان حالتك ..

فقاطعها هيرمانتييه : ماذا ترين فى حالتى ؟..

فصاحت كريستيان : أرأيت ؟. ان المرء لا يستطيع أن يطلق فى وجهك كلمة واحدة .. انك تنفجر ساخطا على الفور ..

ـ ان هذه الكلمة تكفى لينفجر المرء .. اننى لا أحب سماعها . كلمة حالتى هذه .. انها دائما حالتى ! قد يحسب المرء اذا سمع ذلك اننى أصبحت حطاما لا فائدة منه ..

وتمهل هيرمانتييه ثم تساءل : هل حضر هيوبير ؟

فجاءه الرد حاضرا : لا ..

www.ibtesama.com/vb

فقال هيرمانتييه : ان هذا الفتى قد بدأ يضايقنى .

وبحركة غريزية رفع هيرمانتييه ذراعه اليسرى لينظر فى ساعته ثم ترك ذراعه تسقط فى يأس . وتساءل : هـــل ثمة ما تريدين أن تفضى به الى كريستيان ؟.

وجاءه صوت كريســتيان : نعم . أريد أن أحـدثك فى فاتورة الجاراج ..

ـ كم تبلغ قيمتها ؟..

ـ خمسة عشر ألف فرنك .. أو أكثر من ذلك بقليل ..

ـ يا للشيطان ! ان ماريسكال قد أخذ يبعثر النقود على مايبدو .. هل الفاتورة معك ؟..

ـ نعم .. ها هى ذى ..

ومرت فترة صمت ، ثم تنهد هيرمانتييه ..

ـ حسنا .. اكتبى الشيك ..

وأخرج هيرمانتييه دفتر شيكاته من جيب بنطلونه الخلفى ومد به يده .. فأخذته كريستيان ..

وسمع صوت مقعد يجذب ، ثم سمع صرير قلم ..

ـ والآن .. وقع عليه ..

فتقدم هيرمانتييه .. ووضعت كريستيان القلم بين أصابعه وجذبت يده نحو الشيك ..

ثم قالت : لا .. ليس هنا .. تحته بقليل ..

كان صوتها فيه نبرة تأثر وتساءل هيرمانتييه فى ذهنه :

ـ كيف بدو ؟..

ثم انتفض فجأة ووقع الشيك .. وغمغمت كريستيان :

ـ حسنا فعلت ..

وشعر هيرمانتييه بسرور لأنه فاجأها بهذه الحركة ..

وصمت هيرمانتييه برهة ثم قال بلطف : اعذرينى ياكريستيان .. فربما كنت قد قسوت عليك منذ لحظات وأغلظت لك فى القول .. لكنك لا تدركين كم يثير أعصابى هذا «البريل» .. واذا أردت أن يكون ذا فائدة فـ ..

www.ibtesama.com/vb

فقاطعته كريستيان : لاشك أنك ستفتبط عندما تجد شيئا يشغلك فى الريف ..

كانت قد تحركت مرة أخرى فى الغرفة .. وكان هذا الامر يضايقه لأنه لم يكن يعرف أين هى بالضبط .. وأحس بأنه يبدو فى صورة ممجوجة .. وشعر بالارتباك وأراد أن يخفيه فنزع نظارته السوداء ومر بأصابعه على جفنيه ..

وقال يكمل الحديث الذى انقطع : شهر واحد سأقضيه فى الريف .. اننى أشعر أنه سيمضى سريعا ..

وجاءه صوت كريستيان : شهر .. وربما أكثر ..

فرد على الفور : لا أكثر ولا أقل .. اننى أشعر الآن بأننى على خير ما يرام .. وسأقضى شهرا وسط هواء منعش .. لا .. اننى أؤكد لك أننى سأعود الى المصنع فى أول يوم من أغسطس ..

ـ دع الطبيب يقرر ذلك ..

ـ لقد تقرر بالفعل ، وانتهى الأمر ..

وعاد هيرمانتييه يضع نظارته على عينيه ، ثم استطرد يقول !

ـ ان هيوبير شخص طيب ، اننى آخر من ينكر ذلك ، بيد انه يفتقر الى الهيبة والمكانة .. انه انسان بلا نفوذ . وفضلا عن ذلك فان المصنع هو المكان الذى يجب أن أكون فيه ..

ـ ولكنك الآن تستطيع أن تدع الأمور تسير فى يسر ..

ـ لقد قضيت أربعة أشهر فى المستشفى ومكثت أربعة أشهر أخرى فى دور النقاهة .. لقد نلت من الراحة مايكفينى طيلة حياتى .. هذا فضلا عن شهر آخر على شاطىء البحر ..

وسمع هيرمانتييه عندئذ طرقا على الباب فتساءل : ماهذا ؟ ..

ثم سمع صوتا يقول : سيدتى ، انه المسيو ميرفيل . انه يسأل هل يستطيع الحضور ؟ ..

فقال هيرمانتييه : يجب أن توجهى الحديث الى لا الى السيدة

ـ حسنا يا سيدى ..

ـ فليتفضل اذن بالحضور ..

ـ حسنا يا سيدى ..

وغمغم هيرمانتييه بعد أن انصرفت الخادمة : اننى لا أطيق هذه

www.ibtesama.com/vb

الفتاة . انها تتصرف وكأننى غير موجود على الاطلاق . اخبرينى يا كريستيان كيف تبدو هذه الفتاة ..؟

ـ لقد ذكرت لك أوصافها من قبل .. انها فتاة سمراء ظريفة

وحاول هيرمانتييه أن يتصور فى مخيلته فتاة بهذه الأوصاف .. لكنه لم يستطع .. فقد بدت الصورة فى ذهنه كشبح بلا وجه.

واستطرد هيرمانتييه معقبا : اننى لا أشعر بميل لها على أية حال .. لا أشعر أبدا بأى ميل .. لماذا لم تحتفظى ببلانش ؟..

ـ ان بلانش قد طعنت فى السن . كما أنها كانت كثيرا ماتتحدث بكلام فارغ .

ـ ربما .. لكنها كانت تحسن التصرف معى .. وكنا معا على خير ما يرام .

وسمع هيرمانتييه خطوات مسرعة فى الخارج .. كان هيوبير قادما ..

ـ صباح الخير يا كريستيان ..

وانحنى وقبل يدها .. كان من هؤلاء الرجال الذين يحيون النساء بتقبيل أيديهن .. ثم تحول الى هيرمانتييه وتساءل :

ـ كيف الحال يا صديقى ؟ كيف أنت هذا الصباح ؟..

ـ اننى على ما يرام ..

ـ ألست متعبا ؟..

ـ ولماذا أكون متعبا ؟ هل أبدو كذلك ؟..

ـ كلا .. اننى لا أقصد ..

كان صوته غير طبيعى .. كذلك مسلكه لم يكن وديا .. لقد كان يشعر المرء بأن ثمة شيئا يحاول أن يخفيه ..

وقالت كريستيان : سأترككما معا .. يجب أن نبدأ السفر فى خلال نصف ساعة .. اجلس يا هيوبير .. وقدم له سيجارة يا ريشار ..

فانتظر الرجلان الى أن انصرفت وأغلقت الباب وراءها ..

ثم تساءل هيرمانتييه : حسنا .. هل أحضرته ؟ ومد يده وهو يقول : اعطه لى ..

www.ibtesama.com/vb

وشعر هيرمانتييه بمصباح كهربائى يوضع فى يده . فتحسسه بأصابعه مشغوفا ، ولم يقل شيئا . كذلك لزم هيوبير الصمت ، مع أنه كان ثرثارا فى العادة .. فبعد عام كامل من الجهد والدأب ، من التجارب والأبحاث .. تمت أخيرا صناعة هذا المصباح .. مصباح هيرمانتييه ..

وتساءل هيرمانتييه فى تواضع وخجل : هل يعمل جيدا ؟.

ـ انه رائع .. انه يتألق كضوء النهار ..

ـ فلنجربه هنـــا ..

ـ ولـكن ..

ـ لا بأس بذلك . ضعه فى أباجورة القراءة هناك .

وانصت هيرمانتييه لهيوبير وهـــو ينزع المصباح القديم من الأباجورة ويثبت الجديد مكانه .. وتقدم قليلا وقد أشرع ذراعيه أمامه .. وسمع هيوبير يقول :

ـ لن نحكم عليه جيدا مادمنا لا نغلق النافذة .

ـ هذا أمر لا يهم .. هل المصباح مضاء ؟..

ـ نعـــم ..

فجهد هيرمانتييه فى تركيز ذهنه ليتخيل منظر مصباح متألق كضوء النهار ، وما لبث أن صاح :

ـ لكم تكبدت فى سبيله من عناء .. وكم بذلت فى سبيله من جهد وعمل .. تستطيع الآن أن تطفئه يا هيوبير .

وسمع صوتا يدل على انطفاء المصباح ..

ـ اشكرك . والآن لنتحدث فى التفاصيل . لابد أنك ستقوم بحملة دعاية واسعة لهذا المصباح .. أليس كذلك ؟ .

ـ سيبدأ المندوبون عملهم فى خلال اسبوعين .

ـ ولماذا لايبدأون هذا الأسبوع ؟

ـ ليس ثمة داع للعجلة .. اننا الآن فى أوائل يوليو .

ـ هذا شىء لايهمنى . أننا يجب الا نضيع دقيقة واحـدة . هل وضعت خطة الدعاية ؟

www.ibtesama.com/vb

ـ بالطبع . لقد أعددت منشورا زاخرا بكل مزايا المصباح .
ـ لا فائدة من ذلك .. اننا نريد لوحة خشبية ضخمة تقام فى الطريق . فى ركنها الأيمن من أعلى يظهر المصباح . مصباح كبير يتوهج كالشمس . وفى أسفل اللوحة مجموعة من الزهور . كلها تحول رءوسها ناحية الأشعة .. هل تصورت الفكرة .. اننا نريد الألوان أيضا بكثرة تتألق بدورها وتنطلق من كل حائط . ثم اننا نريد أيضا شعارا . شعارا قويا خاطفا ..
فقال هيوبير مقاطعا :
ـ ألا تظن أن اعلانا كهذا قد يبدو ...
فقاطعة بدوره عندما لمس تردده : قل .. أكمل كلامك .. تعنى أنه قد يبدو سقيما لا ينم عن رفعة ذوق . ولكن هذه هى المسألة بالضبط اننا نريد أن نوجه دعايتنا الى الناس ، الى الاشخاص العاديين ، الى الفلاح فى مسكنه وصانع الأحذية فى حانوتة وحارس الليل فى مقره . اننى أريد أن يكون هذا المصباح سلعة شعبية لكل الناس فى كل البيوت ..
ـ أن هذا أمر مشكوك فيه ..
ـ ليس ثمة شك كل الاطلاق . اننى أعلم اننى على صواب أيها الفتى .. انها مسألة واضحة كالشمس ..
وضحك هيرمانتييه وهو ينقر بأصابعه على صدره .. وكان رماد سيجارته قد تناثر على ملابسه .. لكنه كان يبدو عملاقا قويا على نحو لا يشغل المرء نفسه معه بهذه التوافه ..
وقال هيرمانتييه : اكتب لى تقريرا بما تفعل .. واعرضه على فى المرة القادمة .. وبهذه المناسبة متى نراك ؟ .
ـ أتوقع أن يكون ذلك فى يوم الاحتفال بعيد الباستيل .. فسأنتهز فرصة الاجازة لاعداد التقرير ..
ـ سيكون أمامك وقت كثير . اننى لا أريد الا تقريرا موجزا . فيه تقدير لتكاليف الحملة ، وتصميم للوحة ، وشعار . اننا سنركز كل أذهاننا فى ذلك . اعلن بين رجالك عن جائزة لأفضل اقتراح .. انها لحظة عظيمة .. اننى مغتبط .. ناولنى المصباح مرة أخرى يا هيوبير .

www.ibtesama.com/vb

وتناول المصباح فى يده ، كان لا يزال دافئا ، ولم يكن ثقيلا ، لم يكن أثقل من فقاعة هواء !

ـ ها هنا مستقبل عظيم يكمن فى هذا المصباح يا بنى . اذا لم يفلت زمام الأمور من أيدينا. لقد تقدمنا على كل المصانع الأخرى وفى خلال ستة أشهر .. ستحمد لى أنت نفسك الطريقة التى حاربت بها هؤلاء . اننا نملك الورقة الرابحة فى أيدينا يا هيوبير.. ويجب الا ننسى ذلك .. اذهب الآن وابعث الى بثلاثين من هذه المصابيح ..نعم.. ابعث بها الى فى الريف ، اننى أريد أن يضاء المنزل هناك . من أدناه الى أقصاه بهذه المصابيح . اننى أعلم فيم تفكر . ولكن فلتعلم انه يسعدنى أن أشعر وأنا هناك بقرب هذه المصابيح . الأفضل أن تذهب الآن . فأمامك غدا عمل كثير مع رؤساء الأقسام . حظا سعيدا . اننى سأساق سوقا الى الريف كانسان عاجز تماما . ولكنك جعلت منى رجلا سعيدا . فالى اللقاء يا هيوبير .

ـ الى اللقاء .. وأرجو أن تعنى بنفسك ..

وغادر هيوبير الحجرة ، وسمع هيرمانتييه همسا فى الخارج فصاح بصوت جهورى يخشاه كل من فى المنزل : من الذى يتحدث هناك ؟ ..

ـ انه أنا يا سيدى ..

ـ ومن أنت ؟ ..

ـ مارسيلين .. الخادمة الجديدة يا سيدى ..

ـ وفيم تتحدثين ؟..

ـ ان ثمة شخصا يرغب فى لقياك يا سيدى .. يقول انه صديق ..

ـ ألم يخبروك اننى لا أريد أن أقابل أحدا ؟..

ـ نعم يا سيدى . ولكن السيد يلح . ان اسمه بليش انه يقول ....

ـ بليش ! هل أنت متأكدة ؟ دعيه يتفضل بالدخول على الفور

www.ibtesama.com/vb

بليش ! ما أروع هـــذا اليوم ! تقدم هيرمانتييه إلى الباب وجاهد حتى وصل اليه ، بعد أن اصطدم بحائط ، وفى نفس الوقت كان الزائر قد دخل . فأوشك كلاهما أن يسقط بين ذراعى الآخر.

وصاح بليش : ريشار .. أيها الصديق العجوز ..

فقال هيرمانتييه متلطفا : سامحنى يا صديقى . ربما يكون قد تناهى الى سمعك صياحى . ولـكننى أعلم انك تقدر موقفى .. اننى لا أويد أن يأتى أحد الى هنا لمجرد ان يحـدق فى وجهى . واننى لأقول ان هناك فعلا من الناس من يفتبط لمرآى هكذا .. اننى لا أقابل أحدا . ولكن انت ! ان الأمر يختلف معك بالطبع.

ـ لقد كنت فى اسكتلندا عندما بلغنى نبأ الحادث الذى وقع لك .. انه حقيقى اذن يا صديقى المسكين .. أليس ثمة أمل على الاطلاق ؟ هل ذهب بصرك الى الأبد ؟..

ـ الى الأبد ! اجلس يا صديقى وسأريك شيئا ..

وخلع هيرمانتييه نظارته فأتيح لبليش أن يشهد المنظر البشع .. الجفنان ساقطان ومخاطان ، وأطرافهما جافة محمرة ، والندوب متعرجة تنحدر على الخدين .

ولم يتمالك بليش أن صاح :

ـ يا للسماء ! . يالك من مسكين أيها الصديق ..

وتساءل هيرمانتييه كأنه غير مصدق . هل هما قبيحتان الى هذا الحد المفزع ؟ . اننى أعرف بالطبع كيف يبدو ملمسهما ، ولكن هذا لا يعنى شيئا على الاطلاق .

وتمهل بليش فترة يحاول فيها أن يتحكم فى صوته ، ليـكون عاديا ، ثم قال : لا .. انهما ليسا على هذه الدرجة من القبح .. ثم أنت تضع نظارتك .. لا .. يجب ألا تقلق بالك بشىء من هذا والآن اخبرنى .. كيف حـــدث ذلك .. لقـد سمعت انه وقع انفجار .

ـ قنبلة يدوية . انك تعلم ان لنا بقعة من الأرض فى لافانديه على الساحل ، وهى ليست بعيـــدة عن ماران . انه مكان واسع استخدمه آل بوشى فى خلال الحرب . فقلبوه راسا على عقب .

www.ibtesama.com/vb

قطعوا الأشجار وهدموا الجدران . وكان الأمر يحتاج الى جهد خاص لاصلاحه . فذهبت بنفسى فى الشتاء الماضى لأشرف على العمل . واشتركت فيه بالطبع . وبينما كنت أحفر الأرض بجاروف اذ اصطدم بقنبلة يدوية مطمورة .. ومن عجب أننى لم أقتل . انها معجزة .

ـ اننى أعجب كيف يحدث لك هذا من دون الناس جميعا ! أنت يامن كنت أكثرهم نشاطا . ولكنك بالطبع ستستمر فى عملك فى المصنع ، أليس كذلك ؟

ـ اننى أعتزم ذلك كل الاعتزام . لقد عجزت عن أداء العمل مؤقتا وهم يريدون الآن أن أتناقه لشهر آخر . وأنت يا صديقى كنت توشك أن تحضر فلا تجدنى .. اننا ذاهبون الى الريف .. وسيتولى هيوبير مكانى فى المصنع .

ـ هيوبير ؟

ـ نعم هيوبير ميرفيل !

ـ اننى لا أعرفه .

ـ أظن أنك لا تعرفه . فأنت قد غادرت فرنسا فى الوقت الذى أدخلته معى شريكا .. كان هذا منذ عامين . فى اغسطس ١٩٤٦ . كنت محتاجا الى مزيد من رأس المال ، وكان هو قد وقع على ثروة لا بأس بها . اننى أقول لك ، فيما بيننا فقط ، أنه ليس رجلا بارعا . ولكنه يملك فى الواقع أشياء أفتقر أنا اليها . انه يحسن السلوك فى المجتمعات ، كما أن له لسانا ذربا يحمل على الاقناع . انه يحمل مؤهلات السفير ، وهذه ميزة فى حد ذاتها . ولكننى مع ذلك أتلهف على تولى منصبى من جديد . ولا سيما ان الكارتل ستسعى الآن لسحقى والقضاء على

ـ أى كارتل ؟

ـ المنافسون الكبار . لقد كونوا من بينهم شركة وعرضوا على فى الواقع أن أشاركهم ولكننى رفضت .

ـ وزوجتك .. لا شك انك تجد فيها سندا كبيرا ..؟

ـ كريستيان ؟ انك لا تعرفها حق المعرفة . انها مشغولة

www.ibtesama.com/vb

دائما باللجان . انها رئيسة هذه اللجنة وسكرتيرة تلك اللجنة وأمينة صندوق لجنة ثالثة وهكذا . لا .. ان كريستيان امرأة مشغولة تماما

وتحسس هيرمانتييه ظهر مقعده ، ثم جلس . واستطرد يقول:

ـ انها نفس القصة القديمة . اننى أربح المال لينفقه الآخرون. خذ أخى مثلا . هل تتذكر ماكسيم ؟

ـ ابن العائلة المخالف ؟! اننى أذكره بالطبع بالرغم من أنه مضى وقت طويل منذ أن رأيته آخر مرة . كيف حاله . لقد سكا من علة قلبية على ما أذكر . وكنت أنت قلقا على صحته فى فترة ما ..

ـ انه لا يزال حيا يصول ويجول . وفيما عدا ذلك لا تجده يصلح لشىء . ولكنه طفل . انه لم يكبر قط ..ماذا تظنه يفعل الآن ؟ . انه يعزف الساكسوفون فى فرقة من فرق الجاز . تصور كيف يمكن أن يؤثر ذلك فى صحته . ان كريستيان غاضبة ، فليس مما يبعث على السرور أن يكون هذا هو شقيق زوجها . أما جيلبيرته ، ابنة زوجتى ، فانها تدرس الفلسفة . انهم فى الواقع لا يتحدثون الى فى شأنها كثيرا. ومع ذلك فاننى أعلم انها مخطوبة لأحد المهندسين . وتقضى كل أجازاتها مع أهله . وهو بالطبع لا يملك شروى نقير . وسيكون هو أيضا واحدا ممن أرعاهم ، بالطبع ، أن باب هيرمانتييه لا تزال له فوائده بالنسبة اليهم جميعا . ومع ذلك فانهم يقولون لى يجب أن تنال شهرا آخر من الراحة . انهم يعتقدون أن المصنع يمكن أن يظل يعمل ويعمل من تلقاء نفسه .

وقطع حديثه صوت كريستيان من اسفل:

ـ العربة معدة يا ريشار .

فصاح من فوره:

ـ حسنا .. سأحضر حالا . ثم استدرك:

ـ لا .. لا تذهب يا بليش . لا تنصرف بعد . ان فى مقدورهم التريث . عليهم أن ينتظروا .

فقال بليش:

ـ اننى لسعيد بالحضور . وان كان من المفزع أن أراك هكذا .

www.ibtesama.com/vb

أن المسألة لا تتعلق بعينيك . أننى أخشى أن يكون هذا الحادث قد أصاب معنوياتك . أقصد أنه يجب ألا تشعر بأى مرارة .

ـ أوه .. يجب ألا تهتم بطريقتى فى الحديث . أن الأسرة هى دائما وأبدا عبء . ولكن عائلتى أثقل عبئا من سائر العائلات . ولاسيما الآن . واذا أردت نصيحتى يا صديقى فابق أعزبا . أما اذا أردت أن تتزوج ، فلا تقترن بأرملة أحد من رؤسائك ! قد تستطيع أن تضاعف رأس المال الذى تحمله معها .. ولكن هذا لن يغير الوضع . ستكون دائما تحت امرتها .. ولكن .. لماذا لا تتحدث عن نفسك .. ماذا تفعل هذه الأيام .. ألا زلت صحفيا ؟

ـ نعم .. وأنا دائما فى حركة لا أستقر فى مكان . وقد عدت لأزور والدتى فقط . وسأسافر الليلة مرة أخرى ، الى روما هذه المرة . انها عبودية فظيعة هذه المهنة ، ولكننى لا أرضى بها بديلا .

ـ لا ترضى حتى بأن تبادلنى اياها

ـ لا أرضى حتى بذلك !

وضحك الرجلان ، ثم تساءل هيرمانتييه :

ـ اتذكر عندما كنا معا فى مدرسة السارجان بلاندان .. ترى ماذا كنا نقول لو أننا علمنا فى ذلك الوقت أنك ستصبح صحفيا شهيرا ؟

ـ أو أنك ستصبح قطبا من أقطاب الصناعة .

ـ قطب ! تمهل يا صديقى . ربما يمكن أن تسمينى قطبا قبل أن تنتهى حياتى . ان الطموح هو كل ما بقى لى .

وسمع الصديقان عندئذ صوت بوق السيارة ، فقال هيرمانتييه :

ـ هل سمعت ذلك . انهم مستعدون . ولذلك يجب ان استعد أيضا .

ـ ومع من ستذهب ؟

ـ مع زوجتى والخادمة والسائق . وسلحق بنا ماكسيم فى خلال يوم أو يومين . أما هيوبير فسيحاول ان يرورنى زيارة خاطفة فى منتصف الشهر .

www.ibtesama.com/vb

ـ انك لن تصل الا فى وقت متأخر من هذا المساء . كم تبلغ المسافة ؟

ـ ان كليمان سائق ماهر . والسيارة بويك طيعة تماما . ان كريستيان لم تعجبها ولا سيارة فرنسية . ان من الممكن أن نصل قبل حلول الظلام .

ـ ألن تشعر بالسأم والملل هناك ؟

ـ لا . لست أظن ذلك . سيكون لدى فسحة أتحرك فيها . لن يكون الأمر كما اعتدت هنا .. لا أستطيع السير دون أن أصطدم بشىء هنا أو هناك . هذا فضلا عن أنه لن يكون ثمة من يزعجنى . اننى لا أظن انهم تمكنوا حتى من اصلاح التليفون هناك .

وهنا استأذن بليش قائلا فى دعابة :

ـ لا بد الآن أن أسرع بالانصراف فلست أود أن تحدث مشاجرة بسببى !

فقال هيرمانتييه بنفس الدعابة :

ـ ان مشاجرة أو أخرى يا صديقى لن تغير من الموقف الآن شيئا .. هل لى أن أسألك متى ستعود .. فى سبتمبر أو اكتوبر ؟ ربما نستطيع أن نتناول العشاء معا .. نحن الاثنان فقط .

ـ لن أعود فى وقت مبكر كهذا .. بل ربما لن أعود قبل عيد الميلاد . الا اننى آمل أن نلتقى عندئذ . هذا اذا لم يرسلونى بالطبع الى عبدان أو هانوى

ـ اننى أحسدك يا صديقى .. والآن هل لك أن تمد لى يدك لأستند اليها .. اننى لا أحسن هبوط الدرج ..

وغادر الرجلان الغرفة وقد تشابك ذراعاهما .. وتساءل هيرمانتييه وهما عند منتصف الدرج :

ـ أرجو الآن أن تصدقنى القول يا صديقى .. هل أبدو فعلا فظيع الوجه ؟ اننى أسأل ذلك بسبب .. بسبب كريستيان .

وهنا تردد بليش ، لكنه ما لبث أن أجاب :

ـ ان من الصعب أن أتحدث اليك من وجهة نظر امرأة . ان الآثار واضحة بالطبع ، ولكنها لا تبعث على الصد والنفور .

www.ibtesama.com/vb

ـ أشكرك .. ولكن .. ألا تجد هناك شيئا آخر يعيبنى ؟
ـ ماذا تعنى ؟..

ـ أوه .. انها مجرد فكرة .. غير أنه يداخلنى الشعور أحيانا بأنهم جميعا يخشوننى . نعم .. يخافوننى . انهم يتجنبوننى كأننى مصاب بمرض معد . أو كأن هناك شيئا الى جانب هذا التشوه .. شيئا لا يستطيعون أن يتحملوه .

ـ لست أدرى ماذا تقصد ؟
ـ ألم تتحدث اليك زوجتى قبل أن تصعد الى . ألم تحذرك من شىء ؟..
ـ أبدا .. اننى لم أرها على الاطلاق .
وعبرا الردهة عندئذ .

ـ اننى آسف لأن أضايقك بكل هذا ، ولكننى أعلم أنه ليس هناك ما يمكن أن أخفيه عنك . اننى أسير مرفوع الرأس وأتعمد أن أكون مهابا فى سلوكى . لكن الحقيقة أن الضربة التى تلقيتها كانت شديدة .. ان زيارتك يا صديقى قد رفعت من معنوياتى وكان لها وقع طيب فى نفسى .
ـ يا صديقى العزيز ...

وأخذ كل منهما يودع الآخر . وشعر هيرمانتييه فجأة بتعاسة مضنية . ولم يشأ أن يترك يد صديقه التى كان يصافحها ، وما لبث أن قال ، كأنه يريد أن ينتزع منه وعدا أكيدا : انك ستحضر .. ستحضر لترانى مرة أخرى . أليس كذلك ؟

ثم ترك يد صاحبه وشعر بأنه يعود مرة أخرى وحيدا فى عالم ظلمته .
وأخذ ينادى :
ـ كريستيان .. كريستيان .

وسمع وقع أقدامها وهى تعبر الردهة مسرعة نحوه ، ثم سمعها تقول :
ـ حمدا لله .. لقد انصرف أخيرا . كيف يمكن أن يحضر فى

www.ibtesama.com/vb

مثل هذا الوقت .. ثم شرعت تنادى على مارسيلين وتطلب منها أن تعجل باغلاق كل شيء . وعادت تقول :

ـ اليك يا ريشار .. خذ هذه .

فمد هيرمانتييه يده وهو يتساءل :

ـ ما هذه ؟

ـ انها عصا .

ـ عصا . اننى أستطيع أن أسير بغير عصا .

وعندما هبط وشعر بأنه يسير على الطوار ، أحس بأنه ضائع تماما . وتعلقت كريستيان بذراعه فتركها تقوده الى السيارة .. حيث غاص فى ركن منها وهو يشعر بالارتياح .

ومضت السيارة . ووجد أن أمامه ساعات وساعات لن يفعل فيها شيئا سوى أن يفكر ، ويقلب الأمر في ذهنه . ما هذا الشيء الذى يعيبه .. هذا الشيء الغامض ، الى جانب فقدان بصره . ما هذا الشيء الذى يخافونه جميعا ؟ توالت الأفكار والتفاصيل على ذهنه .. حتى التافه منها والدقيق ، ولكنه لم يستطع أن ينحيها جانبا . لكنه ما لبث أن ضاق بها ذرعا ، فانحنى الى الأمام وقال :

ـ امض فى شارع بيشا وتوقف عند رقم ٣٢

فاحتجت كريستيان :

ـ ليس لدينا وقت لهذا يا ريشار .. كما أن الأمر سيكون محرجا لى .

ـ لن يكون محرجا على الاطلاق . سأذهب وحدى . اننى أعرف الطريق . لقد ذهبت الى هناك عدة مرات عندما توفى زوجها

ـ ولكن لماذا تذهب ؟ ولماذا يكون ذلك اليوم بالذات ؟

ـ اننى أريد أن أودع بلانش قبل أن نغادر ليون . ان قلبى لا يطاوعنى على أن أترك العجوز بغير تحية .

وكانت فى صوته نبرة استياء خرجت رغما عنه . ولم تجب كريستيان . وكان هذا ملحوظا أيضا . وكانا قد خلفا عندئذ صخب المدينة وراءهما . وخفت حركة المرور حيث تمرق بهما السيارة ،

www.ibtesama.com/vb

واختفت أصوات الترام . وكان شارع بيشا عند منعطف الطريق شارع متواضع يزخر بالمقاهى حيث يتناول عمال السكك الحديدية مشروباتهم ، كما كان يضج بلعب الأطفال . وكان هيرمانتييه يستطيع أن يتخيل صورته تماما فى ذهنه .

ووقفت السيارة وفتح هيرمانتييه الباب وقال كليمان :

ـ اننا تجاه المدخل تماما .

ـ حسنا لن أتأخر .

وكان الطوار ضيقا عبره فى خمس خطوات . لكنه شعر بتداع عند المدخل وغمر العرق جبهته . ثم تحامل وتجاوز العتبة واخذ يتحسس طريقه على الحائط . ولمست يداه صناديق البريد عشرة منها .. ثم عاد الحائط من جديد . ولم يشعر بضيق هذه المرة فقد كان أهم شىء أن يضع يديه على شىء دائما ، لا أن يخوض فى الفراغ . وتحسس الطريق بقدمه فلم يجد صعوبة فى أن يعثر على أول الدرج . أما عن الصعود ، فكان هذا أيسر شىء . وشعر عندئذ بالثقة .

وأخذ يحصى الدرجات وتوقف عند الدور الثالث . كان الباب الذى يريده يقع على يمينه . وكان المفتاح فيه ففتحه . واستطاع على الفور أن يتعرف على خطوات العجوز .

ـ بلانش .. أنا هيرمانتييه يا بلانش .

فظهر الدهش فى صوت المرأة :

ـ أوه .. لو كنت أعلم يا سيدى أنك قادم

فقاطعها مهونا :

ـ هل أستطيع أن أتحدث اليك دقيقة أو دقيقتين ؟

وظلا برهة يتحدثان معا فى صوت واحد ثم قالت أخيرا وهى تقودة :

ـ أعطنى يدك ، وتقدمته الى غرفة تفوح فيها رائحة رطبة وأجلسته فى مقعد مجنح قد تآكل مسنداه .

ـ انهم يذهبون بى الآن الى الريف . ولكننى فى حال أفضل من ذى قبل . أعنى أننى تجاوزت مرحلة الخطر .

www.ibtesama.com/vb

ـ اننى حقا مغتبطة لذلك . لكم أقلقتنا حالتك يا سيدى . لقد شعرنا يوما بأننا فعلا قد فقدناك .

ـ شعرنا ؟.. من تقصدين ؟

ـ أقصد أننا جميعا شعرنا بذلك . السيدة والمسيو هيوبير والمسيو ماكسيم . لقد كنت أسمعهم يتحادثون فى همس . لقد حاولوا بالطبع ألا يبدوا تأثرهم على وجوههم .

وأدرك هيرمانتييه من صوتها أنها تحركت بعيدا ، ثم سمعها تغلق النافذة برفق . فأخرج حافظته وانتزع منها بضعة أوراق مالية . ومد بها يده دون أن يحصيها .

ـ لم أشأ أن أذهب يا بلانش دون أن أشكرك . اشكرك على كل شىء . وسيكون من دواعى سرورى أن تقبلى هذه الهدية الصغيرة . تعالى يا بلانش .. مدى يدك

ـ لا يا سيدى .. مستحيل .

ـ لماذا ؟

ـ الحقيقة ..

فقاطعها :

ـ أليس المبلغ كافيا ؟

ـ لا يا سيدى .. ليس الأمر كذلك

ـ اذن ماذا ؟ خذى هذا المبلغ . لعلك خائفة منى .

وسمع أنفاسها تتوقف . وبرزت شكوكه من جديد .

ـ اسمعى يا بلانش .. اننى أعلم أن ثمة شيئا ولكننى لا أدرى ما هو .. أخبرينى بصراحة .. لماذا لاتريدين هذا المال ؟

ـ لكن .. اننى لم أعد فى خدمتك يا سيدى

ـ ولنفترض أننى طلبت منك أن تعودى الى الخدمة

ـ لن أستطيع يا سيدى .. ليس الآن .. لن أستطيع على الاطلاق

ـ ألأننى أصبحت أعمى ؟

ـ بالطبع لا يا سيدى .. اننى لم أكن أفكر فى ذلك .

www.ibtesama.com/vb

ـ اننى لا أفهمك اذن ..

ـ اننى متأكدة من أن هواء الريف سيفيدك .. انهم يقولون انها بقعة رائعة .

وشرعت تتكلم عندئذ بسرعة ، وتغير صوتها ، وبدت كأنها تخاطب شخصا آخر . وسمع هيرمانتييه صوتا خلفه . كان ثمة شخص دخل الغرفة وأخذ يستمع الى حديثهما . ربما هو جار من الجيران .. ماذا يهم .. لا بأس على أية حال .

قام من مكانه وقال :

ـ عندما أعود ، سأمر عليك مرة أخرى .. والآن قودينى الى الخارج يا بلانش .

. ووضع يده على كتفها وخرج معها . وتلمس سور السلم بينما كانت تقول :

ـ كن حذرا .

وعادت واغلقت الباب ، وسمعها تثبت فيه المزلاج . وأشرع رأسه الى الأمام وأنصت .. نعم . لا يمكن أن يخطىء ذلك . ثمة خطوات قد تجاوزته وتقدمته ، فى صوت خفيض . واختفى وقعها فى الشارع قبل أن يصل هو الى العتبة .

وعندما عاد الى مكانه فى السيارة تساءل :

ـ هل شاهدتم أحدا يخرج من المنزل قبلى ؟

فتساءلت كريستيان بدورها :

ـ هل هو رجل ؟

ـ رجل أو امرأة .. لا أدرى بالضبط . ألم تشاهدى أحدا ؟

ومرت فترة صمت ثم قال كليمان :

ـ أن سيدى مخطىء .. لم نر أحدا يخرج من البيت .

وتحركت السيارة .

وفى أعلى الدرج ، كانت بلانش تنزل ستائرها على النافذة ، ثم تحولت الى داخل الطرقة وهى تقول :

ـ يا له من مسكين . حمدا لله انه لا يعرف . ان من المؤلم جدا أن يعرف .

www.ibtesama.com/vb

- ٢ -

كان الجو حارا .. أكثر حرارة مما كان عليه فى العام الماضى . وكان هيرمانتييه يقف فى وسط ممر الحديقة ، وخلع نظارته ورفع وجهه المشوه نحو الشمس . وشعر بغبطة اذ أحس بذلك النسيم الجاف يدغدغ بشرته . وكان النسيم مفعما برائحة الورد والعسل . وكانت الحشرات الطائرة تمرق بجوار وجهه بين وقت وآخر . وسمع هيرمانتييه صوت نحلة تدور على رأسه ، كأنها تبحث عن مكان تسقط عليه .

وتحرك فى الممشى وأخذ يسير ببطء . لكنه جاهد ليتخذ سمت من يسير معتادا هذا الطريق ، فلم ينحن بكتفه ولم يلق رأسه الى الخلف . وكان أصعب شىء أن يتخيل فسحة طويلة من الارض قائمة بغير جدران . وكان يشعر فى بداية الأمر بخوف غريزى من مثل هذه الجدران الموهومة . وتداخله رغبة ملحة فى أن يشرع يديه الى الأمام . وكان ثمة خوف غريب ينتابه ويملك عليه حواسه . وكان من اليسير لعقله أن يقرر أن ليس ثمة عائق أمامه . لكن جسمه كله كان يفكر بطريقة أخرى . كانت ركبتاه تتراجعان خوفا من ألم ينتظرهما . وكان فى كل لحظة يشعر كأن الهواء الذى يكتنفه يثقل .. كما يثقل فى العادة قرب حاجز أو جدار .

لكن هذا كان فى البداية فقط . وقد تحسنت الأمور الآن . الا أنه مع ذلك كان يضطر الى التوقف ليحسب كل شىء فى ذهنه .. تلك خطوات عشرون فى خط مستقيم من الشرفة . اذن لا بد أن يكون باب الحديقة هناك .

والواقع أنه لم يستطع أبدا أن يمشى فى خط مستقيم . فقد كان دائما يعرج الى اليسار ، كزورق يسير بغير دفة . وكان عبور الحديقة فى حد ذاته أمرا محفوفا بالمخاطر . لكنه كان يزداد ثقة بنفسه ويدرب أذنيه على الاصغاء .

وكانت هناك عدة مماشى . وكان يستطيع أن يسير فى كل منها على ما يرام .. ما دام بالطبع يسير فى نفس الطريق . وكان يدرك مدى فسحة الحديقة من حوله ، والسماء الغارقة فى الضوء من

www.ibtesama.com/vb

فوقه . بل كان يشعر ايضا بمرور السحاب ، عندما يشيع ظل خفيف بارد على جبهته . وربما يستطيع بتدريب أذنيه أن يتسمع أصوات السحالى تمرق مخشخشة على الجدران التى تنبت عندها الطماطم . وكان هيرمانتييه مستعدا لأن يضحى بالكثير من أجل أن يتمكن من الخروج والتجول فى الأرض الواسعة ، حتى ينحدر الى البحر ويشعر بالامواج تداعب قدميه . لكنه على أية حال لم يكن يقدر أن يخرج بغير رفيق . وكان هذا يعنى أن يطلب الى كريستيان أن تصحبه ، الا انه لم يكن يود أن يسأل أحدا معروفا . لقد كان يكفى أن يطعموه كطفل فى ساعات الطعام . انه يستطيع أن يكيف أموره بغير بحر . ويقنع بمجرد تصوره هناك . وتخيله الامواج الخضراء وهى تتكون وتتلاشى قرب الشاطىء .

ان السأم لا يتملكه على أية حال . ليس هناك وقت للملل . لقد عاد يتعلم من جديد كيف يعيش فى هذه البقعة ، حتى انه ينقلب الى فراشة فى الليل متعبا كطفل صغير . لقد مرت ثلاثة أيام منذ جاءوا . مرت وانقضت كمساء واحد . ولعل هذه هى المرة الوحيدة التى أستمتع فيها حقا باجازة . الآن يشعر بالحيوية تدب فى جسمه . كان من قبل يشغل وقته بكل شىء . حزم الخطابات فى الصباح كانت تشغل ذهنه بمئات الأفكار . وعندما كان يفرغ ساعة ، كان يجد دائما أشياء صغيرة فى انتظاره ، كاصلاح باب أو اعادة طلائه ، ونثر البذور فى مساحة صغيرة من حديقة الخضراوات . كان دائما فى نشاط محموم . وكم قالت كريستيان عنه : انه سيموت اذا لم يجد ما يفعله . لكن الحقيقة هى عكس ذلك تماما . انه الآن فقط قد شرع يعيش .

وكان هذا الخاطر يعاوده بين الحين والحين : هل العمل حقا هو مبتدأ الوجود ومنتهاه . أليس من الممكن أن يكون غير ذلك ؟ لكنه كان يستبعد هذا الخاطر بابتسامة . وكان من الغباء أن يشغل نفسه بهذه الاسئلة . فقد ظل يعمل عشرين عاما أو أكثر ، وأصبح الكفاح لازما له كالهواء الذى يستنشقه . لقد كان فى حاجة اليه ليتفوق على منافسيه وليفرض ارادته ، وليسمع الناس يتهامسون وهو يسير

www.ibtesama.com/vb

ـ هذا هيرمانتييه .. تعرفونه بالطبع .. صاحب مصابيح هيرمانتييه .

لكنه على أية حال لم ينكر أن فترة الانقطاع هذه كانت من دواعى سروره . هو الآن على الأقل لا يريد أن ينتحر ، كما فكر يوما وهو فى المستشفى ، عندما قال له لوثييه :

ـ انك ستحتاج الى قدر كبير من الشجاعة يا صديقى .

نعم . لو كان قد وقع فى ذلك الوقت على سلاح ـ ولو على مطواة ـ لكان قد أجهز على نفسه .

وهنا أحس هيرمانتييه بأن ثمة زهورا على يساره ، فتوقف وتحسسها . نعم . انها هناك . فقطف واحدة باعتناء . ولو كان أحد قد رآه فى ذلك الوقت من باب الحديقة ، لما شك أبدا فى أن هذا الرجل أعمى ولظن أنه وضع هذه النظارة على عينيه ليقيهما وهج الشمس ..

لم يكن ثمة أحد على أية حال . الا أن هيرمانتييه انشرح صدره لهذا الخاطر . وأخذ من ثم يتصرف كشخص عادى ـ كأن هناك فعلا من يرقبه . فأخذ يقطع ساق الزهرة ، ثم انحرف برأسه جانبا كأنه يتطلع الى قلبها . وأحس عندئذ بأن ثمة من يتطلع اليه . وبما يكون شعوره صادقا . فالمرء لا يكاد يفقد بصره حتى يشعر بأن هناك من ينظر نحوه ، وكان هذا شيئا فوق احتماله . فكان يضيق ويتململ ويفقد أعصابه فجأة ويشعر بأنه لا شك يبدو كمنبوذ مهيض . وكان هذا هو السبب فى رفضه السير بعصا . ان العصا تجعله يبدو كمتسول ولو سار بها لكانت القشة التى تقصم ظهر البعير .

ثم انه يستطيع أن يسير بدونها على ما يرام . ويستطيع أن يقطع ساق هذه الزهرة كأى شخص عادى . ولو كان ثمة من يراه حقا لأعجب به . وشعر عندئذ بغبطة عميقة . ان المرء يستطيع على أية حال أن يرى جيدا ولو كان كفيفا ـ ذلك اذا كان يستمتع بذاكرة طيبة . ولكنه فى الواقع يفتقد مثل هذه الذاكرة . فقد عاش مشغولا بالمستقبل ، رأسه مكتظ بالمشروعات والخطط ، فلم يلق اهتماما

www.ibtesama.com/vb

كافيا الى ما يحيط به . كانت الحقيقة بالنسبة له ترتهن بتشغيل ارادته وقواه . فهل حقا تطلع يوما الى أوجه الأشخاص الذين كان يلقى اليهم بأوامره ؟ لم يكن هذا الأمر يستحق اهتمامه فى ذلك الوقت .. وعليه الآن أن يبذل جهدا كبيرا ليتذكر هؤلاء .

وأسوأ من ذلك . كانت هناك كريستيان . انه لا يستطيع مهما حاول أن يتصورها كما هى فى الحقيقة .. كلا لا يتجزأ . كان اذا رأى وجهها غاب عنه جسمها فى ضباب كالسديم . وكان اذا رأى جسمها ، محدد التقاطيع ، لم ير وجهها الا كدائرة بيضاوية دكناء .

ومضى هيرمانتييه فى طريقه . لم يكن يعانى الآن من شىء سوى الحرارة . انه يستطيع أن يمكث بضعة أسابيع متراضيا بغير عمل ؛ فبعيدا عن هذا المكان يعمل مصنعه وينتج المصابيح بالآلاف . مضى فى طريقه حتى أشرف على النباتات التى تتسلق جانب السور . أنها تحتاج الى تقليم . ترى من يفعل ذلك . ليست كريستيان بالطبع ، ولا ماكسيم . فماذا عن هيوبير اذن ؟ . لا .. ولا حتى هيوبير ..

انه لا يحسن استخدام المقص . أما عن كليمان .

وهنا قال هيرمانتييه لنفسه : ولماذا لا أحاول أن أفعل ذلك بنفسى ؟

وسمع صوت مياه تتناثر فعرف أنه اوشك أن يصل الى الجاراج . لا شك أن كليمان يغسل السيارة . وعندما اقترب صاح به كليمان :

- صباح الخير يا سيدى .. هل بدأ سيدى يتعرف على الطريق ؟.. حذار .. فان ثمة بركا صغيرة من الماء فى كل مكان .

ولكن هيرمانتييه ظل يسير دون أن يعبأ بالماء الذى بلل حذاءه وتناثر على بنطلونه الأبيض .. لا بأس .. تستطيع مارسيلين أن تنظفهما . وربت هيرمانتييه برفق على السيارة ثم مر بأصابعه على سطحها ، حتى عثر على مقبض الباب ففتحه وجلس الى عجلة القيادة . كان كل ما يلمسه ويشمه فى السيارة يوحى له بمشاعر الترف . الا أنه تحسر على عدم استطاعته القيادة من جديد . وما ليث أن تساءل :

www.ibtesama.com/vb

ـ هل تذكر يا كليمان يوم جئنا .. ألم يحدث شيء للسيارة .. عطل ما ؟.. اننى أذكر أننى كدت أن أستسلم للنوم ولكننى أحسست برغم ذلك أننا توقفنا فى مكان ما .. ولوقت طويل .

فقال كليمان :

ـ لقد توقفنا بالفعل يا سيدى ولكن ليس لوقت طويل . فقد كنت مضطرا الى أن أغير احدى فيشات السيارة .

وضغط هيرمانتييه على مفتاح السير وأخذ ينصت الى هدير الموتور . ثم قال فجأة :

ـ اسمع يا كليمان . اننى أود دائما أن أطلع أولا بأول على كل عيب يطرأ على السيارة ..

فقال كليمان معتذرا :

ـ لقد ظننت .. فيما يتعلق بفيشة بسيطة ..

فقاطعه على الفور :

ـ ليس من حقك أن تظن شيئا . ولتفعل ما تؤمر به .

وأوقف هيرمانتييه الموتور ولكنه ظل جالسا فى مكانه لحظة وهو يعبث بعجلة القيادة . نعم ، لقد كان ملمسها يبعث على السرور . لكن هذه الأفكار لا جدوى من ورائها . فأسرع بالخروج .

وقدم هيرمانتييه للسائق سيجارة متلطفا وهو يقول :

ـ وثمة شيء آخر . اننى لا أحب أن ترتفع تكاليف الجاراج الى هذا النحو الصارخ خمسة عشر ألف فرنك لشهر يونيو فقط .. ألا ترى فى ذلك ثمنا باهظا ؟

ـ ولكن .. اعذرنى يا سيدى ..

وحاول كليمان بأن يمضى فى حديثه لكنه تلعثم .. وما لبث أن جمع أطراف شجاعته وغمغم :

ـ لست أدرى يا سيدى كيف وصلت الفاتورة الى هذا المبلغ .

ـ ولكنها وصلت بالفعل . اننى أعلم ذلك فأنا الذى وقعت الشيك . اننى لن أبالى هذه المرة ، ولكننى من الآن فصاعدا لا أريد أى سوء فهم .. يجب أن تسير الامور كما كانت من قبل .. أتفهمنى . كما كانت من قبل .

www.ibtesama.com/vb

ـ حسنا يا سيدى .

ـ ولهذا يجب ألا تتمادى عندما تتحدث الى السيدة .. انك تعلم بالضبط ما أقصد .

وهنا كان كليمان يغسل جوانب السيارة وقد بدا عليه الغضب كان سريع التأثر ، يلتهب وجهه بالغضب من جراء كلمة أو عبارة . وعندما كان ذلك يحدث ، كان يغمض بعض عينه . وكان هيرمانتييه لا يذكر اى العينيين يغمضهما كليمان نصف اغماضة . وكان كليمان فى موقفه هذا يستطيع أن يحول خرطوم المياه الى هيرمانتييه ويغرقه من رأسه الى قدميه .

ولكنه لم يلبث أن قال :

ـ ان سيدى يعتقد أننى لص . ولكن ثمة آخرين يحسن به أن يتهمهم أولا .

ولم يكن هيرمانتييه فى حال تسمح له باستمرار الجدل ، فتركه ومضى . وسمع كليمان يصيح به :

ـ لا تذهب فى هذا الطريق . انك الآن متجه الى جدار الجراج .

وهنا ، وفى مثل لمح البرق ، تلاشت الثقة من نفس هيرمانتييه . لم يعد يشعر فجأة بأشعة الشمس ولم يعد يسمع طنين الحشرات . بل عاد أدراجه متثاقلا ، غاضبا ، مهانا .. أعصابه على وشك أن تثور . ما الفائدة فى أن يفلظ لسائقه القول ، ثم يعود فى اللحظة التالية ، فيضطر الى قبول ارشاده أو المغامرة بالاصطدام فى الحائط . وربما لم يكن هناك حائط على الاطلاق . ربما يسخر به كليمان لمجرد أن ينال منه .

وروع هيرمانتييه لخاطره ذاك . لا .. مستحيل . أن كليمان لا يجرؤ على أن يفعل شيئا كهذا . انه يعمل فى خدمته منذ وقت طويل ولم يعهد فيه هذه الخصلة . ربما يكون حامى الطبع متحررا ، لكن أن يسخر من .. من .. رجل لا حول له ولا قوة ـ فهذه مسألة أخرى . لزم هيرمانتييه مكانه فلم يتحرك . كانت أعصابه قد أفلتت منه . وعاد من جديد الى خضم مشكلته القديمة ـ

www.ibtesama.com/vb

القلق الى حد الخوف من وجود الحوائط . وقد كان هذا الامر سخيفا بالطبع ، لكن سخفه لم يغير من حقيقته . هذا الشعور يتملكه . انه قائم يمسك بتلابيبه . انه خائف ، والخوف قد شمل كل عضلة من عضلاته . خائف من الجدار ، برغم أنه يعلم تماما أنه يواجه المنزل الآن ، وأنه لا يبعد عنه أكثر من ثلاثين ياردة .

ـ لا تذهب فى هذا الطريق . انك الآن متجه الى جدار الجراج ! كانت العبارة لا تزال تدوى فى رأسه . كيف يجسر بعد ذلك على أن يلقى بأمر آخر الى الرجل ؟ لا شك انه الآن يرقبه . لقد تحول الصيف كله الآن الى شىء قاتم أسود حزين . ذهبت عيناه . كذلك ذهب سلطانه . من دون عينيه لا يستطيع أن يكون له سلطان . ان اصدار الأوامر يتطلب أن يكون للمرء عينان ـ لا ليرى بهما فحسب ، بل ليتطلع فى أوجه الناس كذلك . نظرة تحديق واحدة من عينيه كانت تكفى لينهار من يقف أمامه ولا يستطيع الصمود . كان الكل فى ذلك سواء ، كليمان والآخرون .

وخطا هيرمانتييه خطوة ، ثم اعقبها بأخرى . كان جسمه ثقيلا أعزل . وتساءل فى ذهنه من يا ترى سيكون قائده ومرشده فى المصنع . مارسلين ؟ ولكن ، ليكن صريحا مع نفسه .. هل يا ترى لو كان هو الخادم ، أكان يحترم فى قرارته سيدا أعمى ؟!

وتضايق هيرمانتييه من خواطره . من اين ترد عليه كل هذه الأفكار المسمومة ؟ لعلها لا تأتى من مكان محدد . انها كلها كانت كامنة فى عقله منذ وقت طويل ، تتحين الفرصة لتفرض نفسها . أليس هذا واضحا الآن ؟ أليس واضحا أيضا أنه سيضطر ان عاجلا أو آجلا الى مواجهة هذه الافكار ؟.

تعجل هيرمانتييه خطواته نحو المنزل . لكنه بالطبع لم يتحرك بسرعة . كل ما فى الامر أنه كان يشعر بأنه فى عجلة ـ وامتد أحد ذراعيه الى الأمام رغما عنه . وظلت أصابعه تتحرك كأنما تزيح عن طريقه آلافا من الخيوط المنتشرة . وفى داخل البيت شعر بتحسن . فقد كان كل جسم يصادفه بمثابة مشعل يضىء له طريق السير . لا خوف ها هنا من الجدران الحقيقية . بالعكس انها جدران

www.ibtesama.com/vb

صديقة تحميه . انه يعرف أين هو ولا يحتاج الأمر لأن يخمن هنا يستطيع أن يستعيد كيانه .

وتحسس هيرمانتييه بحذر الدرجة التى تقوده الى الشرفة . وسمع عندئذ صوتا ـ صوت كريستيان !

ـ انك لم تمكث طويلا بالخارج

ـ أوه .. هل أنت هنا ؟

عاودته خواطره فجأة . تلك التى لا يعرف من أى مكان ترد . لكنه استجمع شجاعته وعبر الشرفة فى خطوة ثابتة . كان مقعده الطويل هناك على يمين الباب . وجده توا وجلس عليه وأسند ظهره ومدد قدميه . وتحسس مائدة صغيرة بجواره وشعر بأنه ليست هناك مفاجآت يمكن أن تخيفه الآن . كان الجو رطبا . وشعر هيرمانتييه عندئذ بأعصابه تهدأ وتتراخى . ثم تساءل :

ـ انك لم تبقى فى البيت من أجلى .. اليس كذلك ؟ .

وكانت كريستيان عندئذ منهمكة فى اشغال الابرة . وكان يسمع جيدا أصوات الابرتين المعدنيتين وهما تلتحمان .. لا شك أن كريستيان كانت تعد « الغرز » ، لأنها لم تجب .

واستطرد هيرمانتييه يقول :

ـ لست مضطرة الى أن تعيشى حياة العزلة لمجرد أننى لا ارغب فى مقابلة أحد . ليس من المعقول أن تفعلى ذلك .

ـ اننا لم نصل الا منذ قليل .

وسكت هيرمانتييه لحظة أو لحظتين . فقد اعجبه صوت الابرتين المتحمتين . وسمع صوتا صادرا من مقعد كريستيان . وكان هذا الصوت يصدر كلما وضعت ساقا على ساق أو انزلت ساقا من على ساق . ها هما الآن كلاهما مع الآخر ، يستطيعان أن يتحدثا اذا كان عند أحدهما ما يمكن أن يحادث به الآخر . لكن الصمت طال بينهما ، كأنهما أعداء .

وأخيرا قال هيرمانتييه :

ـ لماذا لا تخرجين بالسيارة الى ليسابل . اننى اعرف انك تحبين الخروج . ولست أريد أن تفسد أجازتك بسببى .

www.ibtesama.com/vb

فجاءه صوتها :

ـ ان ماكسيم سيحضر فى ظرف ساعة .

حقا ! كان هيرمانتييه قد نسى أخاه . كان كليمان قد ذهب اليه بالسيارة ليحضره من لاروشيل . لكن ...

ـ لست أدرى لماذا يصر ماكسيم على قضاء عطلة الصيف معنا هذا العام ؟

ـ انه يفعل ذلك من أجلك . انه يريد أن يساندك بعض الشىء . انك تعلم ياريشار أنك لا تعامله المعاملة الحسنة ، ومع ذلك فقد رفض عقدا بالعمل فى لابول لمدة شهرين من أجل ...

ـ شهران .. ولماذا شهران ؟

وطقطق المقعد الذى تجلس عليه كريستيان وشعر هيرمانتييه بيدها تلمس كمه :

ـ والآن .. تعقل يا ريشار .. هل أنت متـــأكد من أن فى استطاعتك العودة الى العمل فى أغسطس ؟

ـ بالطبع . بل اننى فى الواقع أستطيع أن أعود الى العمـــل الآن . اننى لست مريضا

ـ أعلم أنك لست مريضا .. على الأقل لست مريضا بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة .

ـ ماذا ؟.. ماذا تقصدين ؟

ـ اصغ الى يا ريشـــار .. انك لن تكسب شيئا بانفلات أعصابك . لقد شفيت حقا ، ولكنك عانيت صدمة عصبية ، صدمة رهيبة . لقد كان الدكتور لوثييه يصر دائما بقـــوله : يجب أن تجنبوه كل تعب مهما كان ضئيلا ، واذا ظهرت عليه أى بادرة من بوادر الحزن والاكتئاب ، فيجب أن توفروا له كل جو هادىء .

ـ انه لم يقل لى شيئا كهذا .

ـ لا أعتقد انه قال لك شيئا من هذا . انه بالطبع لم يرد أن يثير قلقك . لكن هذا لا يغير من الحقيقة ..

ـ أريد أن أعرف بالضبط ما هو هذا الشىء الذى يخشاه الدكتور ؟

www.ibtesama.com/vb

ـ انه لا يخشى عليك من شيء .. ليس من شيء خاص يخاف أن تتعرض له . انه فقط يرى أن من اللازم اتخاذ كل احتياط ممكن . وقد كان يريد فى الواقع أن يستبقيك مدة أطول تحت الرقابة . لكن هيوبير اعترض على ذلك .

ـ لست أدهش لذلك . فهيوبير يعلم جيدا أنه لا يستطيع أن يسير الأمور فى المصنع بدونى .

ـ حقا يا ريشار ! يجب ألا تتفوه بمثل هذه العبارات . ان من الظلم لهيوبير أن تقول عنه هذا . لقد كانت كلماته بالضبط للوثييه هى : اننى أعرف أن لدى هيرمانتييه قدرة كبيرة على الشفاء . واعتقد أن شهرين أو ثلاثة أشهر فى الريف الهادىء كفيلة بأن تعيده الى حالته الطبيعية .

ـ لا محل للجدل فى هذا . اننى سأكتب الى لوثييه بنفسى ، وعندئذ نعلم بالضبط ما ...

وتوقف هيرمانتييه فجأة . يكتب ! ان المسألة ليست بهذه السهولة . انتصب فى مجلسه وظل برغم ذلك جالسا وأسند خده الى قبضته . ثم قال باقتضاب :

ـ اننى سأعود الى ليون فى خلال شهر . فى خلال شهر فقط .

لكن صوتا فى قرارته كان يلح عليه بعبارة سابقة :

ـ هل يا ترى لو كان هو الخادم ، اكان يحترم سيدا أعمى ؟!

وأخيرا وقف هيرمانتييه بعد أن اضطرب به المجلس وقال :

ـ انك لا تدركين أهمية الأمر بالنسبة لى . ليس ثمة من يدرك أهمية الأمر سواى .

وهنا سمع صوت كريستيان :

ـ ما هذا الذى يقلقك .. أهو تهديدات الكارتل ؟ .

ـ الكارتل ؟ يالها من فكرة ! اننى لا أعبأ البتة بهذه الكارتل ، اننى لا أفكر الا فى المصباح . ان هذا المصباح كنز كبير .. انه يمكن أن يحقق ثروة ضخمة بشرط معالجة أموره على الوجه المناسب ،

www.ibtesama.com/vb

بشرط أن نحضر آلات جديدة . بشرط أن أكون هناك لأشرف على كل شيء بنفسي .

ـ آلات جديدة ؟

ـ هذا بالضبط ما قلته .

ولكن ما الفائدة من محاولة شرح كل هذا .. ان هذا معناه خلق الشجار للمرة المائة بينهما . انها ستلومه لأنه يخاطر بالكثير . ويقضم أكثر مما يستطيع أن يمضغ .. ألم يحدث من قبل أن ساءت حالته ؟ ولولا ان ظهر هيوبير فى اللحظة المناسبة وزاد من راس المال . نعم نعم . انه يعرف هذا كله .. لقد تجادلا فيه بما يكفى . حقا لقد انقذ هيوبير الموقف بماله . الا انه تبقى حقيقة أخرى مع ذلك وهى أن هيوبير لافائدة ولاجدوى ترجى من وجوده . ومع ذلك فان هذا سيكون أكثر مدعاة لاتهامات أخرى تلصقها به كريستيان .. انه مجنون بالعظمة ومستعد ليضحى بكل الناس فى سبيل اشباع شهوته الى السلطان . ولن ينتهى الأمر الا بأن تثير أيضا فى الموضوع مسألة عشيقاته وخليلاته . بل ان من العجيب حقا أن ينتهى الأمر بغير اثارتها هذه المسألة ـ كأنها تظن أن رجلا مثله يمكن ان يكتفى بامرأة واحدة ـ امرأة بلا جسم مثلها .. لتدعى الثقافة !!

نعم .. انهما سيخوضان فى الموضوع كله خطوة خطوة . انه أمر لا مفر منه . كلما جاءت سيرة العمل ، كلما امتد بهما الحديث وتشعب ليفصح كل منهما عن مشاكله واحزانه . لا شيء سيبقى مختفيا . حتى الأحقاد التى دفنت منذ أعوام ستطل برأسها من جديد ـ كل ما تغير هو أنه لم تعد له الكلمة الأخيرة كما كان العهد من قبل ، يطلق هذه الكلمة ثم يخطو الى الخارج غاضبا ويصفق الباب من خلفه . اذا حاول الآن ان يفعل شيئا كهذا أتاه صوتها على الفور : ليس من هذا الطريق .. انك تسير صوب الحائط !

ـ اسمعى يا كريستيان ؟ .

www.ibtesama.com/vb

ـ لا .. لا فائدة . انك لازلت مستعداً كالعادة للمخاطرة بمالك . وبمالى .

هل يمكن ان يحتد صوت المرء هذا الاحتداد ، وينطوى على مثل هذه الكراهية ؟ انها لابد ان تزدريه لأنه أصبح فى هذه الصورة ، رجلا يجب أن يقاد من يده ، ويطعم ، ويراقب كطفل. لقد كانت كريستيان دائما تكره الأطفال ، ولاشك أن جيلبرته كانت غلطة وفى الحق أنها تحولت ضده حتى قبل الحادث الذى ودى ببصره .. تحولت ضده لأسباب كثيرة .. أسباب سخيفة . لأنه لم يدرس فى المدارس المناسبة ، ولأن أباه كان عاملا عاديا. وبمعنى آخر لأنه كان ينتمى الى طبقة أخرى . طبقة العصاميين . كانت هذه هى الجريمة الكبرى . مسكينة كريستيان . انه لا يملك الا ان ينظر اليها لتصرفها هذا فقط نظرة تعال واشفاق . انه شديد بالطبع ، قارص الكلم أحيانا ، لكن اسمه ينبىء بمخترعات عدة ، وربما يجهل اشياء عديدة فى هذه الحياة ، لكنه ذاق لذة الابتكار والخلق .. اذن لماذا لا يتركونه وحده يتصرف كيفما شاء ؟

تمهل هيرمانتييه فترة مشغولا بخواطره ، ثم قال يترجم عنها:

ـ اننى أنا الذى اربح المال .. اليس كذلك ؟ . هل رأيت مصباحى الجديد ؟

ـ نعم .

ـ حسنا .. ألا يعجبك .؟

ـ لست أدرى شيئا عنه اطلاقا . ثم ان هذه ليست هى المسألة المسألة هى هل هذه هى اللحظة المناسبة لخوض هذه المغامرة ؟

ـ اللحظة المناسبة ؟.. هل تقصدين .. بسببى .. تعتقدين أننى انتهيت .. أليس كذلك ؟

ـ ليس على الدوام .. لكنك الآن لست فى مستوى القيام بالكثير ، لست فى مستوى الجهد المطلوب لعمل فى مثل هذه الضخامة . اننى لست مهندسة ، ولكن لى من الاحساس ما يجعلنى أدرك هذا . سيكون عليك أن تسافر وتلقى أناسا كثيرين

www.ibtesama.com/vb

وتدخل فى مفاوضات ؛ وفى مساومات قاسية . لا . لا ياريشار . لن تستطيع أن تصمد لهـذا .. لا تكن عنيدا .. اذا كنت ترى بنفسك ...»

فقاطعها فجأة .. حسنا .. يكفى هذا .

ولكنها أكملت حديثها ..

ـ أتسيت أنك فقدت من وزنك الكثير .. ان من الأفضل أن نتكلم بصراحة .. انه لصالحك ..

ـ لصالحى ؟ ! أظن انك تحاولين لصالحى أن تقنعينى بأننى قد انتهيت !

ـ يا عزيزى المسكين .. انك تريد أن تجعل الأمور شاقة على نفسك .. هل تعرف أحدا يود أن يعود الى مكتبه بعد ان تعرض لحادث مثلك .. يعود سريعا بعد خمسة اشهر ؟ اننى أقول لك بصراحة . لا يوجد أحد يمكن ان يفكر فى ذلك . انك لازلت على قيد الحياة ، ويجب أن تحمد للأقدار صنيعها .

وهنا تحرك هيرمانتييه حول المائدة واتجه نحو باب الصالة ، فتساءلت كريستيان بقلق :

ـ الى اين أنت ذاهب ؟

ـ سأصعد الى غرفتى . لا تقومى من مكانك . لا داعى لذلك . اننى اعرف طريقى .

لا .. انه ليس غاضبا . لكنه كان قد قرر أن يكتب الى لوثييه سيناشده ـ كرجل لرجل ـ أن يطلعه على الحقيقة .. وحتى اذا كان لوثييه قد تحدث حديثه هذا مع كريستيان فان من الممكن أن يكون مخطئا . انه لابد مخطىء . ان العقل لا تخف حدته لمجرد أن تنفجر قنبلة يدوية وتطيح بعينى المرء . اذا كان ثمة احتياطات يجب أن تتخذ ، فلماذا لم يعرفها من قبل ، لماذا لم يطلعه عليها أحد ، بدل كل هذه النصائح التى همس بها الطبيب من وراء ظهره الى كريستيان وهيوبير .

أخذ يصعد الدرج ببطء . كانت غرفته فى أعلى الدرج . اول غرفة ناحية اليسار .. كانا قد تعودا أن ينام كل منهما فى غرفة

www.ibtesama.com/vb

مستقلة منذ الحادث . دخل وأغلق الباب وراءه وأشعل سيجارة . ثم خلع سترته وفك رباط عنقه . وقاس المسافة بدقة وهو يتقدم صوب منضدة الكتابة التى كانت موضوعة تجاه النافذة المفتوحة تماما . لاشك أن البحر هناك أمامه . انه لم يذهب الى الشاطىء بعد . يا للسخرية ! ان كريستيان التى تبدى كل هذا الاهتمام بصحته لم تفكر فى هذا الأمر على ما يبدو . ولكنه بالرغم من ذلك يعلم أنه سيرفض اذا اقترحت عليه الذهاب الى البحر . الا انه فى الواقع يتوق الى الذهاب . على الأقل لينفض عنه جموده واكتئابه .

وجلس الى المنضدة وتناول ورقة . ثم شعر فجأة بضخامة المهمة التى هو مقدم عليها . فكيف يتأكد أولا من أن ثمة حبرا فى قلمه ؟ نعم يستطيع أن يخط به على ظهر يده ، ثم يتذوقه بلسانه . انه هناك فعلا . ان القلم ملىء بالحبر .

وبدأ يكتب .

« عزيزى لوثييه » ..

كيف يعلم أن الكلمات مخطوطة على مسافات مناسبة ، وفى خط مستقيم ؟ وضع مسطرة على الورقة ، ليستطيع أن يتحكم بها فى كتابته وسطوره .

« اننى أكتب اليك من لابورين » .

ها هو ذا قد وصل الى حافة الورقة . نهاية السطر . لقد أفرط فى ضخامة شكل الكلمات . ربما تبدو الكلمات فى ضخامتها ككلمات مجنون سطرها ؟ ربما يفزع لوثييه لمرآها .. لكن لابأس . لابد من الاصرار .

أنزل هيرمانتييه المسطرة قليلا بعد أن رفعها عن الورق حتى لا يكون قد نالها الحبر .. ثم كتب ..

« اننى أشعر أننى فى تمام الصحة » .

ورفع يده يفكر فيما سيكتبه بعد ذلك . ثم ما لبث أن حار أين سيضع يده . ربما خط كلماته الجديدة فوق سطوره الأولى!

www.ibtesama.com/vb

لعل من الأفضل اذن أن يبدأ سطرا جديدا . هنا كان العرق قد غمر جبهته وصفحة يديه ، لكنه لم يجرؤ على مسحهما . فلو ترك هذه المسطرة ، لربما لم يعرف مكانها بعد ذلك على الصفحة اطلاقا .

« ان زوجتى تقول ..

ترك القلم يقوده . وأخذ يتنهد بعد كل كلمتين أو ثلاث .

« .. اننى يجب أن أتخذ كل الاحتياطات .

ان من المؤلم ألا يتمكن من قراءة ما كتب .. وقد أوشك الآن أن ينسى ما استهل به الخطاب . كانت الأفكار تروغ منه ومن قبضة فكره على ما يبدو . ثم ان هناك الظرف ! انه لم يفكر فى ذلك . انها مسألة أخرى تماما ! ثم من الذى سيضعه فى صندوق البريد . كليمان ؟. مارسيلين ؟ لعلهم سيفرقون فى الضحك عندما يطالعهم بشىء كهذا . كريستيان ؟ لا. لقد أوشك أن يتشاجر معها هذا الصباح من أجل ذلك .

ثم أن لوثييه لن يكون فى ليون . موسم الاجازات قد بدأ .. ولوثييه يذهب الى سويسرا دائما فى يوليو . كانت الورقة عندئذ قد تكورت فى يده ، ثم فتحت مرة أخرى ، ومزقت اربا . ليس هناك من شىء سوى الانتظار .. رفع هيرمانتييه نظارته عن عينيه ومسح العرق الذى غشى جفنيه . ثم تحسس جبهته وسوالفه. لقد ذهب تماما .. لم تعد ثمة نقطة رطبة . أما عن ذهنه ، فهو صاف كالعهد به. شعر عندئذ بقوة وطاقة تملآن كيانه . اذن ما هذا الذى كان يخشاه لوثييه . بالطبع لقد كانت هناك صدمة عنيفة فى ذلك الوقت . لقد شعر بأن رأسه قد طارت فى غمرة سيل من الشرار . وبعد ذلك بأيام كان مجرد كتلة من اللحم بغير عقل، بلا روح .. وشيئا فشيئا استعاد وعيه واستطاع أن يتذكر الماضى .. يضيفه جزءا على جزء . وظلت ذاكرته وقتا ما كألبوم اكتظ بالصور على غير ترتيب . لكنه كان من نسل أشداء . وكان الأمر يتطلب لصرعهم أكثر مما حدث . لقد صمد ذهنه تماما للانفجار .

www.ibtesama.com/vb

الحق أن الحادث وقع فى لحظة سيئة .. فى الوقت الذى كان فيه قد بذل جهدا كثيرا فى ابتكار مصباحه . وفى الحق أيضا أن من كف بصره يمكن أن يصير نهبا للحزن والاكتئاب ، ولا سيما اذا كان قبل ذلك حساسا ، سهل الاثارة . لكن هذا لا يعنى أن يستحيل رجل مثله فى السادسة والأربعين الى كم مهمل لا جدوى منه لمجرد انه فقد بصره .

ودفع هيرمانتييه المائدة بعيدا عنه . لقد أخطأ مرة أخرى فى أن يدع ذهنه يفكر فى هذه الأمور . وربما يكون هذا هو الشىء الذى يخافونه جميعا . أن تتملكه مثل هذه الهستيريا دائما .

واتجه الى فراشه ورقد عليه فى تراخ . الا يمكن أن يرضى بأن يعيش بقية عمره فى راحة .. من غير أن يعمل شيئا . لا .. بالطبع لا .. انه لا يستطيع أن يتصور شيئا يجلب له الأسى والحسرة أكثر من هذا .

وأدار زر الراديو . وحاول عبثا ان يستمع الى برنامج يحظى باهتمامه . لكنه لم يجد فى كل المحطات الا الموسيقى . وكانت الموسيقى تبعث كل سأمه ، فتثاءب . وربما يكون متعبا قليلا . وتذكر عندئذ فجأة العبارة التى قالها كليمان : ان سيدى يعتقد اننى لص . ولكن ثمة آخرين يحسن به أن يتهمهم أولا . أليست هذه هى الكلمات التى نطق بها بالضبط ؟ وتوقف عندئذ مغن كان يرسل الغناء فى الراديو وبدأت موسيقى الجاز . وأغفى هيرمانتييه وتناهى اليه قبل أن يسترسل تماما فى النوم صوت خفيض يتحدث بالنشرة الجوية . انخفاض جوى متجه الى الداخل من الغرب . رذاذ متناثر فى بريتانى ولافانديه . وغمغم فى قراءته : هاهم مرة أخرى متنبئو الأرصاد ـ يسخرون من أنفسهم !.

وترك نفسه للسبات تماما . وفجأة فتح عينيه مرة أخرى . وشرع يبصر الشوارع والحدائق والألوان .

كان هيرمانتييه يحلم ..

www.ibtesama.com/vb

- ٣ -

بدأ كل شيء في اليوم التالي . أو لعله اليوم الذي تلا ذلك . لا . انه لا يمكن أن يكون مخطئا . فقد جاء ماكسيم في اليوم السابق . وكان وصوله حدا فاصلا . لا يمكن أن يكون هناك خطأ . من غير ذلك كان كل يوم أشبه بالآخر وكان من العسير أن يفرق بينها . ذلك أن التقويم بالنسبة لهارمانتييه كان شيئا لم يعد له وجود . أصبحت الحياة كلها يوما واحداً ، طويلا يبعث على السأم .

كان مقدم ماكسيم هو الذي حدد كل شيء اذن . . وقد وصل في اليوم السابق . وكانت كلماته جارحة :

ـ حسنا أيها الديك العجوز . كيف أنت ؟ . انك لا تبدو في حالة طيبة ! .

كان ماكسيم أصغر منه بأربع سنين ، لكنه كان قد نشأ على احترام أخيه الأكبر ، والأقوى . . فكان يظهر دائما أمامه بمظهر الصغير في حضرة الكبير . الا انه الآن قد حانت له الفرصة لينفض عن نفسه تبعيته . وبدا في لهجته أنه استرد شخصيته .

كان يجب على هيرمانتييه أن يوقفه عند حده . لكنه لم يفعل . وترك الأمر يمر . . ثم صعد الى غرفته ليأوى الى فراشه مبكرا وهو يشعر بالغضب والاستياء ، قد أرهفت أعصابه وانتابه قلق غامض . وظل وقتا طويلا جالسا الى النافذة . وسمع أصوات أكريستيان وماكسيم وهما يحاولان خفضها خوفا من ازعاجه . واتجه كل منهما الى غرفة نومه . . ثم سمع هيرمانتييه صوت كليمان يتردد في الحديقة ، وعلت تنهدة ارتياح من صدر كليمان ، وهو يقول :

ـ ياله من قمر رائع !

هل يمكن أن تؤذيه مثل هذه الكلمات العادية البسيطة هذا الأذى الكبير ؟ . خلع هيرمانتييه ملابسه ورقد على الفراش واتجه بوجهه ناحية الحائط وحاول أن يتصور القمر وضوءه . لابد أنه الآن يرسل أشعته عبر هذه الغرفة نفسها . ولم ينم هيرمانتييه

www.ibtesama.com/vb

الا قليلا . كان قلقا يصحو على كل صوت . يتابع تقدم الليل بصوت الساعة يأتيه من الكنيسة . كانت الدقات تبدو بعيدة . وكان الجو جافا يحملها بين طياته فتظل أصداؤها ترن وقتا طويلا الى أن تذهب وتتلاشى. لم يكن يقدر من قبل أن يكون لوقع جرس الكنيسة مثل هذا الجمال .

وتقلب هيرمانتيه . كان الفراش حارا . وتمنى عندئذ أن يكون فى ليون . وان كان لا يدرى فى أعماقه سببا لذلك . ان هذا البيت أكثر راحة . لكن ربما كانت هذه هى المشكلة . ان الحياة هنا نائمة أكثر من اللازم .. أو لعله الجو .. عندما أبتاع هذه الفيللا فى لافنديه كان يتطلع الى الطقس لا يختلف عن طقس ليون ـ ليستمتع بنسمات الصبح المنعشة وضباب الأمسيات والريح الرطبة التى كانت تطارد السحب فى السماء . ولكن ما يضايقه الآن هو هذه الشمس المحرقة التى تصب شواظها من بدء النهار تطن فى أشعتها الحشرات الطائرة . حتى عندما يغلق المرء النافذة لا يستطيع أن يجد منها مهربا . فالحرارة تخترق الجدران على ما يبدو . والأرض تطقطق من الجفاف . والملابس تلتصق بالجسم . حتى ماء الشرب يبدو فى مذاقه الركود . لماذا لا يعود الى ليون ؟ بدأ يفكر فى الأمر على محمل الجد . لاشك أن الجو حار هناك مثلما هو هنا . لكنه يكون عندئذ فى جوار مصنعه. وهذا وحده يمكن أن ينسيه الشمس وحرارتها . انه لا يستطيع أن يفعل ذلك هنا . ان الشمس هنا لا تدعه ينساها .

ونام هيرمانتييه ..

وفى الصباح لم يشعر بميل الى ارتداء سترته البيضاء الأنيقة. فأخذ يتحسس داخل الدولاب ليبحث عن الملابس التى يرتديها فى رحلاته ، والتى يسميها ملابس الهجرة . لم تكن أنيقة ولم تكن زاهية الألوان ، لكنه كان يحب أن يرتديها ويتجول بها . وكان كثيرا ما يضحك لقول كريستيان وهى تراه فى هذه الملابس اذا كنت تنوى أن تستخفى فى زى عامل ، فعليك أن تذهب وتجىء من الباب الخلفى !

www.ibtesama.com/vb

وعثر على ملابسه بغير صعوبة. ولكنه عندما ارتداها أدرك أن في الأمر خطأ ما . فقد تدلت على جسمه بغير احكام . وعبث في الجيوب فعثر على المطواة التي كان يأخذها معه عندما يذهب لصيد السمك .. كذلك عثر على بعض الخيوط ، وأشياء أخرى كثيرة مما كان يستخدمها في عطلاته .. أشياء تعيد الطمأنينة الى نفسه . لكن . هل يكون حقا قد هزل جسمه الى هذا الحد؟ لا شك أنه فقد من وزنه الكثير . انه يستطيع أن يدخل قبضته ما بين بنطلونه ومعدته .

ـ مستحيل !. انني أكاد أفقد كل تناسب في جسمي .

وبدأ يتحسس بدنه مرة أخرى . لم لم يلحظ هذا من قبل. سترتاه الأخريان اللتان كان يرتديهما في ليون تناسبانه تماما . لكن بالطبع . لقد صنعتا من أجله قبل أن يغادر المستشفى بوقت قليل . انه يتذكر الآن كيف كانت كريستيان وهيوبير يلحان عليه في أن يصنع لنفسه ملابس جديدة .. كذلك يذكر كيف راغ منه صديقه بليش عندما سأله كيف يبدو . وماكسيم أيضا ، بعد ملاحظته الأولى ، حاول أن يعيد الطمأنينة الى قلبه . زعم له أنه مندهش اذ يراه هكذا في أحسن حال . لا شك أنه فعل ذلك مدفوعا من كريستيان .. لكن نبرته لم تكن أبدا تنم عن صدق .. لقد أجبر اجبارا على التفاؤل . ربما بناء على اوامر لوثييه الطبيب : يجب الا يعلم هيرمانتييه شيئا عن حالته .

في هذه الحالة اذن لابد أن يكون ثمة شيء جدي ، لكنه مع ذلك لا يحس شيئا . شهيته مفتوحة ، لا دوار ولا لحظات ضعف مفاجئة . لا شيء على الاطلاق فيما عدا ذلك الاحساس الغريب بأن ثمة شيئا سيثب عليه فجأة . لكن هذا بالطبع ، مجرد أثر طبيعي لما حدث له .

وصاح هيرمانتييه بأعلى صوته : ماكسيم !. وخرجت نبرته برغم ذلك لا تنم عن ارتياح .

ـ ماكسيم .. تعال هنا ؟

www.ibtesama.com/vb

وسمع عندئذ صوت خف فى الممر . ثم فتح الباب ، وجاءه صوت ماكسيم :

ـ حسنا .. ماذا تريد أيها الأخ العجوز ؟ .

ـ ماكسيم .. اننى أريد أن أعرف الحقيقة . وأنت ستطلعنى عليها بنفسك هنا ـ هل أنا مجرد حطام لا أكثر ولا أقل .. حدثنى بربك ولا تتردد . لا تتوقف لتفتش عن جواب . قل لى ؟ ..

ولكنه قبل أن يكمل حديثه سمع ضحكة من ماكسيم . ومال هيرمانتييه الى الأمام قليلا محاولا أن يتفهم سر هذه الضحكة . هل هى طبيعية تلقائية ؟ لا .. انها ضحكة يراد بها كسب الوقت . ان ضحكته لا تفترق عن كذبه .. ككل شيء آخر .. واذا كان يقصد بها العطف والرثاء .. فان هذا لا يجعلها ضحكة صادقة . بالعكس .

وصاح ماكسيم :

ـ حطام ؟ بربك لا تكن سخيفا .

ـ اذن كيف تعلل هذا ؟

ومد سترته الى الأمام ليريه كيف هى واسعة عليه . وكانت شفتاه ترتعدان من الغضب ، والهوان ، ومن الشعور بأنه لا حول له ولا قوة .

ـ ان جسمك بالطبع قد هزل شيئا ما .

ـ شيئا ما ! .

ـ بربك لا تجعل للأمر هـذه الرنة من الأسى . لاشك أنك ستستعيد كل ما فقدته ، وسترى .

ومد هيرمانتييه يده ليمسك بأخيه ، لكنه لم يجد سوى الفراغ أمامه . فجمع قبضته وقال :

ـ يجب أن تكون صريحا معى يا ماكسيم . أتظن اننى لا اسمع همساتك من وراء ظهرى ؟ ! . أتظن اننى لا الاحظ صمتك . ثمة خطأ ما . ثمة شيء قد اخفيتموه عنى . شيء لا أحد منكم يملك الشجاعة الكافية ليفضى به الى . هل هو اذن شيء فى هذه الدرجة من الفظاعة . بربك حدثنى . ان من حقى ان أعرف .

www.ibtesama.com/vb

ـ ولكننى قلت لك بالفعل أنه ليس هناك شيء . وستبقى سليما معافى مالم تضن نفسك عملا فى المصنع ـ فى مصابيحك وعقودك ومالك . لكن هكذا أنت بالضبط . انك لا ترضى بأن تكون مثل سائر الناس . ولو كنت حتى « الله » سبحانه وتعالى لاخترعت نوعا خاصا من العمل لأيام الأحد ! ما هذا الذى أسمعه عن رغبتك فى أن تعود آخر الشهر .. لقد حدثتنى كريستيان بذلك فى الليلة الماضية . الا تستطيع أن تمكث هنا حتى تستعيد طبيعتك الأولى مرة أخرى ؟

وهنا كان هيرمانتييه قد جلس على حافة الفراش وقد داخله شيء من الاطمئنان . لا . ان ماكسيم لا يكذب . انه يتحدث حديثا طبيعيا .

ـ ولكن لابد لاحد منا أن يعمل . واذا كنت تعتقد أننى لا أعرف لماذا جئت الينا لتنفق الصيف بيننا فانت مخطىء . انك مفلس ، اليس كذلك ؟. تفضل وخذ سيجارة . ان العلبة هنا موضوعة على المائدة .. هل كانت تستحق كل ذلك ؟ .

وضحك ماكسيم عندما ادرك مقصده . ولم يعد ثمة شك هذه المرة فى أن ضحكه طبيعى . ليست هذه أول مرة على أية حال يعترف فيها لأخيه بمغامراته .

ـ كانت لا بأس بها !

ـ حدثنى عنها .. أهى ساقية أخرى من ساقيات البارات ؟ أنا أعرف أنك لا تتورع عن شيء كهذا ..

ـ آسف لأنك مخطىء هذه المرة .. انها ممثلة . عضو فى فرقة المالار ..

ـ لعلها بديلة لاحدى بطلات الفرقة .

ـ أبدا .. أيها الديك العجوز ! . انها تأخذ الأدوار الرئيسية .

ـ اسمع يا ماكسيم .. اننى أود أن تكف عن مناداتى بالديك العجوز .. اننى لا أحب هذه العبارة .. أما فيما يتعلق بمغامراتك فلست أدرى لماذا أهتم بالاستماع اليها ؟ .

www.ibtesama.com/vb

ـ هذا حسن ! ولكنك أنت الذى بدأت تسألنى عنها !
ـ حسنا . سنترك ذلك الآن . هل كلفتك شيئا من المال ؟ .
ـ كلفتنى ما يكفى .
ـ بالطبع . الممثلات يتكلفن الكثير .
ـ كأن لك خبرة بذلك !

فتبسم هيرمانتييه وغمغم :
ـ أيها الكلب القذر !. اذن لقد جئت هنا لتتسلح بمالَ .. مسألة هذا العقد فى لابول كانت كذبة مختلقة . أليس كذلك ؟ .
ـ ليس بالضبط . لو كنت شعرت بميل لهذه الوظيفة لنلتها. لكننى كنت فى حالة معنوية سيئة بسبب هجرانها لى .
ـ ولكنك تجد تعاستك أكثر احتمالا لو كان فى جيبك شىء من المال .. أليس كذلك ؟!

ـ أوه .. بلا شك.
ـ هل تكفى ثلاثون ألفا لتقف من جديد على قدميك !
ـ ان مثل هذا المبلغ سيكفينى لو كنت حريصـــا .. الا أن الحرص لم يكن أبدا من خصالى القوية .

ـ حسنا .. فلتكن اذن خمسة وثلاثين فقط . لن اعطيـك مليما واحدا زيادة . ناولنى دفتر الشيكات . انه فى جيب سترتى الرمادية .. ولكن . هل تظن حقا اننى بعد شهرين من الراحة .. فقاطعه أخوه :

ـ بالطبع . لكن عليك أن تلتزم الراحة على الوجه المناسب ! بدل أن تعكف على الأفكار المسخيفة تشغل بها نفسك . ان هذا هو الهلاك بعينه . دع عقلك فى سلام . لا شك أنه الآن قد أضحى كثمرة جافة من فرط ما امتصصت عصارته !.. والآن .. هل تسمح لى بأن أتدرب هنا على العزف .. اذا لم يكن هذا يضايقك .

فهز هيرمانتييه كتفيه مستخفا .. ثم قال :
ـ حتى لو كان ذلك يضـايقنى فلن يمنعـك من العـزف ! الساكسوفون ! . هذه أسوأ مهنة يمكن أن تشتغل بها . ألا تعتقد

www.ibtesama.com/vb

أننى لم أسمعك وأنت تسعل .. لكن دعنا من هذا كله .. أعطنى الشيك لأوقعه .. ودعنى لأتم ارتداء ملابسى .

ـ شكرا .. ان لك قلبا من ذهب يا ريشار تحت كل هذه القسوة والجفاء .

ـ اذهب من هنا !

ووقف هيرمانتييه وخلع ملابس الهجرة ، وقذف بها فى أرض الدولاب . وشعر عندئذ بتحسن . ربما يكون ماكسيم على حق . يجب أن يحمل الأمور حملا هينا يسيرا .. يجب ألا يبذل أى مجهود ، ولا يقلق على الأخص .

وذهب الى الحمام الملاصق لغرفته ليحلق . وكانت الحلاقة شيئا آخر من تلك الاشياء التى تجعله يفقد أعصابه . لماذا لا يستخدم آلة الحلاقة الكهربائية . انه لا يفعل ذلك لفرط عناده . وفى كل يوم تتكرر المهزلة ، تسقط الفرشاة فى الماء ، وينزلق الصابون بين أصابعه ، ويتناثر على الأرض .

لكنه يحلق طول عمره بنفس الطريقة . ولن يغير عادته أبدا .

ونزل هيرمانتييه الى الطابق الأسفل لتناول الافطار ، لكنه كان لا يزال متأففا . وسمع مارسيلين تقول : الافطار جاهز .

آه .. الافطار . لم يعد فى يومه لحظة واحدة الا وتحولت الى شىء كريه مر المذاق .. كان الافطار فيما مضى وجبة لها سحرها .. متعة تنسم القهوة ونثر الزبد على الشطائر الساخنة ونشر صحيفة الصباح بين يديه . ثم نظرة على عناوينها الرئيسية ونظرة على أسعار الاقفال فى البورصة . الخبز يذوب فى فمه والقهوة قوية نفاذة . ثم أول سيجارة . وبلانش تحضر له قبعته ومعطفه .. اللعنة ! لقد كان يشعر بالحياة فى ذلك الوقت . اما الآن .

ـ هلا جلست يا سيدى .. من هنا ؟

ـ دعينى وحدى . اننى قادر على أن أجلس بنفسى .

ووجد هيرمانتييه شطائر الخبز والزبد الى يساره .. وكان قدح السكر الى يمينه . بقى أن يثبتوا له المنشفة على صدره

www.ibtesama.com/vb

لتكمل المهزلة ، وانحنى هيرمانتييه على طبقه وشرع يلتهم الطعام بسرعة كطفل مذنب . ولم يكن ثمة ما يشغله فى ذلك الوقت الا أن يفرغ من طعامه فى أسرع وقت ويلتجىء الى الشرفة حيث يبدو وهو ممدد فى كرسيه الطويل كشخص عادى على أية حال .

كانت الشمس قد بدأت ترسل حرارتها . وكان ثمة من يرش الحديقة فى ذلك الوقت . فقد كان هيرمانتييه يستطيع من مجلسه أن يميز صوت القطرات وهى تتناثر بلطف على الممر . وكان كليمان يقطع الأخشاب خلف البيت ، وشعر هيرمانتييه فى مكانه بأن كل شىء على ما يرام. وشرع يتحسس وجنتيه وعنقه، وتمنى عندئذ ولو لثانية ، أن يرى نفسه فى المرآة . الأصابع يمكن أن تتحسس ، لكن لا يمكنها ان تعطى صورة دقيقة . واذا كان جسمه قد هزل فلا شك أن لونه قد تغير ، ولا سيما فى جانب أنفه ، وتنهد هيرمانتييه عندئذ وأدلى ذراعيه الى جانبيه ، وفجأة خطرت له فكرة ، فتحسس خاتم زواجه وحاول أن يخلعه من أصبعه . مستحيل . كان الخاتم غائرا فى لحمه ، كما كان حاله منذ سنوات وكان هذا أمرا غريبا . فالمرء اذا فقد كثيرا من وزنه بدا ذلك أول ما بدا فى يديه . لكن هذه هى المسألة . فهو ليس شخصا ماديا ، ألم يقل لوثييه ..

الى الجحيم هذا الطبيب ! حاول هيرمانتييه أن يستريح فى مقعده ، ثم سمع صوت شىء يخبش الأرض . وتوقف الصوت ثم بدا فى مكان آخر .. وفجأة ذهبت الحيرة من وجه هيرمانتييه وجلس فى مقعده وصاح :

ـ زيتا .. أهذه أنت يا زيتا ؟ « تعالى » تعالى هنا يا قطتى الجميلة .

فجاوبته بمواء . وأردف هيرمانتييه قائلا :

ـ تعالى يا زيتا .. لا تدعى هذه النظارة تصدك عن المجىء . وخلع نظارته . لم يكن يخشى أن يطلع القطة على وجهه المصاب. وفى قفزة واحدة كانت القطة فى حجره . تقوس ظهرها وأخذت

www.ibtesama.com/vb

تخبشه بمخالبها .. ثم تقلبت على ظهرها وتركته يداعبها .

ـ انك تعرفيننى جيدا يا ريتا . أليس كذلك . حتى لو كانت معالمى قد تغيرت بعض الشىء . أيسرك منظرى يا ريتا .. كبومة عجوز ؟!

كان يعلم شكلها بالضبط . بيضاء قد انتشرت فيها بقع سوداء . كانت كريستيان تضيق بمرآها . لكن هذا لم يمنع القطة من القفز فى حجريهما كلما جاءا الى الفيللا ، وان كانت فى الحق تنتمى الى حانوت القرية الصغير الواقع على مسيرة كيلومتر . وكانت ريتا مخلوقا صغيرا لكنها كانت عنيدة عناد الشيطان ملحة فى طلب العناية بها ومداعبتها .. وكانت متعلقة بهيرمانتييه على وجه أخص ، تتبعه فى كل مكان ، حتى لو ذهب الى الشاطىء .. وكان يود أخذها معه الى ليون لو لم تعارض كريستيان . لأنها كانت تكره الحيوانات .

ـ ولكن ماذا حدث لك يا ريتا ؟ انك مجرد جلد على عظم ؟!

وقال ذلك وهو يتحسسها وأصابعه تمر على ظهرها البارز الفقرات . وفجأة ارتعد وكاد يقذف بالقطة الى الارض ، ثم صاح

ـ مارسيلين !

وشدد قبضتيه على مسندى معقده . وكان الاشمئزاز واضحا فى ملامح وجهه .

ـ نعم يا سيدى .

ـ مارسيلين .. هذه القطة .. ما شكلها ؟

ـ انها كأى قطة أخرى يا سيدى ..

ـ نعم .. ولكن ما لونها ؟

ـ انها رمادية .

ـ هل أنت متأكدة ؟

وبدا له انها تبتسم ، لكنه لم يعبأ .. ومضى يقول :

ـ هل هى كلها رمادية ؟

ـ نعم يا سيدى ؟

www.ibtesama.com/vb

ـ ليس ثمة بقع فيها ؟
ـ لا يا سيدى .. انها مجرد قطة صغيرة رمادية .
ـ وذيلها مقطوع .. أليس كذلك ؟
ـ نعم يا سيدى .

ـ اذن خذيها بعيدا ..
ـ ألا يحب سيدى ...؟
ـ خذيها بعيدا .. بسرعة ..

لم يستطع أن يمنع نفسه من الصياح . أما القطة المذعورة فقفزت من حجره . وسمع مارسيلين تبعدها وهى تصفق بيديها . ثم تركته مهتز الأعصاب .. حقا .. تستطيع الآن أية قطة أن تقفز فى حجره دون أن يعرف الفرق بينها وبين ريتا !

وقام هيرمانتييه وعاوده الاحساس من جديد بأن ثمة حائطا فى مواجهته . وكان احساسه قويا فتراجع ورقد فى كرسيه من جديد .

وسمع صوت مارسيلين تقول :
ـ لقد طردتها يا سيدى . لابد أنها أفزعتك عندما قفزت فى حجرك .. وأنت لا تتوقعها .
ـ ابقيها بعيدا .. اننى لا أريدها البتة أن تقترب منى مرة أخرى ..

وأعاد نظارته ببطء الى وجهه . وكانت أصابعه لم تزل ترتعد بعض الشىء . وتناهى اليه من الطابق العلوى صوت عزف على الساكسوفون . وبدأت روح جديدة تسرى فى البيت . عاد كل شىء الى حالته الطبيعية . واستطاع من جديد أن يسمع صوت القطرات تتناثر على الممر . ياله من حادث سخيف . انه على أية حال يمكن أن يثير أى انسان . يظل المرء يربت على قطة ، وهو موقن من أنه يداعب صديقا قديما ، وفجأة يتبين خداع الموقف . يدرك أن القطة كانت تقليدا ، وهما ، وزيفا ! وأنها مجرد قطة ـ أية قطة ـ من القطط الضالة .. وظل هيرمانتييه وقتا طويلا

www.ibtesama.com/vb

يعبث بيديه فى مسندى مقعده . هذا شىء ثابت أصيل على الأقل لا يمكن أن يخذله ..

وسمع وقع خطوات كريستيان تعبر الردهة . وتذهب الى المطبخ ، ثم تتحرك ناحيته . وتقترب أخيرا من الشرفة .

ـ صباح الخير يا ريشار . أليست مارسيلين هنا ؟

ـ كانت هنا منذ لحظات .

ـ اننى مستاءة منها . فقد شاهدتها من نافذتى وهى تطارد ريتا !

ـ ريتا ؟

ـ نعم ..

ـ هل تقصدين أنك شاهدت ريتا ؟

ـ ولم لا ؟ لقد كنت فى الواقع أحسبها معك . ومسألة اننى لا أحبها لا شأن لها فى الموضوع ، فانا لن اسمح باساءة معاملتها. ان مارسيلين بالطبع لا تزال حديثة العهد بالخدمة هنا . انها لا تعرف ..

ـ هل أنت متأكدة من أنها كانت ريتا ؟ !

ـ حقا يا ريشار !

وجاءت مارسيلين تهرول ..

ـ هل كانت السيدة تنادينى ؟

ـ آه .. ها أنت حضرت ..

لكن هيرمانتييه قاطع زوجته :

ـ انتظرى لحظة يا كريستيان . اسمعى يا مارسيلين . هل لك أن تخبرى السيدة بلون القطة .. القطة التى كانت هنا منذ قليل ..

ـ لقد كانت رمادية اللون .

فتعجبت كريستيان : رمادية ؟!

وقال هيرمانتييه :

ـ أليست هى نفس القطة التى كنت تطاردينها فى الحديقة ؟

www.ibtesama.com/vb

ـ نعم يا سيدى .

فصاحت كريستيان : لا تكونى حمقاء .. لقد كانت ريتا .

فقال هيرمانتييه وهو يتنهد بحزن : لا .. لم تكن ريتا . اننى أعلم أنها ليست ريتا . والآن . انصرفى يا مارسيلين ودعينا وحدنا من فضلك .

فانصرفت الخادمة . ومرت برهة بينهما فى صمت . وكان الساكسوفون لا يزال يعزف . ثم كف بدوره . واخيرا قالت كريستيان :

ـ اننى أحاول أن أفعل الشىء الصواب ... لو كنت أدركت .

فقاطعها قائلا :

ـ اننى لا ألومك .

ـ لقد ماتت ريتا تحت عجلات سيارة قبل حضورنا . ولم أكن أود أن تعرف ذلك . وعندما رأيت هذه القطة ، كنت آمل ...

ـ اننى مدرك كل شىء يا كريستيان . لقد كذبت لتهونى على ..

ـ كذبت ؟! ان هذه كلمة عنيفة .

ـ حسنا .. فلنقل اذا انك شوهت الحقيقة بعض الشىء من أجلى . كما يفعل المرء عندما يتعامل مع مرضى فى حالة خطرة .. اننى أقدر لك موقفك . لكننى لست مريضا فى حالة خطرة . ولا أحتاج الى أن يعاملنى أحد على هذا النحو

كان يستطيع أن يشم شذا العطر الذى تستخدمه . كما كان يستطيع أن يسمع أنفاسها تتردد بسرعة ، ثم صوت طقطقة المقعد وهى تجلس عليه

ـ انك تعلم يا ريشار اننى لا أود أبدا أن أثير قلقك . ولذلك يجب الا تحزن مما سأقوله لك الآن .

فأنصت لحديثها مهتما .. لم يكن ما عاناه حتى عند انفجار القنبلة أكثر مما يعانيه الآن ..

ـ لقد أثرت قلقنا الى حد كبير .. فى البداية .. بعد الحادث مباشرة .. كان المظنون لبضعة أيام ...

كان يبدو أنها لا تعرف كيف تبدأ . ثم قالت :

ـ لقد تحدث الطبيب فى ذلك الوقت عن خلط عقلى . لكن هذه

www.ibtesama.com/vb

المرحلة مرت لحسن الحظ .. واذا سار كل شيء على ما يرام ..
كما نتوقع .. ف ...

وعاد كلامها يتقطع من جديد. لكنها قطعته هذه المرة بضحكة، أو بمحاولة متعثرة لاطلاق ضحكة :

ـ لقد أخبرنا الطبيب أنه يجب ألا نعارضك . أن نضع كل شيء من حولك بنفس الطريقة التى تتوقع أن تجده عليها .. بالضبط كما كان الحال من قبل .. وهذا هو السبب فى أننى عندما رأيت القطة ...

ـ هذا يكفى ..

ـ هل أنت غاضب منى ؟..

ـ يا عزيزتى ..

ومد يده ليأخذ بيدها . لعله ظلمها على أية حال . لقد أدرك الآن أن مخاوف لوثييه لم تكن كلها شيئا لا أساس له . فمنذ لحظات فقط ، عندما اكتشف أن القطة التى فى حجره لم تكن ريتا ، كان رد فعله مبالغا فيه . لم يكن ثمة فرق كبير على أية حال بين قطة وأخرى .. فلماذا شعر بهذه الصدمة ؟ ثم لماذا ذعر على أية حال ؟ لماذا دهمه هذا الاحساس الغامض بأن تلك القطة الغريبة تهدده على نحو ما ؟ لقد داخله هذا الاحساس بالفعل . انه يستطيع أن يتحقق منه الآن بوضوح . وهذا معناه أن له شخصيتين . احداهما غير متوازنة ، عرضة للتأثر بمخاوف مفاجئة لا أساس لها ، لا يستطيع المرء ان يقدر تصرفاتها ويزن أفعالها . هناك مثلا خوفه من الجدار . أليس ذلك مثلا آخر على شخصيته الغريبة تلك !

وجلس هيرمانتييه متوترا . واجتاح صدره موجة من الازدراء لنفسه .

ـ من المؤسف أنك لم تخبرى مارسيلين بما كان يجب أن تقول : كانت تستطيع أن تذكر لى أن القطة بيضاء بلطع سوداء . وكان من الممكن أن تسوق لى أى تفسير لذيلها المقطوع ، فأقبله .

كان لا يزال يمسك بيد كريستيان . ويقلب الأمر فى ذهنه . أن من الممكن ان يظل يربت ولو على ظهر وحش ما دام يعتقد أنه ريتا . لم يعد ثمة فرق بين الصحيح والزائف ، بين ما هو حقيقى

www.ibtesama.com/vb

وما هو خيال . خاطر مفزع مخيف .

وضغط على يد كريستيان .

ـ أريدك أن تعديني بأنك لن تكذبي على مرة أخرى ـ حتى ولو كان قصدك من ذلك مسرتي . انني أحتاج الى عينيك ، والى عيني ماكسيم ، والى كل عينين . واذا لم أكن واثقا منك كان معنى هذا نهاية كل شيء . اذا كانت الحقيقة غير سارة فلا بأس .. يجب أن أواجهها . يجب أن أفعل ذلك بأي ثمن . لأنه في خلال شهر أو شهرين على الأكثر ، يجب أن أعود الى عملي .

وخلصت كريستيان يدها برفق من يده ، ثم وقفت

ـ انني ذاهبة الى لاروشيل .. هل أستطيع أن أحضر لك معي شيئا ؟

لا .. لم يكن ثمة ما يريد . انه لا يريد الآن أي خطاطيف لصيد السمك . لم يعد في حاجة اليها . لم يعد أيضا في حاجة الى بذور ينثرها في الحديقة . لكنه تذكر شيئا .

ـ تستطيعين أن تأتي لي بآلة كهربائية للحلاقة ..

يستطيع أن يلهو بها على أية حال ، ستكون لعبة تدخل السرور على قلبه يوما أو يومين .

ـ من الأفضل أيضا أن تحضري بعض المشروبات وفواتح الشهية . ان هيوبير يفضل صنف البينو .. ويجب أن نحسن ضيافته عندما يحضر .. حتى لو كنا هكذا في أقاصي الريف .

وبدأ الساكسوفون يعزف من جديد . وتداخلت أصواته بين غليظ وحاد . فلم يتمكن هيرمانتييه من أن يسمع السيارة البويك وهي تحمل زوجته الى لاروشيل . هذا أمر لم يعد يهمه على أية حال في قليل أو كثير .

ـ لو سمح السيد بالانتقال من مكانه فانني مضطرة الى كنس الشرفة

كان صوت مارسيلين .. فتحامل على قدميه .

ـ أشكرك يا مارسيلين .. فيما يتعلق بهذه القطة .

كان من العسير أن يتصور شكل الفتاة . سمراء ظريفة صغيرة

www.ibtesama.com/vb

كما قيل له . ولم يكن يملك بالطبع أن يتحسسها بيديه ليعرف شكلها .

ـ ثمة أمر آخر يا مارسيلين .. انظرى الى جيدا . واخبرينى بصراحة .. هل تغيرت كثيرا منذ أن رأيتنى أول مرة .. هل أنا مثلا نحيف الى درجة كبيرة ؟

ـ أبدا يا سيدى .. انك كما كنت تماما ..

ـ كما كنت تماما ؟!

ـ بالضبط يا سيدى .

ـ حسنا ..

قالها هيرمانتييه كأنما قد سئم كل هذا أخيرا .. حتى مارسيلين تعلمت أن تدارى عنه الحقائق .. حتى .. حتى يمكن أن يطمئن أو يثق فى شىء ؟

ـ ٤ ـ

كانوا قد تناولوا العشاء فى الشرفة . وكان الهواء رطبا يتحول الى ريح بين الفينة والفينة من جهة البحر ..

فقال ماكسيم :

ـ أعتقد أنه قد حان الوقت لتدخلوا .. فان الطقس يوشك أن يسوء .

وتحولت كريستيان الى هيوبير قائلة :

ـ أظن أن التعب قد نال منك بعد هذه الرحلة

فقال هيوبير :

ـ نال منى كثيرا .. ان القطارات شىء فظيع .. ولا سيما من ليون الى لاروشيل .

كان من الممكن أن يأتى بالسيارة . لكنه ليس سائقا ماهرا . وكان أحرص من أن يفكر فى استخدام سائق .

وقال ماكسيم :

ـ طاب مساؤكم .. اننى سأهبط الى الشاطىء لأدخن سيجارة هناك .. ثم آوى الى الفراش .

ولم يلحظ هيرمانتييه ذهابه . فقد ظل بضع لحظات يحاول أن يتحقق من رائحة داعبت أنفه . لم تكن رائحة الزهور ، ولا رائحة

www.ibtesama.com/vb

التربة أو العشب . كان يبدو أنها تأتى من بعيد ، من حديقة مجاورة أو من الأرض التى تلى ذلك . لكنه كان موقنا من شىء واحد .
انها رائحة غير متوقعة . ليس هذا مكانها .. جاهد ليعرف . انه يكاد يجن لأنه لا يستطيع أن يستدل على مكانها .

ـ قولى لمارسيلين أن تحضر القهوة .

قالها باقتضاب ومرت لحظة صمت ثم دق الجرس بشدة وعنف ، حتى أن مارسيلين جاءت على عجل . وقالت كريستيان :

ـ أحضرى القهوة .

لابد أنها مستاءة لأنه أصدر اليها أمرا .. لأنها لا تحب أن تتلقى الأوامر من أحد . لأنه عاد الى الحديث بغلظة ، فى لهجته الآمرة القديمة . لكنه بالطبع لم يكن يفكر قط فى جرح مشاعرها . الا أن الأمر كان قد حدث على أية حال. لقد ظلا كذلك يحتكان أحدهما بالآخر لوقت طويل ، حتى أضحت كل هذه المواقف بينهما تتولد من تلقاء نفسها. كان فيما مضى يستطيع اذا غضب أن يهز كتفيه مستخفا ويمضى . لكنه الآن لا يستطيع . لذلك كان لكل كلمة حسابها . ولكل فترة صمت أيضا . كأن حياتهما قد بدأت الآن مرحلة الانتقام .. فى مرارة واستياء .

وفتح هيوبير علبة صغيرة أخرج منها بعض حبات «الروبسوس» .. وتنسم هيرمانتييه رائحة الحبات التى كان يكرهها والتى كان ينتفض دائما عندما يسمع هيوبير يهز علبتها فى يده . لم يكن من مظاهر الرجولة بالنسبة لهيرمانتييه أن يحمل المرء مثل هذه العلبة . لكنه تساءل فى ذهنه : أحقا يعتبر هيوبير رجلا ؟

وسمع قصف الرعد .. وكان لا يزال بعيدا فى الأفق . وتساءل : هل لا يزال ضوء النهار بازغا ؟

ومرت فترة صمت . هل هؤلاء الاثنان ـ كريستيان وهيوبير ـ مضطران الى تبادل النظرات للاجابة عن سؤال بسيط كهذا .

ـ لم تهبط الظلمة بعد .. وهناك سحب سوداء من فوقنا .. لكننى لا أظن أن العاصفة ستأتى من هذا الطريق .

كانت هذه كلمات هيوبير . واشتدت الريح . ثم تحرك هيوبير فجأة ووطأ بقدمه شيئا طقطق تحت قدميه ، وصاح :

www.ibtesama.com/vb

ـ هذه الحشرات القذرة .

فقال هيرمانتييه :

ـ انها نوع من الخنافس .. لابد أنها كانت كبيرة .

فتساءلت كريستيان :

ـ وكيف عرفت ؟

فقال هيرمانتييه :

ـ من صوتها

وعندئذ غمغم هيوبير :

ـ هذا غريب . اننى أكاد أقسم أحيانا أنك ترى بعينيك !

كان هيوبير يقول ذلك بلهجة ودية . لكن بدا لهيرمانتييه أن ثمة خاطرا آخر وراء هذه الكلمات .. خاطر لا يستطيع أن يدركه . الأرجح أن يكون مخطئا ، كما كان مخطئا منذ قليل فى تنسم رائحة لم تكن موجودة على الاطلاق .. وبدأ هيرمانتييه يتضايق . وكان الهواء من حوله رطبا لزجا مفعما بخفقات غامضة . ثم انهم كانوا قد فرغوا من العشاء . وكان يجب على هيوبير أن يتحدث فى أعمالهما . لم يعد ثمة أى مبرر لتأجيل الحديث . ولا بد أنهم يرون تشوفه الى سماع الخطط الجديدة الخاصة بمصباحه . لكن أعماقه أسرت اليه على الفور : هذه هى المشكلة . انهم لا يحبون مصباحى ولا يهتمون بأمره . وعندئذ قال هيوبير :

ـ اننى لا أريد التدخل فيما ليس من شأنى . لكننى لا أحب هذه النظرة التى تلوح فى وجه ماكسيم . انه يبدو وكأنه يعيش على أعصابه . لم يكد يأكل شيئا فى العشاء .

فقال هيرمانتييه :

ـ هناك أيضا شخص آخر يفقد وزنه بدوره .. وماكسيم وأنا أخوان . وربما يعتقد من يستمع اليك أننا نعيش برجل خارج القبر ، ورجل داخله !

ونحى هيوبير فنجانه بعيدا ، ربما بشىء من العصبية ، ثم قال بعد لحظة صمت :

ـ اننى آسف .. لكنك تعلم مقدار حبى لماكسيم . لو حدث شىء لكان ذلك مأساة .

www.ibtesama.com/vb

ـ لو حدث ماذا ؟

ـ لست أدرى . ولكن الكل فى ليون يعرفون أنباء مغامراته .. منذ شهر واحد كان يسلى نفسه مع ...

ـ وماذا فى هذا ؟ أى علاقة بين هذا وبين صحته ؟

ـ ربما لا توجد صلة بين الاثنين . اننى آمل أن يكون الأمر كذلك . لكن تبقى الحقيقة وهى أن ماكسيم يبدو شاحبا كالأموات .. ألا تعتقدين ذلك يا كريستيان ؟

فصدقت كريستيان على حديثه ، لكن أفكارها كانت تبدو بعيدا .

ترى ماهى هذه الأفكار ؟ تخيلها هيرمانتييه بجانب وجهها . لم يكن يتصورها أبدا الا بوجه جانبى . لكنها بوجهها كله كانت أيضا جميلة . كتمثال « جونو » ، وكانت أيضا باردة مثله . أنف وذقن عظيمان ، لكن جبهتها لم تكن شامخة . ان الرجل يعجب بالمرأة ، ويتزوجها مفاخرا ، ثم يكتشف أنها مخلوق صغير ، بخيل ، جبان ! تفتقر حتى الى العاطفة والحس . نعم . هذا ما فرق بينهما . مسألة الحب الزوجى .

وأخرج هيرمانتييه منديله ومسح به جبهته ويديه . واستمر هيوبير يقول :

ـ ان المرء لا يستطيع أن يمنع الناس من الحديث . ولا يملك أن يمنع نفسه من سماع الحديث . وأنت يا هيرمانتييه لا تستطيع أن تسكت ولا تبالى ، وأنت فى مثل هذا المركز

ـ اننى لا أبالى بالفعل . لا أبالى مطلقا بما يقوله الناس ولا أقيم له وزنا . أتعرف ما يتحدثون به عنى ؟ انهم يقولون اننى مجرد فلاح جلف أتيح له شىء من حظ . واننى لو لم أتزوج أرملة رئيسى لكنت بقيت فى مكانى أضنى نفسى على منضدة الرسوم الهندسية . وربما يزيدون على ذلك شيئا آخر ليكون لكلامهم وزن ، وهو اننى سأخسر فى النهاية كل شىء لفرط حرصى وتلهفى على أن أصبح انسانا مرموقا . ثم هناك عمال . هل تحب أن تعرف ما يقولونه بينهم وبين انفسهم . انهم يقولون اننى وغد متسلق . ثم هل تريد أن تعرف أيضا مدى اهتمامى بهذا كله .. اننى لا ...

www.ibtesama.com/vb

وهنا سمع صوت كريستيان تقاطعه محتجة على انسياقه هكذا :

ـ ريشار !

ـ حسنا .. لن أدع نفسى نهبا للاثارة .. كلّ ما أريد قوله هو أن ماكسيم محق فى أن يحيا حياته كما يشاء . ويستطيع أيضا من الآن فصاعدا أن ينال أيضا نصيبى من مسرات الحياة !

ـ ماذا دهاك الليلة يا ريشار ؟

كانت كريستيان تبدو مدهوشة . لكنه لم يجبها . لو اشتبكا فى جدل لربما أفضت لهذا الأحمق هيوبير بحادثته مع القطة .

ـ أظن أنه الجو .. انه متعب بعض الشىء .. أليس كذلك ؟

كان هذا هو هيوبير ، لكنه رد عليه من فوره :

ـ اننى لست متعبا على الاطلاق .

ـ أستطيع أن أؤجل مناقشة التقرير حتى الصباح اذا شئت ؟ .

ـ أبدا . اننى أفضل أن نبدأ بحثه على الفور . هل أحضرت الأوراق .

ـ انها فى الدور العلوى . سأذهب لاحضارها .

وقام هيوبير ومضى .. كان وقع خطواته خفيفا .. كان كل ما يفعله هذا الرجل يبدو محسوبا بحساب .

وقالت كريستيان :

ـ انه يبدو غاضبا . هل تتعمد مضايقة الآخرين يا ريشار ؟

لكنه راوغها وفاجأها بسؤال ليحول دفة الحديث

ـ ماذا يرتدى ؟

ـ ماذا ...؟

ـ نعم .. ماذا يرتدى ؟

ـ بذلته السوداء !

ـ اننى أستطيع أن أتخيله الآن . ولكن ماذا عنك أنت . ماذا ترتدين ؟

فتغير صوتها عندئذ شيئا طفيفا وقالت :

ـ ثوبا أبيض . وشرعت تصفه له وتجيب على أسئلته بشأن الثوب ثم غمغم أخيرا :

www.ibtesama.com/vb

ـ نعم اننى أتخيله .

ـ أجل .. كانت الأشياء المادية هى التى حالت بينهما منذ البداية . لقد صدته اكثر من مرة . وكانت هناك أشياء تعتقد أنها تنافى الأخلاق . كانت ضيقة الأفق . بل انه يجسر على القول بأن عاطفتها وشهوتها ميتة . لكن كيف يمكنه أن يوضح لها شيئا كهذا ؟...

ودفع هيرمانتييه بمنديله خلف نظارته . فقد كان العرق يجعل ندوبه تخزه وتؤلمه .

وقالت كريستيان بهدوء :

ـ ان هيوبير محق تماما . ان ماكسيم لطيف كما نعرف جميعا . لكنه يتجاوز حدوده .. لقد لاحظته عندما تكون مارسيلين فى حضرتنا . ولن ادهش اذا ...

ـ اذا ...

ـ انه يستطيع أن يتصرف أحسن من ذلك .. تحت سقفنا ...

ـ لكن ، ما هو هذا الذى يفعله بالضبط تحت سقفنا كما تقولين .. هل هو يضع يده عليها .. هل ...

ـ كفى يا ريشار ! ان هذا الأمر يسرك على ما يبدو !

ـ لم اكن أنا الذى أقصيت بلانش العجوز . لقد كنت تشعرين بالأمن معها « تحت سقفنا » .

ـ أعلم ذلك . وأعترف بأننى قد ارتكبت خطأ . فلنقفل الموضوع عند هذا الحد . ولنعد الى مارسيلين . اننى أجد أن هذا المسلك يستوجب اللوم والتعنيف لا سيما أنها مرتبطة بكليمان .

ـ حسنا . سأحادث ماكسيم فى ذلك .

ـ لا تقل اننى أخبرتك .. كيف أبدو أمامه اذا علم أننى أخبرتك ؟!

ـ كيف تبدين حقا ! هل اطلعت هيوبير على هذا الأمر ؟

ـ لقد المعت الى الموضوع أمامه ، حتى يكون حذرا فى أقواله

ـ انك تثقين كثيرا فى هيوبير .. اليس كذلك ؟

ـ لقد كان دائما سندا لنا كبيرا .

www.ibtesama.com/vb

ـ وهل سيبقى طويلا ... لا .. لا تخطئى فهمى . لا أنوى أبدا أن أظهر امامه بمظهر ينفره . انه يستطيع أن يبقى فى رأيى أطول وقت يشاء . لكننى أتساءل عمن ترك فى ادارة المصنع ؟

ـ ثورسيل ..

ـ ثورسيل ؟ . ولماذا ثورسيل ؟ . كان يجب على هيوبير أن يستشيرنى مقدما فى ذلك .

ـ أوه .. ان ثورسيل لا بأس به .

ـ يا عزيزتى كريستيان . يجب أن تدركى اننى الشخص الذى يعرف بالضبط من يحسن أن يتولى مهام المصنع . ثم أن هناك شيئا آخر . لقد كنت تشعرين من قبل أنه لا يشرفك أن تعرفى أسماء الموظفين عندى . لكنك الآن تغيرت .

وكانت كريستيان عندئذ على وشك أن تجيب ، لكن شيئا صدها . وانتظر اجابتها . لم يكن يعلم انه فى جلسته تلك يشبه تماما هيرمانتييه القديم ـ قبل اصابته . وكانت كريستيان تحدق مأخوذة فى نظارته التى كان يبدو أنه ينظر اليها من خلفها دارسا متفحصا .

ـ ها هو ذا هيوبير قد أتى .

قالت كريستيان ذلك فى صوت مرتجف بعض الشىء ، ثم أضافت مسرعة ، وبدا الارتياح فى صوتها :

سأترككما الآن معا . طاب مساؤكما . يجب الا تؤخره يا هيوبير عن الايواء الى الفراش . فالمفروض أن يكون فى سريره فى وقت مبكر .

وهبت نسمة فخشخشت أوراق الشجر . ورفع هيرمانتييه رأسه وتنسم الهواء من حوله بحذر ، مستبقا اياه فى أنفه بعض الوقت .. ليتأكد ...

وسمع هيوبير يقول :

ـ لقد عملنا جميعا معا كرأس واحد .. لكن ليس من اليسير فى الواقع أن نعثر على شعار مناسب .. هل ثمة شىء يضايقك ؟

ـ لا .. أبدا .. استمر .

لكن كان هناك شىء ما . هذه الرائحة عادت من جديد . مخلوطة

www.ibtesama.com/vb

برائحة الزهور والورود والعشب المندى . لم يجسر هيرمانتييه أن يطلق عليهما اسما . كانت هناك مفعمة بالدهاء والخطر . وكان الشك مؤلما لهيرمانتييه . وكان صوت هيوبير يأتى اليه بمشقة ـ كأنما يأتى من بعيد .

ـ ومع ذلك فقد توصلت الى شعار ـ وأظن أنه شعار جيد . بادل بشمعتك الشمس !

ـ ماذا ؟!

ـ بادل بشمعتك الشمس ! . انه شعار مثل أى شعار آخر .

ـ لن ينفع .. لن يجذب النـاس .. ما علاقة الشـمع بما لدينا ؟ . ان منافسينا يصنعون المصابيح الكهربائية لا الشموع . لا .. انه لن ينفع .

ـ من الأفضل اذن أن نستدعى واحدا من خبراء الاعلان . ان مهمة هؤلاء أن يضعوا شعارات تجذب الناس .

ـ ان من مبادئى ألا أعهد الى الآخرين بأى عمل أستطيع أن أقوم به بنفسى . هذا المصباح .. لقد صنعته تقريبا بيدى هاتين

ومد هيرمانتييه يديه الى الامام .. وكانت صفحتاهما الى أعلى .. ثم قال مؤكدا :

ـ نعم بيدى هاتين .. وكل ما يتطلبه المصباح الآن أشعر أن فى مقدورى أن أوفره بنفسى . ان الشعار من مهامنا . أو من مهامى أنا على وجه أدق . سأفكر فى شىء .. فلدى وقت كثير لذلك ، كما أخالك تعرف . والواقع أنه كان فى مقدورى أن أفكر بالفعل فى شعار لو لم ..

مرة أخرى ، بالرغم منه ، اشتم شيئا فى النسيم المفعم برائحة الازهار والحديقة . فقطع حديثه وتساءل فى شبه خجل :

ـ ألا تشم شيئا ياهيوبير ؟.

ـ أشم ماذا ؟ .

بالطبع . لقد نسى . انهيوبير ليس من الصنف الذى يستطيع أن يشم شيئا . تنهد وأخرج سيجارة واستطرد يقول :

www.ibtesama.com/vb

ـ لا شيء .. استمر .. هل بعث ثورميران بتقريراته ؟
ـ لم يبعث بها بعد .

ـ يحسن بك أن تحثه .. فهو بطيء بالغ البطء . وسيعطلنا ان لم تتنبه .. هل أحضرت الأوراق لأوقعها ؟ .
ـ نعم .. ها هى ذى ..
فجذب مقعده وأخرج قلمه ، بينما قال هيوبير :
ـ أستطيع أن أضيء نور الشرفة .

فهز هيرمانتييه كتفيه ووقع الاوراق . لم يحجم هنا ولم يتردد .. ربما لأنه لم يكن يخشى أن يبدو بمظهر مزر فى عينى هيوبير .. لم يكن يعبأ البتة برأيه .
ـ أليس هناك أنباء ؟ .

ـ أبدا .. ليون قد سكنت حركتها وغادرها الجميع على ما يبدو . واذا أردت رأيى الشخصى فانى أشك كثيرا فى أن نحصل من ثورميران على التقريرات قبل ثلاثة أسابيع أخرى . كذلك لن يمكننا الحصول على تقارير وكلائنا فى الخارج قبل هذه الفترة .

ـ وفى المصنع .. من جعلته متوليا زمام الأمور ؟ .
ـ ثورسيل ..

ـ اننى أشك فى حكمة هذا التعيين . اننى بالطبع لا أحمل فى نفسى أية مسألة ضده ـ فيما عدا أنه غير طموح ـ أعتقد أنه كان يصلح للخدمة فى الحكومة اكثر منه للعمل فى شركة تبغى التقدم والتفوق كشركتنا .

ـ لست أشاركك هذا الرأى .
ـ أعلم أنك لا تؤيدنى فيه .. والحق أنك قليلا ما تشاركنى الرأى ..

واستند هيرمانتييه بمرفقيه على المنضدة وأراح ذقنه فى كفه .. وكان ذهنه يتساءل : ترى هل يكون هيوبير مستعدا لخوض معركة معه ؟ .

www.ibtesama.com/vb

وقال هيوبير شاكيا :

ـ انك لا تجعل الأمور هينة لى .. اننى لا اكاد اقترح شيئا حتى أجدك تريد نقيضه .. معذرة .. هل قلت شيئا ؟.

ـ لا .. لم أقل شيئا .

كان يبدو أن هيوبير قد أطلق طلقته ، ومضى يقول :

ـ اننى أعترف بأن ثورسيل يفتقر الى الكثير من المباداة .. لكن هل عندنا فعلا من تتوفر فيه هذه الميـزة ؟ . هل يمكن أن تذكر لى اسما واحدا ؟ . الواقع أنهم لم تتح لهم فرصة ليتمرسوا بذلك .. كلما أظهر أحد منهم بعض المجهود الفردى ، أقدمت أنت على النيل منه . وكل من حاول أن يقف أمامك أرغمته على الرحيل .. والواقع اننا نصل فى النهاية الى نتيجة .. وهى انك تخشى أن تحيط نفسك بأناس اكفاء طموحين . لقد لاقيت عنتا كثيرا فى اقناع ثورسيل بأن يتولى زمام الأمور . ووعدته بأنك لن تصب عليه جام غضبك بسبب القرارات التى قد يضطر الى اتخاذها .

وكان هيوبير وهو يتكلم يتأمل هيرمانتييه والعجب يملؤه ، ذلك أنه لم يسبق له أن ذهب الى هذا المـدى فى حديث معه . لكن هيرمانتييه لم تكن تبدو عليـه أية بادرة . بل كان يجلس فى مكانه ساكنا تماما ، كأنه ينصت الى صوت يأتيه من مكان آخر .

واستطرد هيوبير قائلا :

ـ وقد قبل ثورسيل المهمة فى النهاية ، وان كان لم يصـدقنى تماما . والواقع أن المشكلة هى أننى أنا نفسى أفتقر الى السـلطة التى كان يجب أن تكون لى . فأنت غالبا ما تعارض أوامرى بأوامر أخرى .

وأخرج علبته الصغيرة ، علبة « الروبسوس » . ودبت الحياة من جديد فى هيرمانتييه وصاح :

ـ ضع هذه الحبوب القذرة بعيدا .. اننى لا أطيق رائحتها . والآن ماذا تحاول أن تقول ؟ ! ..

ـ أريد أن أقول انه حان الوقت الذى يجب أن تسمح لى فيه

www.ibtesama.com/vb

بتولى المسئوليات التى هى من حقى ، والتى أستطيع أن أطالب بها فى أية محكمة .. ارى أن هذا الأمر يثير طربك ! أليس كذلك ؟

ـ أبدا .. اننى لا أضحك .. وان كان يجب أن أقول ان لك طريقة مضحكة فى .. ولكن لابأس .. دعنا من هذا .. ماذا تريد بالضبط .. تريد مسئولية ؟. حسنا .. ماذا تريد أن تفعل بها؟!

ـ انك تثير غيظ من يتحدث اليك .. انك تمضى فى حديثك بطريقة تجعل من يستمع اليك يعتقد أننى أحد مرءوسيك.. اننى لست من مرءوسيك .. وعندما اشتركت فى العمل برأس المال .

لكن هيرمانتييه ضرب المائدة عندئذ بقبضة يده وقفز بسرعة ، حتى أن طرف المائدة الآخر أصاب هيوبير فى صدره ، فصاح مغضبا بصوت مرتعش ، وهو يقف أيضا :

ـ انك قد جاوزت حدك يا هيرمانتييه ..

ـ اسكت قليلا ..

وأخذ هيرمانتييه يتنسم الهواء .. وبدت ملامحه فى شكل غريب .. ثم غمغم :

ـ ألا تستطيع أن تشمها .. أشجار الصنوبر .. اننى متأكد من ذلك الآن.. هذه رائحة أشجار الصنوبر ولا شىء آخر .. ألا تستطيع أن تشمها ؟ ! .

فتنسم هيوبير الهواء بدوره ، وهو يرمى هيرمانتييه بنظرات الشك . وما لبث أن قال :

ـ نعم انى أشمها .. انها رائحة أشجار الصنوبر بالفعل .

فمال هيرمانتييه على المائدة ، التى تصاعد صريرها تحت ثقله .. وصاح :

ـ لا .. انك تحاول فقط أن تسايرنى . وضغط على كلماته فى يأس وهو يقول :

ـ انها ليست رائحة أشجار الصنوبر .. لا يمكن أن تكون

www.ibtesama.com/vb

كذلك لسبب بسيط .. وهو أنه لا توجد أشجار صنوبر الى مسافة مائة كيلو متر .. وأنت تعلم ذلك ..

وجلس فى تثاقل .. ومر بيده على جبهته وخلع نظارته وتحسس الندوب التى تحيط بمقلتيه ، بينما قال هيوبير محتجا:

ـ اننى أؤكد لك أنها تشبه رائحة أشجار الصنوبر بالضبط . اننى لم أتبينها فى بادىء الامر . ولكننى أتبينها الآن .

ـ شكرا يا هيوبير .. أعلم أنك تحاول أن تكون لطيفا .. لكن لا فائدة من التظاهر بأننى على حق .. اننى لست على حق .. لا يمكن .. اننى أشم رائحة أشجار الصنوبر . لكن لا توجد هذه الأشجار من حولنا . أننى مخطىء ، وليس ثمة شىء آخر سوى أننى مخطىء .. وأنت لا تستطيع أن تفعل شيئا يمنع خطئى .. لا أحد يستطيع .. صب لى قدحا من القهوة اذا سمحت .

وقصف الرعد .. وبدا أنه قريب من امتداد صداه ..

وقال هيوبير :

ـ ان السبب هو هذا الطقس الراعد .. انه مفعم بالحيل الغريبة .. هلا دخلنا ؟ .

ـ حالا ..

كان هيرمانتييه يبدو متعبا كمن استنفد قواه .. فحرك قهوته وبقى ساكنا .. ثم مر بيده على وجهه كأنه يبعد ذبابا خفيا .. وقال :

ـ اننى أود أن أسألك شيئا يا هيوبير .. أعنى سؤال رجل لرجل .. هل تغيرت كثيرا ؟ . هل أبدو كرجل مريض ؟ . انك لا ترانى بانتظام كل يوم .. ولهذا تستطيع أن تحكم ..

ـ كل ما هناك أنك تبدو عصبيا بعض الشىء ! .

ـ .. وأنحف من ذى قبل ؟ .

ـ نعم ..

ـ أشكرك .. اننى أرى أنك لا تخشى مصارحتى .. استمر .

www.ibtesama.com/vb

كن صريحا . انك لم تشم شيئا من رائحة الصنوبر منذ لحظات .. أليس كذلك ؟ .

ـ لا ..

ـ هذا ما أريد.. هذه هى الطريقة التى أريد بها أن يحادثنى الناس ..

ـ لكنك تخطىء فى تعليق كل هذه الأهمية على تفاصيل ...

ـ لا بأس .. انها مجرد تفاصيل بالطبع .. والآن لنعد الى العمل .. اننى أوافق على ترتيباتك .. أقصد فيما يتعلق بثورسيل .. ربما أكون بالفعل قد ارتكبت غلطة هناك .

ـ لا يزال الوقت متسعا للتغيير اذا شئت .. هناك مثلا ماتياس ..

ـ لا أريد من أحد أن يفعل شيئا لمجرد ارضائى .. دع ثورسيل فى مكانه . وخذ هذه الأوراق يا هيوبير .. اننى أفوض لك الأمر كله .. اننى أدرك الآن اننى لن أستطيع العودة فى بداية الشهر القادم ..

طابت ليلتك يا هيوبير .. اننى سأتمشى قليلا قبل أن آوى الى الفراش .. ان التريض يفيدنى .. كم الساعة الآن ؟ .

ـ العاشرة .. والدنيا ظلام ..

ـ لن يكون هناك أى فرق بالنسبة لى .. طابت ليلتك .

وسار هيرمانتييه فى ممشى الحديقة ، وسمع هيوبير يجذب المائدة فى الشرفة .. وكان صرير الجنادب فى العشب يطن من حوله .. وسقطت قطرة كبيرة من المطر على خده وانحدرت الى ركن فمه .. واستمر يسير وهو منحن بعض الشىء .. اذ لم يكن يستطيع أن ينصب قامته بسبب الجدار ! وكان الليل مفعما بروائح الأشجار الخشبية ورائحة صمغ الصنوبر تهب وتغطى على سائر الروائح وتخترق صدره كنصال حادة . وكان يقول لنفسه : لا تقلق

www.ibtesama.com/vb

.. انها ستذهب .. انها أوشكت أن تذهب بالفعل .. ثم هبت نسمة أخرى لفحت وجهه مثقلة بأريج الزهور .. هكذا .. لقد ذهبت الرائحة الآن .. لكن وقعها كان عليه سيئا .

وأخذ يفكر : ولكننى نفس الشخص .. اننى أستطيع أن أتحدث فى شئون العمل . وأناقش المسائل الفنية . وربما أيضا اخترع . ومع ذلك .. ومع ذلك أستطيع ان أكون مخطئا تماما . فلنفرض أننى عدت الى العمل وارتكبت أخطاء مثل هذه ؟ . ان السماء وحدها تعلم ما يمكن أن يحدث عندئذ ! .

وانتابته أفكار سوداء ، ومضى فى طريقه لا يدرك مدى المسافة التى قطعها . ثم توقف وقد داخله احساس بأنه ضل . وأخذ يستكشف بحذر ما حوله بقدمه ، تماما مثلما كان يفعل وهو يريد أن يثبت رجله فى الأرض أثناء الصيد فى المستنقعات . وقاده تحسسه الى لمس الحاجز الأسمنتى للممر . فأدرك على الفور أين هو .. انه يقف عند تقاطع الممرين . ولاشك أنه يقف الآن بالقرب من شجرة الخوخ التى زرعها فى العام الماضى . يا للضجة التى أحدثتها كريستيان بسبب هذه الشجرة .. لقد قالت انها قلبت نظام الحديقة وأفسدت هندستها .. الخ .. ثم ما فائدة زرع أشجار الفاكهة مكان الزهور بينما تستطيع أن تشترى من السوق كل أنواع الفاكهة ؟! وفاكهة أحسن من هذه أيضا ! . لكن كريستيان لم تكن تشعر نحو الأشجار بأية عاطفة ـ تماما كما كان حالها مع الحيوانات ـ حتى الزهور كانت لا تثير الا أقل اهتمامها .. الى أن أحضرتها بنفسها فى الداخل وزرعتها فى اصص .. أما هو ، فالأمر بالعكس تماما .. انه يجهل كيف ينظم الزهور فى أوانيها .

بالطبع .. ان هذا شىء لا يثير الدهشة .. هكذا كان تفكير زوجته .. انه مجرد فظ غليظ . ربما يكون يحسن عمله ويتكسب عيشه ، لكنه فيما عدا ذلك لا يرجى منه خير .. حسنا .. انها سترى الآن .. ربما يكون من يتكسب عيشه ليس قليل الشأن

www.ibtesama.com/vb

كما تظن .. سيتولى هيوبير زمام الأمور لشهرين أو ثلاثة .. وسترى ! .

وأحس فى أعماقه ، وهذه الأفكار تراوده ، أن من الأفضل أن يدخل أحد المستشفيات أو احدى المصحات العقلية . لكن مجرد الفكرة نفسها أفعم مشاعره بالمرارة . فبصق على الأرض . كان يشعر بالظمأ ، وكان يحس جفافا كأنه أضحى عظمة لفظها البحر . شىء لا قيمة له ولا وزن . ربما كان أفضل شىء أن يشعل فتيل قنبلة يدوية ثانية ـ قنبلة أفضل من الأولى ـ ويدعها تنسفه نسفا .. نعم لقد بلغت روحه التراق .

وتذكر ماكسيم . وتذكر كريستيان . وتدافعت الى مخيلته صور شتى . نساء عاريات . كل منهن لها وجه كريستيان .. وتأوه . ومد يده ليقتطف خوخة . ربما تطفىء الخوخة ظمأه .. لكن يده ظلت تذهب وتجىء فى الفراغ . وتقدم خطوات . وسقطت قطرات أخرى من المطر . أكثر وأثقل ، كأن يدا تهز السماء وتسقط فاكهتها المائية . ولم يستطع أن يجد الشجرة برغم محاولته .. كأنها تلهو معه وتختبىء منه .. أين ذهبت يا ترى ؟ . تملكه الضيق ، فعاد الى الممر واتخذ موقفه الأول وبدأ يخطو من جديد ويحصر خطواته .. واحد . اثنين . ثلاثة .. كان يجب أن يصل الى الشجرة الآن .. أربعة . خمسة .. لا يمكن أن تكون على هذا البعد .. ربما هى الى اليمين اذن .. لا .. ليس هناك شىء .. ولا الى اليسار أيضا .. ليس ثمة شك اذن فى أن شجرة الخوخ الصغيرة قد ذهبت .

عاد هيرمانتييه الى الممر ، وتعثر فى الحاجز الأسمنتى وكاد يقع . ورفع ذراعه كأنه يصد شيئا . لكن لم يكن هناك مايهدده . وزادت الريح .. وبدا كأن الحديقة من حوله تزخر بتحركات وخشخشات خفية .. وداخله احساس بضرورة الفرار .. لكنه قاومه .. وقال لنفسه : حسنا . ان شجرة الخوخ لم تعد هنا . ماذا يهم .. لا شك أنها اقتلعتها ، لتسير الأمور على ما تشتهى .

www.ibtesama.com/vb

وكاد يشعر بارتياح لهذا التفسير . انه التفسير الوحيد الممكن .. الا اذا ...

واعتصر يديه . فلنفرض أن يديه هما الملومتان . فلنفرض أن الأيدى يمكن أن تخطىء ،كما تخطىء الأذن السماع . وكما تخطىء العين الرؤية .. تحول بوجهه الى يديه كأنما هو يتطلع اليهما . وأحس بأنهما على ما يرام وانه يمكن أن يثق فيهما ، وأنهما يمكن أن تطيعانه . ومع ذلك فقد أخطأ بشأن ريتا .. أليس كذلك ؟ .

لا .. انه لا يستطيع أن يصدق هذا .. الشجرة قد ذهبت . انه يعرف انها ذهبت . وأخذ يسير الى البيت ببطء . كانت العاصفة قد ولت وشرعت تزمجر فى جهة أخرى . وتذكر ماكسيم مرة ثانية . كان يمكن أن يكون فى فراشه منذ مدة ، الا اذا كانت تلك السيجارة التى أراد أن يدخنها على الشاطىء ذريعة للذهاب وعدم البقاء فى البيت .. وربما اعتزم ماكسيم أن يقضى الليل كله عند الشاطىء بين كثبان الرمال .

وتحول هيرمانتييه قبل أن يغلق باب الشرفة خلفه . وجذب نفسا عميقا .. كان الجو قد انتشرت فيه رائحة التراب المندى بقطرات المطر . كيف ظن أنه اشتم رائحة أشجار الصنوبر ! .
وتناهى اليه صوت قطة من مكان ما ، تموء بنداء الجنس .

- ٥ -

فتح هيرمانتييه النافذة وجذب عدة أنفاس عميقة . وبدا له أن كل يوم جديد سيكون من الآن فصاعدا أشق احتمالا مما سبقه . وذلك بسبب خوفه .. ماذا يمكن أن يقول طبيبه لوئييه لو سمع ذلك ؟ لو عرف كل شىء عن ريتا وأشجار الصنوبر ، وعن الخوف الممض الذى يزداد الآن الحاحا عليه . نعم . ماذا يمكن أن يقول لوئييه ؟.. أيقول أنه يحتاج الى مزيد من الراحة .. ربما راحة على الدوام ؟.. ومع ذلك .

كان الجو شديد الحرارة .. ولم يجد هيرمانتييه مشقة فى أن

www.ibtesama.com/vb

يتصور منظر السماء الزرقاء ، ومروج الشاطىء التى خلت من كل شجرة أو زرع . وجذب نفسا عميقا مرة أخرى . وأخذ يفعل ذلك الى أن بدأ يحس بدوار . لكن ليس ثمة شىء غير عادى .. دخل الحمام ، وفوق الرف الزجاجى الذى يضع عليه فرشاته ومشطه وزجاجة الكولونيا عثر على آلة الحلاقة الكهربائية التى اشترتها له كريستيان ، وكان يعلم أنها بيضاء ، ذات أربعة أسلحة ، وأن ثمنها يبلغ ثلاثة آلاف فرنك . لكن يده التى تحسستها لم تستطع أن تبين له شيئا سوى أنها جسم اسطوانى ، له رأس كهربائية فى طرفه . لم يجد فيها شيئا يبهج خياله فلم تثر فى نفسه أية مشاعر من مشاعر السرور . بل لم يجد فى نفسه حتى الفضول الغريزى الى أن يوصلها بالتيار الكهربائى ليرى كيف تعمل .. والواقع أنه كان يفكر فى ذلك الوقت فى شىء آخر .. شىء يختلف تماما عما بين يديه . فقد تذكر أنه عندما شم رائحة الصنوبر ، أو اعتقد أنه شمها ، تنسم بجانبها أيضا رائحة الزهور . كانت الغلبة لرائحة الصنوبر .. لكن رائحة الزهور ، وروائح أخرى معها ، كانت هناك طول الوقت أيضا . وكان هذا معناه أن الحواس أو الاعصاب ، التى نقلت اليه معلومات زائفة ، قد نقلت اليه الحقيقة فى الوقت نفسه . وبدا له ذلك شيئا غريبا لا يمكن تصديقه . ربما كان من السخف أن يشغل ذهنه بمثل هذه الاشياء . لكنه لم يستطع أن يمنعه من ذلك . هذا الصدق والزيف الذى يأتى فى وقت واحد أمر لا يمكن لأحد أن يفعله . ومع ذلك فقد حدث . كانت المفارقة موجودة قائمة لا مهرب منها .

وتذكر المتاهة التى ضل فيها عندما كان فى العاشرة من عمره . كانت متاهة فى احدى مدن الملاهى . خيمة كانت تبدو كالخيام الاخرى . وكان قد دفع ثمن التذكرة ودخل بشجاعة . وفجأة وجد نفسه وسط أستار يجب أن يشق طريقه خلالها . فركبه الفزع وأخذ يذهب ويجىء . ودخل غرفة صغيرة كانت غاصة بالمرايا التى تثير الضحك . لكنه لم يجد فيها ما يضحكه ، بل وجد ما أفزعه وبدأ يجرى . ولا يعرف حتى الآن كيف خرج . لكنه استطاع أن يخرج أخيرا واختفى خلف أحد الاكشاك وهو يشعر بدوار . كان كل ذلك بسبب ملمس الاستار التى كانت قد ظليت وبدت كجدران

www.ibtesama.com/vb

صماء فى قبو .. انه يشعر الآن بأنه كالضال فى هذه المتاهة .

وسمع صوت ماكسيم يستأذنه فى الدخول . وما لبث أن دخل الفرقة دون أن ينتظر رده ، ووقف على عتبة الحمام .

ـ هل لديك أقراص من الاسبرين ؟ اننى أشعر بتوعك . ربما يكون بردا .. تصور سخف ذلك فى يوليو !

ـ ان مشكلتك هى أنك لا تعرف كيف تعنى بنفسك . واذا لم تتنبه لتصرفاتك ، فستندم على ذلك يوما ما . ان هذا اليوم قد لا يكون بعيدا .. افتح درج المنضدة التى تجاور الفراش .

وتحسس هيرمانتييه الجدار على يمين الحوض وأخذ يمرر يده على صفحته بحذر . كان يعلم أن «الكوبس» تالف . ولابد أن يصلحوه أو يستبدلوه اذا كان سيستخدم الموسى الكهربائية .. وسمع صوت ماكسيم :

ـ اننى لا أجد شيئا هنا .

ـ اذن ابحث فى الدولاب .. فى أحد أدراجه . الأرجح أن يكون الدرج الاوسط .

وأخذ يتحسس الجدار من جديد . وركع على ركبتيه . ان « الكوبس » مكانه هنا تحت افريز الحائط مباشرة . واذا بماكسيم يصيح من خلفه :

ـ ماذا تفعل بحق السماء ؟

ـ لاشىء .. اننى أبحث عن « الكوبس » . لأضع فيه فيشة الموسى الكهربائية .

ـ انك لا تبحث فى الجانب الصحيح . انه هنا على يسارك . فرد عليه بعصبية .

ـ اننى لا أسمح لك بأن ترشدنى ؟

ـ هات .. أعطنيه ..

وأخذه منه .. وما هى الا لحظات حتى سرت الكهرباء فى الموسى وقال ماكسيم :

ـ انه جميل . هل تريد أن أحلق لك ؟!

www.ibtesama.com/vb

لم يكن هيرمانتييه حينئذ يفكر فى الحلاقة . كان قد وضع يده على الموسى وأخذ يتتبع سلكه الى الفيشة . كان « الكوبس » هناك سليما . لا صدع فيه على الاطلاق . فانتزع هيرمانتييه الفيشة وكف الصوت .

ـ هل لا زلت هنا ياماكسيم ؟

ـ بالطبع .. ماذا دهاك ؟. ألا تحب (موساك) الجديدة .

ـ ماكسيم .. أريد أن أعلم مايحدث هنا . ماذا كانوا يفعلون فى غرفتى ؟

ـ من ؟

ـ لا أدرى . أحدهم . لقد غير أحدهم موضع « الكوبس » . كان دائما الى اليمين . وكان تالفا .

ـ أوه .. هل هذا ما يزعجك حقا ؟

كان ماكسيم يتحدث بلهجته المازحة تلك ـ التى كثيرا ماضايقت أخاه خلال الأيام القليلة الماضية . واستمر يقول :

ـ ألم تعلم .. ان المكان كله قد أصلح ؟ .

ـ أصلح ؟ متى كان ذلك ؟

ـ فى أيام عيد الفصح

ـ ومن أعطى الامر بذلك ؟ كريستيان ؟

ـ ومن يكون غيرها ؟ كان العمال موجودين بالفعل . وكان من المؤسف عدم انتهاز فرصة كهذه . وكان أجوستينى هو الذى فكر فى اتمام كل شىء فى نفس الوقت . الاصلاحات التى بحثتها أنت معه ـ السقف مثلا ـ ألا تذكر ؟

ـ لا شأن لهذا بالموضوع . كان يجب أن أعلم كل شىء .

ـ ربما كان يجب بالفعل . لكن كان لدينا من المتاعب ما يكفى فى ذلك الوقت . لا سيما كريستيان . وقد تولى أجوستينى فحص كل شىء ، بما فى ذلك السلك الكهربائى .

ـ وهل قام بشىء فى الحديقة ؟

www.ibtesama.com/vb

ـ لا .. كل ما حدث من تغيير هناك قام به عمال تطهير المنجم .
لكن يجب ألا تقلق بالك .. فانهم لم يفسدوها كثيرا .
ـ والمنتزه ؟
ـ لقد دخلت فيه تعديلات كثيرة . فقد نسفوا فيه منزلا لازالته وقطعوا كثيرا من الاشجار . وأصبح يبدو فى بعض مواقعه كميدان معركة عنيفة .

وفتح ماكسيم الصنبور وتناول بعض الماء فى كوب ثم ابتلع به أقراص الاسبرين .
وقال هيرمانتييه :

ـ لست أشك فى أن كريستيان قد انتهزت الفرصة على أفضل وجه . لقد كانت دائما تريد تغيير المكان . وكانت تقول اننى اشتريت فيللا لاتفترق عن غيرها فى قليل أو كثير .

ولكن أجوستينى أحسن عمله . لقد وضع لها سقفا جديدا . وفيما عدا ذلك لم يحتج الامر الا لبعض الاصلاحات والطلاء وورق الجدران .. الغرفة الاضافية مثلا . هل تذكر كيف كانت ؟ . لكن
ـ بالطبع ـ تستطيع كريستيان أن تخبرك بشأنها أكثر مما أستطيع

ـ اذن لقد أحسنتم صنعا فى كل شىء .. فيما عدا التليفون ! وربما تخشون أن أظل أحادث المصنع بوساطته طول اليوم .
فضحك ماكسيم .. وأخذ مزيدا من الماء فى الكوب .. وقال :

ـ اصغ الى يا أخى . أنت تثير زوبعة بلا سبب . لو استطعت أن تشاهد وجهك الآن .. وهذه النبرة فى صوتك وأنت تتساءل : ماذا فعلوا بغرفتى ؟
ـ اخرس . حاول أنت أن تضع نفسك فى مكانى .
وأدار ماكينة الحلاقة من جديد ومر بها على خده . وسرته النتيجة ـ وبدت له البشرة ناعمة ملساء ككرة البلياردو ! ثم قال :

ـ أعلم أننى قد أبدو صعبا فى كثير من الاحيان . لكن هناك أشياء دائما تحدث وتثيرنى .. اننى أشعر أحيانا بأننى أنا الذى تغيرت ، وأشعر أحيانا أخرى بأن الاشياء من حولى هى التى تغيرت

www.ibtesama.com/vb

.. منذ فقدت بصرى وأنا أحس بشعور غريب من العسير أن أشرحه . كأننى قد بادلت بجسمى جسم شخص آخر ، أو كأننى نقلت الى عالم جديد تماما ـ كل ما فيه غريب وخطر .

ـ ربما يجب أن تحمل عصا كأى انسان كفيف آخر . انك ستهتدى الى طريقك على نحو أفضل عندئذ .

ـ كلا .. أنك لا تفهم .. ان هذه ليست المسألة .. خذ مثلا ليلة أمس . لقد كنت موقنا من أننى أشم رائحة أشجار الصنوبر .

ـ هل كنت تشمها أنت أيضا !!

ـ بالله عليك .. لاتقل انك ..

ـ اننى شممتها بنفسى ؟ اننى لا أقول ذلك ، لكن ما شممته كان رائحة نفاذة لصمغ الصنوبر . كنت أسير بين كثبان الرمال على الشاطىء وأعرف تماما انه ليس هناك أى شجرة من أشجار الصنوبر حولى لأميال . ومع ذلك كانت الرائحة هناك . كأننى كنت أسير وسط غابة من أشجار الصنوبر . أعتقد أن لهذا علاقة بالحرارة وبالجو الراعد .

ـ اسمع ياماكسيم . هل تقسم على أنك لاتقول ذلك لمجرد ارضائى ؟

ـ بالطبع أستطيع أن أقسم بشرفى . ثم لماذا أجشم نفسى مشقة الكذب فى أمر كهذا ؟ ماذا يهم اذا كانت هناك رائحة صمغ الصنوبر أو لم تكن ! . يجب أن تكون أكثر ثباتا وتماسكا يا أخى .. حذار .

ومد ماكسيم يده وأخذ ماكينة الحلاقة برفق من هيرمانتييه وشرع يكمل له الحلاقة حول فمه وتحت أنفه . وكانت حركة الماكينة تشبه التربيت على الوجه ، وكانت تدل ، أكثر من الكلمات ، على حب أخوى حرك مشاعر هيرمانتييه . فاستسلم وأعطى أخاه وجهه تماما . وكانت أصابع ماكسيم تلمس بشرته أحيانا فيحس بقشعريرة خفيفة .

ـ انها ماكينة عظيمة . يجب أن تقرضها لى لأحلق بها . ولست

www.ibtesama.com/vb

أعتقد أنه سبق لك أن حلقت بمثل هذا الاتقان . والآن .. لنضع شيئا من البودرة .

ـ أشكرك .. ولا بد أن أعترف لك بأننى كنت غاضبا منك ليلة أمس .

ـ لم يكن هذا لأول مرة . ولهذا لاتدع هذا الموضوع يشغلك . أنحن قليلا لأنثر على رأسك بعض الكولونيا . أظن انه يجب ألا تدع لعواطفك العنان . اجلس . اننى لا أستطيع أن أصل الى رأسك .

ونثر ماكسيم الكولونيا على رأس أخيه ، ثم قام بتمشيط شعره .

وتساءل هيرمانتييه : هل صحيح أن مارسيلين خليلتك ؟ .

وصفر ماكسيم وقال : اننا فضوليون ؟ أليس كذلك ؟.. بالطبع هى خليلتى . وماذا أفعل اذا كانت كل الفتيات يلاحقننى ؟!

وضحك ضحكة استخفاف . لم يكن ليأخذ شيئا قط على محمل الجد ، واستمر فى لهجته يقول :

ـ لعل كريستيان حدثتك فى هذا الموضوع . مسكينة كريستيان ! ان لديها أفكارا عابسة فى كل ما هو لائق . ولا شك أنها ذكرت لك أن كليمان يلاحق الفتاة بدوره وأنه يتحين الفرصة لينقض على ويزيحنى من طريقه . لا بأس . لا تأخذ هذا الكلام على علاته . ان كليمان يحترم الطبقات كل الاحترام .

ـ اننى لا أعلم الكثير عن هذا كله . لكن أتدرى ماذا قال لى يوما عندما عنفته بشأن فواتير الجاراج . قال : ان سيدى يعتقد اننى لص ، ولكن هناك آخرين يحسن به أن يتهمهم أولا .

ـ يعنى أنا ؟ .

ـ ومن غيرك ؟

ـ وماذا تعتقد أنت ؟

ـ لا شىء .

www.ibtesama.com/vb

فرمى ماكسيم بالمشط وصاح :

ـ اذا كان هذا هو الوضع .. ثم أمسك قليلا . وكان صوته يرتعش ، ولم يكن يبدو فيه أى أثر لصوته الحقيقى .

ـ اذا كان هذا هو الوضع ، فاننى سأبادر الى الخروج من هنا . كلما عجلت بالذهاب كان هذا أفضل . كلكم ضدى . حتى أخى الذى من لحمى ودمى !

ـ شيئا من الثبات يا ماكسيم . ان كل ما أطلبه منك أن تراعى سلوكك . دع هذه الفتاة وشأنها . اهتم بصحتك ولو مرة . اننى أعرف تماما أنك مريض .

فقال ماكسيم غاضبا .

ـ هذا من شأنى . أنا أسرق !! ان هـذا أعجب ما سمعت ، يا أخى المسكين ، لو علمت ما أعلم ..

وقطع عليه حديثه نوبة من السعال اضطرته الى الانحناء لفترة ، ثم ملأ كوبه مرة أخرى ، ونادت كريستيان من الحديقة :

ـ ريشار .. هل أستطيع أن أصعد اليك . لقد كان ساعى البريد هنا ؟ .

ووضع ماكسيم الـكوب على الرف الزجاجى بغضب ثم قال لأخيه :

ـ سأراك مرة أخرى قبل الرحيل .

فصاح هيرمانتييه :

ـ انك لن تذهب . اننى آمرك بالبقاء .

وسمع هيرمانتييه صوت باب غرفة النوم يصفق . وبقى ساكنا يفكر . يجب الا يعبأ بماكسيم . انه يثور بسهولة لكن هذا لايعنى شيئا . انه لن يرحل . انه يفعل ذلك كبرياء . وأين سيذهب على أية حال بما معه من قليل المـال ؟ .

www.ibtesama.com/vb

وفكر هيرمانتييه : لقد أنهكوا أعصابى . اننى أحس بالتعب واليوم لم يكد يبدأ بعد .

كان متعبا . وكان يشعر بفراغ فى داخله كجذع شجرة مجوف. لم يعد ثمة جوهر فى حياته . احتكاك بالعالم يزيده ضعفا ، يزيده شكا . مسألة «الكوبس» مثلا . بالطبع انها مسألة صغيرة تافهة كما أن تفسير ماكسيم لا غبار عليه . ان من الطبيعى أن يستبدلوا « الكوبس » ، لكن لماذا لايضعونه فى مكانه القديم ؟

ودخلت كريستيان .

ـ لقد كنت تتشاجر مع ماكسيم ، أليس كذلك ؟ لقد رأيت ذلك على وجهه وهو يخطو الى غرفته .

ـ لا .. لم تكن هذه مشاجرة . لم تكن شيئا على الاطلاق .

ـ أعتقد أنك تحدثت معه بشأن مارسيلين . وآمل أن تكون قد أوضحت له أنك لن تتساهل فى مثل هذه الامور .

ـ يعنى !

ـ يعنى !! أنك لم تكن هكذا من قبل ياريشار !

ـ تعتقدين أننى لم أكن حازما معه بدرجة كافية . أليس كذلك؟

ثم قام فى اعياء وتساءل .

ـ والآن .. ماذا عن البريد .. من أين جاءت الخطابات ؟

ـ هناك خطاب من جيلبرته وآخر من خطيبها . يبدو أن الجو شديد الحرارة فى ليون .

ـ هل أحضرتها .. وهل ساعى البريد لايزال هو العجوز اتوريللو ؟

ـ نعم . انه لايزال قويا . وقد ذكر أنه سيأتى يوما لزيارتك

ـ يحسن به ألا يتعجل ذلك ، فلست ممن تستحب رؤيته .. والآن ياكريستيان . أظنك قد نسيت أن تخبرينى بأن أجوستينى قد أصلح البيت .

ـ ربما أكون قد نسيت . اننى أنسى بالفعل أشياء كثيرة .

ـ ألم يرسل بعد فاتورة أجره ؟

ـ لا .. لم يرسلها بعد .. ويمكننى أن أكتب اليه فى ذلك اذا شئت .

www.ibtesama.com/vb

ـ كلا .. هل كليمان موجود ؟

ـ بالطبع ..

ـ أود أن أخرج معه . هذا اذا لم تكونى فى حاجة الى السيارة الآن .

ولاحظ هيرمانتييه ترددها فأردف :

ـ اذا كنت قد أزمعت الذهاب الى السوق فلا بأس أن تخبرينى بذلك . فان من الممكن أن أخرج أنا فى أى وقت آخر .

فقالت كريستيان فى خجل :

ـ ألا تحب أن أكون معك ؟

ـ بالطبع .

ـ اذن هلم بنا قبل أن يحضر أحد .

وتلاشى صدى الكلمات . وبقيا واقفين لحظة فى صمت . ثم رفع هيرمانتييه يده وتحسس ندوبه .

ـ سأكون مستعدا فى دقيقة .. انتظرينى فى الطابق الاول .

شعر بأن ثمة شيئا يباعد بينهما . وقال لنفسه أنه اذا لم يكن سيعود الى ليون فى نهاية الاجازة ، فمن الافضل أن يبقى وحيدا . وليس من العسير أن يعثروا له على امرأة فى الجوار ترعى شئونه . امرأة لا تعبأ بشكله . ذلك أنه ربما تكون هيئته مفزعة على نحو ما . ألم يرتبك بليش عندما رآه لأول مرة ؟ وعندما اقترح على بلانش أن تعود الى خدمته ، ألم تقل له : ليس الآن . لا شك أن هذا هو تفسير ما يكتنف تصرفاتهم من غموض ، وما يتكبدونه من مشقة فى ضبط عواطفهم وهم يتحدثون أمامه .

واذا كان الامر كذلك معهم ، فكيف سيكون مع عماله ، وقف لحظة أمام المرآة ، ثم غادر الغرفة . وعند أول الدرج توقف لحظة أيضا وأخذ ينصت . كان كل شىء ساكنا أسفل الدرج . كان القبح فيما مضى شيئا يثير ازدراءه . والآن أضحى هو القبح بعينه . بل أضحى ما هو ألعن من القبح . أصبح رعبا . أصبح شخصا لا بد من ابعاده عن الانظار . لكن ليس ثمة من يعترف بذلك بالطبع . سيظلون يكذبون عليه حتى النهاية المرة . وفى هذه الحالة كيف يمكن بالله أن يتحقق من شىء .

www.ibtesama.com/vb

وبدلا من أن يهبط ، صعد الى الدور الاعلى فى تثاقل ، ويداه مشرعتان الى الامام . وداعبت أنفه على الفور رائحة الاوراق القديمة ، والغبار ، وصناديق الملابس المطوية التى كان يحبها . وامتدت ذراعاه تتحسسان عروق الخشب فى السقف المنخفض ، وهى مليئة بمسامير صدئة . لا شك أن الكوة قريبة . وسرعان ما عثر عليها وتحسس مزلاجها ومر بيده على زجاجها وشتت بأصابعه ماتراكم عليها من نسيج العنكبوت . كان الغراء لا يزال موجودا . لاشك أن أجوستينى كان يعمل هنا . وتقدم بعض خطوات وشرع يتحسس العوارض الخشبية . هى أيضا جديدة يستطيع أن يشتم منها رائحة النشارة . نعم . لا شك أنهم أحسنوا كل شىء صنعا . وعاد أدراجه الى الباب وتحسس زر النور الكهربائى . ثم مضى الى الطابق الاول ، لكنه استمر فى طريقه الى نهاية الممر ، ودخل الغرفة الاضافية . وشرع أصابعه وأخذ يتحسس ورق الجدار . لا شك أن هذا الورق قد ثبت فى مكانه حديثا . وتساءل هل هو ياترى أخضر اللون محفوفا بخط ذهبى كالورق القديم ؟ وتمنى عندئذ أن يضحى بيديه ، كليهما معا ، فى سبيل أن يسترد ولو نصف عين ، يرى بها الاشياء ولو يشوبها الضباب . سيكون هذا أفضل من أن يحيا هكذا كالخنفساء . وتحسس طريقه الى حوض مصنوع من القيشانى . ما أجمل ملمسه . ان أجوستينى لم ينس شيئا على مايبدو .

وعندما عاد الى الممر سمع الارض تطقطق من خلفه ، كأنما تحت ثقل أحد ، فتحول بسرعة وقال :

ـ أهذا أنت ياهيوبير ؟

لكنه لم يسمع جوابا . لاشك أنه ليس هناك أحد . وشرع يهبط الدرج خطوة خطوة . وكانت كريستيان تنتظره فى البهو ، فبادرته قائلة :

ـ ان كليمان مستعد .. فالى أين تريد الذهاب ؟

ـ الى أى مكان الى البحر مثلا . أريد أن أسير على الرمال وأنصت لهدير الامواج . اننى أكاد أشعر بالاختناق هنا .

فتناولت ذراعه ، لا لارشاده ، ولكن بدافع آخر ، ربما أحس

www.ibtesama.com/vb

فيه شيئا أكثر من العاطفة . فغمغم :

ـ فضل منك أن توفرى هذا الوقت لى .

لكنه لاحظ على الفور نبرة صوته المتواضعة ، فدهمه غضب عظيم ، كان منذ الطفولة يشتعل بين جنبيه ، غير أنه تمالك نفسه ومضى فى صوت هادىء يقول :

ـ لقد أحسنوا عملهم بالاصلاحات التى أجروها . يجب أن نسوى حساب أجوستينى . ان ماكسيم ذكر لى أن الحديقة كذلك أصبحت فى شكل جميل .

كانا عندئذ قد وصلا الى مفترق الممرين فى الحديقة ، فقالت كريستيان :

ـ لعلك لا تعلم ان شجرة الخوخ الصغيرة ـ شجرتك ـ قد أثمرت ثلاث خوخات هذا العام !

فلم ينطق بشىء وانما تقدم من فوره صوب الحوض وشرع يديه فاصطدمتا على الفور ببعض أغصان مورقة ، ممتدة من جذع نحيل ، عليها سائل لزج . ولم يستطع عندئذ أن يمنع يديه من الارتعاد .

ـ انها ثلاث ثمرات .. هل تحب أن ...

كان ذلك تماما . كانت الثمار هناك . دافئة ناعمة كالقطيفة . عثرت عليها يداه بينما كانت الزنابير تطن حول رأسه . وكان ثمة طنين آخر بداخله . وجاهد ليتحرك ، فقد بدا له أن قدميه قد انفرستا فى الارض . ثم غمغم : فلنذهب .

وقبع فى ركن السيارة مكتوما على نفسه ، كأنما يشعر ببرد . وتحولت السيارة الى اليسار . لا شك أن كليمان سيسلك مايطلقون عليه اسم « الطريق المخصوص » .. وهو زقاق حجرى يمتد بين حقول عارية حتى كثبان الرمال . لكن ماذا يهم . فليذهبوا به الى أى مكان . ودس يده فى جيبه ومسح أصابعه التى كانت لزجة من لمس شجرة الخوخ . انه لأمر مؤسف أن لايستطيع كذلك مسح ذهنه ، وأن يمحو من ذاكرته ذلك الركن الفارغ فى حوض الزهور . نعم كان الركن خاليا من شجرة الخوخ ليلة أمس . على الاقل هذا ما تبينته يداه فى ذلك الوقت .

www.ibtesama.com/vb

كانت السيارة فارهة فلم يشعر بوعورة الطريق . وتدافع اليه الهواء من النوافذ المفتوحة مفعما بروائح أعادت الى ذهنه صورا مألوفة شتى . امتداد البحر والشراعات البيضاء . والخيول ترعى على أطراف منطقة العشب .

وسمع صوت كريستيان .

ـ هل تحب أن تنزل هنا وتمدد ساقيك ؟

ـ نعم .

فقال كليمان : سأتوقف هنا بجوار الطاحونة .

كان هيرمانتييه قد أوشك فيما مضى أن يبتاع الطاحونة ؛ لمكانها الجميل من البحر . ولأن آلاتها كانت لا تزال تعمل فى حالة جيدة . لكنه للأسف لن يشتريها . وابتاعها أناس آخرون ـ آل بلانيتفو ـ وحولوها الى فيللات لكنهم لم ينزلوا فيها أبدا .

وهبط هيرمانتييه من السيارة ، ورفع أنفه فى الهواء واخذ يتنسمه . بينما قالت كريستيان ان البحر هادىء جدا .

كان يود ألا تقول شيئا ، وأن تتركه لانطباعاته الخاصة . فقد كان يعلم تماما أن اليد التى تحيطه تكذب عليه . هذه الطاحونة لابد أن تكون الى اليسار .. أما الى اليمين فلا شك أنه انحدار الساحل الذى ينتهى الى رأس منخفضة ، يخالها المرء من بعد زورقا قد ألقى مراسيه . وأما أمامه فالبحر . ولا شك أن ثمة سحبا متكومة فى الافق .

ورمى هيرمانتييه بكتفيه الى الخلف وأحس كأنه يلقى من على كاهله لعنة شريرة . يا للأسف ، أنه لا يستطيع أن يعدو عدوا ليمس أطراف المياه .

وقال لزوجته : تعالى .. ثم مضى يجر أقدامه فى الرمال .

ـ دعنى أقودك ياريشار .. لا .. ليس من هذا الطريق .. ليس من هذا الطريق !

شك صوتها أن يكون صراخا . وقد داخلها خوف مفاجىء .

بينما قال هيرمانتييه :

www.ibtesama.com/vb

ـ لن أصاب بشيء حتى اذا سقطت .

فقالت كريستيان مقطعة الأنفاس :

ـ ولكننا على قمة الكثيب .

فتبسم هيرمانتييه وقال :

ـ لا شك أن من يسمعك يظن أن هذا الكثيب جبل . الواقع أننى لا أستطيع أن أسمى هذا حتى كثيبا . انه مجرد منحدر لطيف

ـ تعالى .. تعالى نعود .

وهبت الريح وتصاعد صوت طائر النورس يقطع الصمت الذى دان . وأحس هيرمانتييه فى ظلمته أن الارض التى تحيط به تمتد الى ما لا نهاية ويحتويها سكون رهيب . ربما لم يكن ليشعر بهذا الفراغ من حوله لو لم تستخدم كريستيان كلمة « قمة » الكثيب. وتراجع خطوة . غريب أمرها ، اليس كذلك ؟ يالكريستيان القادرة! يكفى أن تقول : ان شجرتك قد أثمرت ثلاث خوخات ، حتى يجد الشجرة الصغيرة تصادف أصابعه حقا ـ بثمارها وأغصانها . يكفى أن تقول : حذار . اننا على قمة ، ليشعر بأنه يقف بالفعل على حافة جرف وقد أصابه دوار . ومع ذلك فانه يتذكر الكثيب جيدا . مجرد كومة من الرمال تنحدر بلطف الى الشاطىء . يستطيع حتى الطفل أن يهبط منها وهو يعدو دون خوف .. هل قد صار اذن هشا ضعيفا ؟

أحس بأن الخروج الى الشاطىء قد فقد فجأة متعته ـ فاستند الى كريستيان وتركها تقوده الى السيارة ، بينما كانت تقول :

ـ ان المد الآن فى عنفوانه .

فليكن المد عاليا أو منخفضا . سيان ما دام لا يراه . وتناهى اليه صوت الرمال ـ وبعض العظام المتناثرة ـ وهى تتكسر تحت قدميه . ثم غير رأيه فجأة وقال :

ـ أريد أن ألمس المياه .

واتجها صوب البحر ، وصارت الارض كلما تقدما أكثر صلابة . لكن البحر على غير العادة ، لم يكن له صوت ، فيما عدا تقلب

www.ibtesama.com/vb

موجات بالغة الصغر . صوت دقيق بالمقارنة الى الفضاء الشاسع .
وانحنى هيرمانتييه ودس أصابعه فى المياه الناترة ، ثم لعقه بفمه ،
ووجد فيه شيئا من المرارة . لكن هذا كان يكفيه على أية حال .

ـ نستطيع أن نسير الى روشيردى كاردينو ، اذا شئت .

فأجابها : كلا . . اننى أفضل العودة الى البيت .

لم يعد مكانه هنا . يكفيه أن يعرف أن البحر هناك . واستند الى ذراع كريستيان كمشلول عاجز خرج لأول مرة ووجد الهواء أقوى مما يحتمل . وشعر بالارتياح لعودته الى السيارة والانزلاق فى كرسيه . وأدار كليمان السيارة بغير صوت ومضى . ولم تقل كريستيان شيئا . ربما هى الآن تتفحصه وتدرسه . هل تفعل ذلك ياترى بلهفة ؟ . . بأسف أو بسأم وامتعاض ؟ انه يفضل أن تتحدث الآن . فقد داخله شعور بالذنب لأنه اقترح عليها الخروج هكذا . رحلة لم تتم . كان طعم الملح لا يزال فى لسانه الذى لعق ماء البحر . وكان أصبعه لايزال يحس لزوجة شجرة الخوخ .

أين الحقيقة ؟ من يصدق ؟ وماذا يصدق ؟ .

ووقفت السيارة أمام الجاراج . وقال هيرمانتييه :

ـ سأنزل بنفسى .

وهبط دون أن يساعده أحد . وفتح قميصه ومسح العرق عن عنقه . وتقدم وانعطف فى الممر . لن يراه أحد هنا . وتوقف تجاه شجرة الخوخ . ومد يده وعثر على غصن . فاقتطف احدى ثماره بسرعة وأعمل فيها أسنانه . وامتلأ فمه بلحم الثمرة وعصيرها الحلو .

نعم . كانت ثمرة خوخ حقيقية . بالغة النضج .

ـ ٦ ـ

تقلب هيرمانتييه على ظهره ودفع بركبته أغطية الفراش . وأخذ يتنفس فى تثاقل وهو يطلق تأوهاته بين الفينة والفينة . كان قد اعتاد اليقظة ليجد نفسه فى هذا الوضع . لكنه كان يستيقظ عندئذ

www.ibtesama.com/vb

مفتوح العينين . أما الآن فلم يعد فى مقدوره أن يعلم على وجه التحقيق ما اذا كانت الظلمة المنتشرة هى ظلمة الليل حقا ، أم ظلمة فقدانه البصر . وقصف الرعد وتساقط المطر ، وبدأ يتذكر .. غرفة الجلوس . ودور البريدج . بدا له أنه قد نام لفترة طويلة . فقد كانت العاصفة قد بدأت أثناء اللعب ، بينما كان هيوبير يفرق الورق . وكان ماكسيم ، الذى عاد الى الظهور قبل العشاء مباشرة ، لا يكف عن السعال .. أما كريستيان فلم تكن تتحدث الا نادرا . وكان هيوبير هو الوحيد الذى يجد لذة فى اللعب على ما يبدو .. فقد كان يشير على الآخرين بالنصح ، ويناقشهم ويوضح لماكسيم أخطاءه . فكان الاخير يدافع عنها بحرارة . كانوا ثلاثة يلعبون البريدج . لذلك كان اللعب يبدو سخيفا . وكانوا يناشدون هيرمانتييه أحيانا أن يشاركهم . ويشتبكون فى مناقشات ناسين أنه أعمى . بل انهم لم يلحظوا انسلاله من بينهم ، حتى اذا بلغ الباب صاح به هيوبير :

ـ طابت ليلتك .. سنقوم مثلك بعد قليل .

لكن صوته كان ينم عن تلهف يكذب كلماته . لا شك أنه كان ينوى الاستمرار فى اللعب الى وقت متأخر . ترى هل هم لايزالون يلعبون الى الآن . لا . الارجح أنهم ذهبوا الى أسرتهم دون أن يتفوه أحد منهم للآخر بكلمة . عجيب أن يشغل المرء نفسه بشىء كهذا البريدج ..

وشبك هيرمانتييه يديه تحت رأسه وأخذ ينصت الى قطرات المطر وهى تتساقط على الأوراق . كان يستطيع أن يتصور لمعات البرق ويدرك أنها لابد تضىء نافذته وتلقى بظلها على أرض الغرفة . وكان يشعر الآن بتحسن بعد أن ذهب صداعه . ها هو ذا يرقد على ظهره وأمامه الليل بطوله اذا أراد ليقيس الامور فى ذهنه ليمتحن نفسه . وتساءل ذهنه على الفور ، وما الفائدة ؟ لكن صوتا آخر أهاب به أن يمضى فى فكره بغير ارتداد . هاهو ذا فى منتصف الليل ، والكل قد هجع ، والنسمة الرطبة تأتيه من النافذة . هذه هى اللحظة المناسبة ليواجه نفسه . لا يستطيع أن يواجه نفسه الا فى مثل هذه اللحظات . يجد نفسه فجأة يواجه مقعد الاتهام وفى الوقت

www.ibtesama.com/vb

نفسه يجلس فيه . لقد فات الآن أوان الاكاذيب والمعاذير وأسباب التهرب والمراوغة . ليس هناك لشيء معنى سوى الحقيقة وحدها .

الحقيقة . الحقيقة أنه لم يعد انسانا أعلى . لم يعد سوبرمان . أنه يعترف بذلك ولا يملك أن يضحك . لقد كان يظن نفسه منذ اخترع أول اختراعاته قطبا من الاقطاب أو انسانا أعلى . وظل سنوات طويلة وكل وجوده يدور على اقتناع ثابت لايتزعزع بأنه أفضل من أى انسان آخر . وقد أثبت لنفسه ذلك بأن جعل الآخرين ينحنون أمام ارادته ورغباته .. نعم .. كان هو الانسان العظيم ، بطريقة سيره ، بطريقة املائه خطاباته ، بطريقة رفع أصبعه ، مجرد أصبعه ، ليرد تحية البواب .. وقد أثبت ذلك لماكسيم بتكفله بنفقاته وسداد فواتيره . وأثبته لكريستيان بارغامها على أن تجد اسمه مكتوبا بحروف ضخمة فى كل مكان . بل حتى بعد الحادث ، ورأسه غارق فى الضمادات ، كان لايزال يرى نفسه قطبا من الاقطاب ، موقنا من أن فى مقدوره أن يرتقى كل الصعاب .

لكن هذا كله كان يتطلب رجلا قويا حقيقيا . سوبرمان حقيقى . أما هو فلم يكن ذلك فى استطاعته . لقد شارف النهاية . واصبح يخاف .

كان هذا هو مفتاح المسألة كلها . كان هذا ما يجب عليه أن يواجهه . لماذا يخاف ؟ ليس ثمة داع لذلك . ليس ثمة مبرروجيه . فعمله يسير بصورة مرضية . وهيوبير يبذل كل جهده . وكريستيان ترعى شئونه منذ أشهر وهى تتذرع بصبر القديسين .. هذه حقائق . حقائق ثابتة لا سبيل لانكارها . وهناك آخرون أيضا ، كلهم يدعون الى الطمأنينة . وهو الى هذا يتمتع بشهية طيبة ، وينام نوما حسنا ، ونوبات صداعه تقل .. حتى مخاوف لوثييه ظهر أنها مبالغ فيها .

وتثاءب هيرمانتييه وتقلب على جنبه . منذ بدأ يفر فى هذه المسائل وهو يقيس مالها وما عليها ، ويضع كل عامل فى جانب ، ويعرف مافى كل هذه العوامل من ضعف ، ومالها من وزن .

وكان يعلم أنه ليس مجنونا ، ولن يكون . لم يكن فى مقدوره

www.ibtesama.com/vb

أن يدير مسألة الجنون فى ذهنه لأكثر من لحظة . لكنه كان مضطرا الى الاعتراف بأنه عانى من بعض الاضطرابات العصبية . الا أن الامور حتى الآن تسير على مايرام . كل ماهنالك أنه مضطر الى الحذر عندما يخطو خطوة جديدة . فهل هذه الاضطرابات العصبية تكفى لأن تثبط همة قطب حقيقى من أقطاب الصناعة ؟ ماذا يمكن لانسان أعلى أن يفعل بشأنها ؟ الارجح أن يتوجه الى أقرب مصحة عقلية للمعالجة ، تماما مثلما يتخذ خطوة للتخلص من دودة مستدقة . اذن لماذا لايمكن لهيرمانتييه أن يفعل مثل ذلك ؟ هل ذلك لأنه ، فى أعمق أعماقه ، يود أن يجد ذريعة ليترك زمام الأمور لهيوبير ؟ ربما ، ولكن بصفة مؤقتة بالطبع .

لكن لماذا يفعل ذلك ؟ السبب ـ وهو لايذهب الى هذا المدى الا لكونه وحيدا فى منتصف الليل ـ السبب هو أن مصباحه الجديد وربما لا يكون مضمون النجاح . قد يظهر فشل هذا المصباح . فاذا حدث ذلك كانت الغلطة غلطة هيوبير ، أو على الاقل مسئوليته . هل يهم أن يضار هيوبير ؟ هل هيوبير شخص له أى اعتبار ؟ انه شخص أحسنت تربيته فنشأ وقد افتقد غرائزه وصار رأسه محشوا بخرافات القساوسة . لا . ان هيوبير لايهمه على الاطلاق . فان اليقين الوحيد الذى يساور شخصا مثل هيوبير هو أنه لابد لرأس ماله من أن يحصل ربحا لا يقل عن خمسة عشر فى المائة !!

يمكن اذن التضحية بشخص كهيوبير . فالشىء الوحيد الذى يهم ـ ولا بأس من أن يكون صريحا الآن ـ هو أنه ان يكون هناك من يتهم هيرمانتييه بأنه أفسد العمل . ان هناك مخاطرة . وأولئك الذين يعتقدون أن مخترعاته ليست الا خدعة كبرى قد لايكونون مخطئين تماما . فهو يعرف كيف يربح ويفيد مما هو معروف وقائم بالفعل . كان من الممكن فيما مضى أن تثيره ولو أقل اشارة تنطوى على هذا الاتهام . أما الآن فهو قادر على أن يوجه هذا الاتهام لنفسه دون اثارة . ذلك أنه استطاع أن يغوص الى أعماق نفسه . ولم يجد ما يخيفه فى الظلال التى سكنت هذه الاعماق .

ولنفترض أنه لم يكن عبقريا .. هل فى هذا ما يخجل منه ؟. لقد

www.ibtesama.com/vb

كان يحلم فى الماضى باختراع آلات تحدث ثورة فى العالم . وكان كل مافعله أنه صنع خيطا معدنيا جديدا للمصابيح . وكانت هذه بداية مجده . فبعد ذلك تزوج كريستيان . وكان موقنا فى ذلك الوقت من أنها قد انبهرت بنجاحه ، وقوته ، واندفاعه . وكان يبدو ـ وهو يتمتع بهذا الرأس الكبير وتلك الجبهة المفكرة ، أن مآله الى أن يترك علامته فى دنيا الصناعة . ولو كان قد استمر فى اختراع الاشياء بنفس النجاح الذى سجله فى اختراع معدنه ـ الذى قلل نفقات صناعة المصابيح بمقدار الخمس ـ لو كان قد فعل ذلك لتغير كل شىء من حوله . لكن المرء لايستطيع أن يخترع مجرد ما يريد اختراعه فقط .

ودفع هيرمانتييه أغطية الفراش من جديد وقد أوشك صبره على النفاد . كان قصف الرعد قد تباعد فى الزمن وفى المكان . لكن الريح كانت تشتد وكانت تدفع بشىء قرب النافذة ، شىء يخبط الجدران ، أو لعله ضلفه من شيش النافذة لم تعد مثبتة فى مكانها .. لم يعبأ بذلك وعاد الى خواطره التى شغلته . قال لنفسه أنه ربما كان فى مقدوره أن يفعل أكثر مما فعل لو كان قد تلقى التعليم العلمى المناسب . لكن القدرة النظرية التى كانت مطلوبة فى المصنع لم تكن أكثر مما يتوافر لدى رؤساء العمال الاذكياء . وقد استطاع أن يزيد القوة الانتاجية للمصنع دون اعتبار كبير لعامل المخاطرة .. كان المهم أن يفوز باحترام كريستيان . لكنه فقدها شيئا فشيئا ، فمن المسئول عن هذه الغلطة اذن ؟ ! .

لاشك أنه ارتكب عدة أخطاء بنفسه . ويستطيع الآن وهو فى حالته تلك أن يعترف بحدوده . لكن هذا لا يعنى أنه نكرة من النكرات . فقد شق طريق النجاح بنفسه . وهو يدرك الآن ، حتى وهو عاجز هكذا ، ان لديه القدرة على تحقيق أشياء يعجز عنها الرجل العادى . ثم مصباحه الجديد . ليس هذا شيئا نكرة كذلك . غير أن المشكلة هى أنه ليس هناك ما يمنع منافسيه من تقليده اذا عرفوا سره . ولا شك أن الكارتل أحسن امكانيات من مصنعه . لذلك كان لابد من أن يبدأ العمل بسرعة ويستحوذ على

www.ibtesama.com/vb

السوق . وقد كان من الممكن أن يفعل ذلك وهو يملك بصره .. أما الآن بعد أن فقده ، فثمة ظل من الشك .

ولكن ليتماسك ! هذا نوع من الافتراضات المغلوطة التى كثيرا ما يفترضها . الحقيقة أنه حتى وهو مالك بصره كان يمكن أن يهوى فى غلطة ، أو يسير الى سقطة . والواقع أنه تلقى أكثر من تحذير من أناس فى مراكز عليا يناشدونه أن يكون أكثر حذرا وألا يحول ضده مثل هذا العدد الكبير من الناس . فالكارتل كانت قوية — ولم تكن لتقف عند حد .

لكن لابأس . فان هيوبير هو الذى سيدفع الثمن !

هذه الضلفة فى النافذة لا تكف عن خبط الجدار اللعنة عليها ان كانت هى حقا مصدر هذه الضجة . قام من فراشه وتقدم صوب النافذة . وتحسس فى طريقه المنبه وفتح زجاجه ووضع أصابعه على العقربين .. كانت الساعة اثنتى عشرة وخمس دقائق .. غير معقول ؟! لقد كان موقنا من أن الليل قد أوغل . ولكنه يجد الآن أنه لم ينم أكثر من ساعتين .. عليه اذن أن يوقف كل هذا الفحص الذى يوجهه الى دخيلته . ووصل الى النافذة . ووجد أن الريح قد أطلقت بالفعل ضلفة من ضلف الشيش كانت تذهب وتجىء . وكان المطر لا يزال يتساقط على الأوراق والجدران والارض .. وأحس بقطراته تغشى وجهه عندما مال به خارج النافذة .

وفتح ضلفتى الشيش وثبتهما . ثم توقف واخذ يستنشق رائحة الحديقة الندية . حديقة مرت بها العاصفة ! انها تشبه ذاته تماما . وتذكر هيوبير مرة أخرى ، وتمثله يغوص فى مياه عميقة . لكنه أدرك أنهم جميعا كذلك . ثم تدارك واستبعد نفسه . بماذا يمكن أن يخاطر رجل مثله ؟ كيف يمكن لانسان أعمى أن يخسر شيئا ؟ انه لن يموت جوعا . وأسوأ فرض أن يرسل ليقيم فى بيت من بيوت العميان . حتى هذا لن يعبأ به . وعندما تنتهى الكارثة سيعود وبين أمن جديد . وحده هذه المرة ، بلا شركاء ، بلا هيوبير .

وعاد أدراجه الى فراشه وهو لايزال غارقا فى أفكاره . الآن وقد تفحص كل احتمال ، هل بقى ثمة شىء يمكن أن يخافه ، لقد

www.ibtesama.com/vb

عاش أيامه القليلة الماضية فى شبه كابوس ، يهتز فى عالم مقلقل قد انقلب رأسا لعقب . لايستطيع أن يجد فيه مكانا ترسخ فيه قدمه . لقد كانت محنة كبرى ، ولو تعرض لها أحد غيره لخار وانسحق . ولكنها لم تنته هذه المحنة ـ لم تنته بعد . انه يعلم ذلك ويدرك تماما أنها لن تنتهى أبدا . ذلك أن الحياة لا مفر ستبقى كابوسا بالنسبة لرجل أعمى يرفض أن يعلم نفسه من جديد ليأنس هذه الحياة الجديدة . رجل لا يزال يعتقد أن فى مقدوره مواصلة طريقه كما كان الحال من قبل . رجل لاشك مصيره الى ارتكاب كثير من الأغلاط الغريبة .

لكن هذه ليست هى المسألة الحقيقية . عاد الى الفراش وشعر فجأة ببرد فجذب الاغطية عليه من جديد . لا . ليست هذه هى المسألة الحقيقية . لقد فزع من القطة ، وفزع من رائحة أشجار الصنوبر ، وركبه فزع أكبر من شجرة الخوخ التى انبعثت أمامه فجأة من جديد . لكن فى كل هذه الحالات لم يكن خوفه لمجرد انه يظهر بمظهر أحمق لا حول له ولا قوة ، بل لسبب آخر أخطر من ذلك : كان يحس أنه فى خطر .

من المستحيل أن يذكر كيف بدأ هذا . لقد بدأ فى صورة جد غامضة ، قبل أن يغادر ليون على وجه التحقيق . والحق أنه لا يزال بالغ الغموض حتى وقته هذا . بل لا شك أن هذا الشعور الذى يرفض أن يدعه فى سلام ، هو غاية السخف كله .. لكنه قائم فى نفسه على أية حال ، أحيانا يظل قائما على الدوام ، كخوضه ذاك من الجدار قلما يغادره .

لكن ، أليس من الممكن أن يكون هذا الاحساس بالخطر هو الحاسة السادسة للرجل الأعمى ، ولم لا ؟ . ألا تشعر الدواب فى المناجم بقرب حدوث انفجار ؟ فى هذه الحالة ربما يكون على صواب . فثمة خطر فى مكان ما . ربما لا يكون هذا الخطر عليه شخصيا . ربما يكون على كريستيان المهددة ، او حتى على كليمان . ربما تكون هناك قنبلة يدوية أخرى مطمورة ، تنتظر من يتعثر فيها . لقد كان ثمة مناوشات كثيرة فى هذا المكان بين الالمان وبين رجال المقاومة .

www.ibtesama.com/vb

ربما تكون أشباح تلك الأزمنة العصيبة هى التى تملأ هذا المكان خوفا ورعبا .. لا .. انه الآن قد خرج عن خط التفكير السليم . ربما حان الوقت لنومه من جديد . لكن ألم يذكر له ماكسيم أنه سيعرج عليه وهو فى طريقه الى الفراش . ربما يكون قد نسى هذا . ولا شك أنه نائم الآن . كلهم نائمون .

أخذ الدفء يزحف على أطرافه وبدأت أفكاره تفتقر الى التناسق ، وان كان قد ظل يعى تساقط قطرات المطر فى الخارج . وتدلت احدى يديه ولمست الارض . وقصف رعد قريب هذه المرة وجعل النافذة ترتج ثم غاب صوته فى أصداء متباعدة . لكن تناهى الى هيرمانتييه عندئذ صوت آخر ، صوت أضعف وأدق ، فاسترعى انتباهه . كان ذلك صوت موتور سيارته .

طار النوم من عينيه على الفور وارتفق بكوعه الفراش وأخذ ينصت . نعم هذه هى سيارته البويك تعود . انه يستطيع أن يسمع صوت عجلاتها على الجزء الحجرى الواقع أمام الجاراج . ثمة باب لها يغلق بلا ضجة . ومن الواضح أن من أغلقه حاذر من أن يصفقه . انه ماكسيم بالطبع ، خرج فى الليل كالمعتاد . كان يمكن أن يطلب منه استخدام السيارة ، لكنه هكذا . يأخذها بغير استئذان .

ورقد هيرمانتييه من جديد . المهم أن السيارة قد أخرجت من الجاراج وسارت دون أن يستيقظ لصوتها . لم يكن الرعد شديد القصف على هذا النحو ليحول بينه وبين سماع صوت خروجها تقلب فى فراشه وواجه الجدار . لكنه لم يسترح لوضعه . أضحى هذا شيئا غريزيا . لم يعد فى مقدوره أن يعطى ظهره لباب أو لنافذة فانقلب على جنبه الايسر . هل هذا هو صوت المطر ينقر الارض فى غرفته مدفوعا من الريح ؟ كان الصوت شبيها بذلك . أو كان هذا على الاقل هو التفسير المعقول الوحيد لما سمع . أما الصوت فكان فى الحق يشبه وقع أقدام عارية على أرض الغرفة . لكن بالطبع ، يكفى أن يحرم المرء من بصره ليتصور فى كل صوت وجود انسان من حوله . وقد داخله نفس هذا الشعور من قبل ـ الشعور بأن هناك شخصا قريبا منه ـ وهو يبحث عن شجرة الخوخ . وقد

www.ibtesama.com/vb

قال لنفسه وقتئذ ان هذا من خشخشة الورق بفعل الريح . لكن ذلك لم يضيع من نفسه أثر الانطباع الاول . أن ثمة أحدا قديكون هناك بالقرب منه بغير علمه .

وقال هيرمانتييه لنفسه : كان يجب أن أغلق النافذة . والافضل أن أقوم وأغلقها الآن لأستطيع أن أنام فى سلام .

لكنه فى الواقع كان قد نام . وفى حلمه قام من فراشه وذهب الى النافذة . كانت السماء زاخرة بالنجوم وكان القمر يسطع متألقا على مساحة كبيرة من أرض المراعى .

وطقطقت أرض الغرفة كأنما تحت ثقل قدمين . فتبدد الحلم على الفور وصحا من نومه . وقام هذه المرة بالفعل ، برغم أن أطرافه كانت لا تزال يثقلها النعاس . وتحسس طريقه على الحوائط ومر برخامة المرآة التى وضع عليها المنبه ، وكان يتثاءب .. لا ريب أن كريستيان سينتابها الضيق اذا عرفت أن المطر قد بلل أرض الغرفة . لكنه لم يجد فى طريقه بللا حتى وصل الى النافذة فتحسسها . كانت هى الاخرى جافة كالعظم . اذن . فى هذه الحالة ..

وضرب قلبه فى صدره ضربة شديدة . وفارقته على الفور كل رغبة فى النوم . وتحرك صوب الباب . كان ينوى أن يضىء النور لكنه عدل على الفور . ان هذا الصوت الذى سمعه فى منتصف الليل لايعنى أبدا أن يفقد المرء أعصابه . ربما دفعت الريح بعض أوراق الشجر دفعا تحت احدى قطع الاثاث فى الغرفة .

أغلق النافذة بهدوء وسارع الى الفراش حيث رقد متنهدا . وفعل ذلك ـ تنهد ـ عمدا بصوت مسموع . وأحس أنه كثيرا ما فعل مثل هذا من قبل ـ كأنه يقوم بدور أمام شخص يحس أنه يراقبه ولكن لا وجود له . وظل راقدا فى سكون ، ينصت ، ذلك أنه لم يأنس لفكرة الأوراق التى دفعها الريح تحت احدى قطع الاثاث . وسمع عندئذ صوت شخص يتحرك فى الطابق الاسفل . ربما كان كليمان ، أو ماكسيم ، أحس بالظمأ فجاء يطلب بعض الجعة من الثلاجة . لكن ربما لايكون هناك أحد على الاطلاق . كيف

www.ibtesama.com/vb

يستطيع أن يثق بحواسه ؟ ومرة أخرى طقطق خشب الأرض . ولم تكن طقطقته تلقائية من الخشب بل بدا كأن الخشب يئن تحت وطأة ثقل مفاجىء . وتذكر هيرمانتييه أن أرض غرفته بالذات تطقطق لأقل ثقل . فهل يكون ثمة طائر .. خفاش ؟ هذا هو الصوت يأتيه مرة أخرى . ومرة أخرى .

وتذكر القطة على الفور . كان من الممكن أن تقفز القطة من سطح الشرفة الى نافذته . فمال على جانب الفراش وأطلق للقطة صوتا بفمه ليجذبها اليه . الآن لم يعد فيها ما يصده أو ينفره منها بعد أن عرف أوصافها جيدا .. ومد يده وانتظر أن يحتك بها أنف القطة . لكنه لم يجد شيئا . فبدأ عندئذ يغضب ، يغضب من نفسه .. ما هذا .. هل سيبقى الليل بطوله يتسمع هذه الأصوات الغريبة كطفل عصبى ؟ . قفز من فراشه على الفور ووضع رجليه فى خفة وارتدى الروب .

وكانت النافذة التى أغلقها مفتوحة . هل يمكن أن تكون الريح قد فتحتها ؟ أخذ يتحسس بلهفة طريقه فى كل مكان . وبدا له ذلك سخيفا غاية السخف لكنه لم يعبأ . كل ما يهمه أن يخلص نفسه بأى ثمن من هذا الشعور الذى لايحتمل ، الشعور بأنه لم يعد وحده فى الغرفة . لو كان حقا وحده لكان من اليسير أن يثبت ذلك فتقدم فجأة نحو الباب ثلاث خطوات سريعة . أمر لايتوقعه أحد من شخص أعمى . وعندئذ سمع صوت شىء يتهالك على مقعد . اذن لم يكن أبدا أحمق . وتساءل فى صوت خفيض . من هناك ؟ وبدا له صوته مغايرا . يتردد فجأة فى الليل مصحوبا بأصداء قصف بعيد ، أضفت عليه بدورها رنة مفزعة . وتحسس قفل الباب وظهره اليه . ولم يجد المفتاح . لا . انه هو نفسه الذى أغلق الباب قبل أن يأوى الى فراشه ووضع المفتاح فى جيبه . انه لن يبحث عنه الآن .. وتقدم الى المنضدة التى وضعت فى منتصف الغرفة . ربما يكون الشخص الآخر يتخلى له الآن عن الطريق وهو يراه يتحرك . ربما يكونان الآن وجها لوجه . مال هيرمانتييه على طرف المائدة المستديرة وأخذ ينصت . أليس هذا صوت تنفس ، أم هو حفيف الريح فى الاستار . تحسس طريقه ببطء حول المائدة .

www.ibtesama.com/vb

وأحس فجأة بأنه ـ بجرمه الضخم ووجهه الشاحب المشوة ـ هو الذى يفرض وجوده فى المكان . أما الآخر ، لو كان هنـاك آخر ، فالارجح أن يكون هو الاكثر خوفا . كان هذا خاطرا هدأ من روعه . وركز ذهنه فيه وشرع يتحرك كأنما قد وضع كل ثقله فى تحركاته . وكأنه بعزمه وارادته سيجعل هذا الدخيل يسقط ميتا من الرعب .

دار حول المائدة . ربما يكون الآخر يتراجع أمامه . لعله الآن قد احتمى بالمكتب . تحول نحو المكتب فسمع الأرض تطقطق من ناحيته . لاشك أنه هناك . لم يكن لديه أدنى فكرة عمن يكون هذا الشخص ، عمن يمكن أن يزوره هكذا فى سكون الليل . ليس بالطبع أحدا من أهل البيت . كان موقنا من ذلك ، فصاح : أجب .. من هنـاك .

وسمع عندئذ صوتا . كان خاتمه قد اصطدم بطرف المكتب . لكن هذا لم يكن مصدر الصوت . كان الصوت صوت مصباح أضىء . فتوقف وشعر بأنه ما لم يحس بحرارة الضوء ـ وذلك بأن يكون منه عن كثب ـ فليس ثمة وسيلة ليتحقق مما لو كان هناك ضوء على الاطلاق أم لا . وكان مما يزعجه أن يكون هذا الضوء مرشدا للآخر ـ لا له . كان الضوء يعطى لهذا الشخص الآخر المزايا .. ولم يكن أمام هيرمانتييه الا أن ينتظر وقوع الضربة . ولم تكد تداخله هذه الفكرة حتى أدرك أنه كان بالفعل منذ حادثته ينتظر أن تسقط الضربة عليه .. كانت القنبلة اليدوية اذن مجـرد سابقة للضربة الحقيقية .

لكن هذا كله بالطبع سخف .. انه يعلم ذلك .. لكن يقينه من هذا لم يمنع ساقيه من أن تضعفا شيئا فشيئا تحت ثقله . كان أشبه بحيوان دهمه فزع مفاجىء عندما وجد نفسه على باب المذبح .

ـ هل تريد مالا ؟

دفع بيديه فى جيبى الروب وانتظر . لم يتناه اليه الآن الا صوت تساقط المطر وصوت طائر عبر الفضاء بصيحة ، قد جذبه شعاع الضوء الذى لا شك قد تسلل الى الحديقة . عجيب أن يعلن لص عن وجوده هكذا ! الامر الآن يبدو له شديد الغرابة حتى أنه بات

www.ibtesama.com/vb

يعتقد أن الصوت الذى سمعه ربما لا يكون صوت مصباح أضيء ـ وربما يكون مجرد اصطدام خاتمه بطرف المكتب .

تحرك هيرمانتييه الى الأمام .. سيان أن يكون فى ضوء أو فى ظلام . ووصل الى الفراش وتحسس المصباح الكهربائى الموضوع بجواره . كان هناك قائما ـ دافئا ! وتناوله هيرمانتييه ليزداد يقينا وألصقه بخده . كان دافئا كحرارة الدم . وهو بالطبع لم يكن مضاء الا لفترة قصيرة . لقد كان دافئا على نحو يؤكد له ظنونه . فالمصابيح الكهربائية ميدانه وان أخطأ فى شيء فلا يمكن أن يخطيء بشأنها .

كان هذا اليقين الذى لاتداخله ثغرة واحدة من الشك هو الذى يثير الفزع حقا . كان ثمة شخص ، رجلا أو امرأة . أحس باكتشاف أمره فأضاء النور فترة ليطمئن الى مواقع قدميه .

وصاح هيرمانتييه : هيا . أفصح عن وجودك .. لقد طال الامر أكثر مما ينبغى !

لم يتحرك شيء .. ماالداعى الى أن يأتى اليه أحد فى مثل هذا الوقت ؟ للسرقة ؟. غير معقول للقتل ؟ لو كان الامر كذلك فلماذا يتأخر عن الاقدام ! لا .. كل هذا لايبدو معقولا .

وفجأة سمع هيرمانتييه صوت سيارة البويك تسير مبتعدة هذه المرة . وضغط بيديه على جبهته . أيقن عندئذ تماما أن كل ما سمعه كان صحيحا . هذه السيارة جاءت الى البيت ثم ذهبت من جديد . العادة أن يكون الامر بالعكس . أن تخرج السيارة ثم تأتى . لكن هذا لم يكن هو ما يهمه الآن بالذات . تحسس طريقه بجوار المكتب وقد أرهف حواسه . كان الصمت الآن قدران مطلقا . فاتخذ هيرمانتييه خطواته بعجل الى النافذة ، كأنما يحسم أمرا وأغلقها .. وثبت فيها المزلاج هذه المرة . ثم عبر الغرفة ببطء جهة الباب وأضاء المصباح الذى يتدلى من السقف . وجلس اخيرا على الفراش . عليه الآن أن ينتظر . لن تكون أعصابه هى التى ستبدأ بالتداعى والانهيار .. بل أعصاب غيره .

www.ibtesama.com/vb

ومر الوقت بطيئا . وكانت الحديقة قد تباعدت باغلاق النافذة. وانقطع صوت المطر . وأخذ هيرمانتييه يجاهد ليقتفى أثر صوت التنفس . لكن لم يعد الآن مايشير الى بقاء شخص آخر معه فى الغرفة ، يتحين الفرصة ليهرب ، ربما لم يكن هناك أحد ـ لم يكن هناك أحد على الاطلاق . ومكث هيرمانتييه جالسا الى أن بدأيشعر بالنعاس . وسقط رأسه على صدره مرارا . لكنه كان قد عقد العزم على الصمود . كان قد قرر أن يبقى هكذا الى أن يجعل خصمه يتوسل اليه طالبا الرحمة ! لكن . هب أن صوتا علا فجأة وقال له :

ـ ها ياهيرمانتييه ! لقد طال الامر أكثر مما ينبغى ! فلنجلس ولنتحادث قليلا ! .

ماذا يمكن أن يحدث عندئذ . هل سيترنح ويهوى كمن مسته صاعقة ؟!

هذه هى الافكار التى عليه أن يستبعدها . يجب ألا يفكر فيها .. أسند ذقنه الى يديه واتخذ سمت من يرقب ما حوله . وكان العرق يف لكن قدميه كانتا باردتين . وأخذ يتشاغل ببعض الاسئلة ليمنع نفسه من أن يغفو فجأة . ماكسيم مثلا .. لماذا يريد أن يخرج بالسيارة ؟ لقد أعطاه خمسة وثلاثين ألف فرنك ، لكن هذا المبلغ ليس بالكثير بالنسبة لشاب كماكسيم . ولعله قرر أن يضاعفه (أو يخسره) فى الكازينو الذى يقع فى لاروشيل . كل هذا حسن لكنه لايفسر لماذا جاءت السيارة أولا ثم ذهبت ثانيا . كان يجب أن يكون العكس . فمنذ فقد بصره وقوانين المنطق العادى لم تعد قائمة . فهل من العجيب أن تعامله كريستيان وهيوبير وماكسيم كشخص مصاب فى عقله ؟ ان هذا الامر يجب أن ينكشف بأى حال . اما أن تكون السيارة فى الخارج أو فى الجاراج وعليه أن يتأكد بنفسه .

دلك يديه وساقيه . لم يعد يدرى بالضبط كم مر عليه من وقت وهو جالس هكذا كالسجين ، لكن بدا له أن الامر قد طال بالفعل وأنه نال منه الكفاية . فقام وتحسس المقعد الذى ترك عليه

www.ibtesama.com/vb

ملابسه . كان المفتاح فى أحد جيوبه فتناوله وفتح الباب . لم يكن ثمة صوت فى الممر . فأغلق الباب وراءه وأدار فيه المفتاح مرة أخرى وتقدم صوب الدرج . لم يكن البيت وقد أوغل الليل الا فى نفس ظلمته بعد الظهر . بالنسبة له على أية حال . كانت تحركاته وانطباعاته هى نفسها . وعبر الردهة كالشبح دون أن يصطدم بشىء . ولم تكن المقاعد فى الشرفة فى أمكنتها العادية . وبدت كأنما قد دفعت دفعا عند اضطراب مفاجىء . وانتشرت فى الجو رائحة التبغ والكحول .

وكان باب الحديقة محكم الاغلاق بالمزلاج . فحرك هيرمانتييه مزلاجه وخرج . لو صادفه أحد وسأله لأجابه بأنه انما اضطر الى الخروج ليتنسم بعض الهواء المنعش يذهب به صداعه . كان المطر قد كف . وكانت الريح قد سكنت . وكانت الجنادب قد شرعت تصر من جديد . لكن هيرمانتييه لم يعبأ بجمال الليل . وظل يتقدم مسترشدا بالافريز الاسمنتى للممر ـ بخطوات لم يعهدها فى نفسه من قبل ـ يدفعه الى الامام صبر نافد . وعبر الفناء أمام الجاراج وفتح الباب الذى يؤدى الى الفناء الكبير .. وعدا عدوا الى مكان السيارة .

وتحسس مؤخرتها . كانت هناك بالفعل . تعرفت يداه عليها على الفور . لا شك أنها كانت فى الخارج ، فعجلاتها ملطخة بالوحل

لكن هيرمانتييه لم يعد فى طاقته عندئذ أن يسترسل فى تساؤله لينتهى الى أمر . فمال على السيارة مرتكنا ، وهو يتنفس بصعوبة كرجل مطارد . وأخذ يترقب طلوع النهار .

ـ ٧ ـ

لقى هيرمانتييه كليمان فى الشرفة فصاح به الأخير :

ـ هل استيقظ سيدى مبكرا ؟ ان الساعة لم تتجاوز السابعة الا بقليل ..

ـ اننى مصاب بصداع يا كليمان .. واننى مسرور بلقياك ..

www.ibtesama.com/vb

تعال معى الى الطابق الأعلى ، فاننى أريد أن أحادثك ..

وصعد هيرمانتييه الدرج وفى أعقابه كليمان .. وكان الباب لا يزال مغلقا ففتحه هيرمانتييه وأشار لكليمان بالدخول .. ثم سأله :

ـ هل النور مضاء ؟..

ـ نعم يا سيدى ..

ـ وماذا عن النافذة ؟..

ـ انها مغلقة يا سيدى ..

ـ اذهب وتأكد من أنها مغلقة بالمزلاج ..

وسمع السائق يخطو فى الغرفة .. ثم جاءه صوته ..

ـ نعم يا سيدى .. واذا أصغيت سمعتنى وأنا أفتحها ..

وأنصت هيرمانتييه ، وشعر فى اللحظة التالية بتيار بارد يصادف جبهته ، فأغلق الباب وتنهد . لقد توفر له الدليل أخيرا على أنه انما كان يعارك شبحا .. لم يكن ثمة دخيل الآن فى الغرفة وكانت بالضبط كما غادرها ..

ـ أشكرك يا كليمان .. والآن هل ترى شيئا حولك يلفت النظر .. تلفت جيدا ولا تتعجل ؟ ..

ولم يعبأ هيرمانتييه بما يمكن أن يظنه كليمان وقتئذ ..

ـ ان كل شىء يبدو على ما يرام يا سيدى ..

ـ ألم تكن أنت الذى خرجت بالسيارة ليلة أمس ؟..

ـ كلا يا سيدى ..

ـ انتظر لحظة .. أريد أن أستفسر منك عن شىء آخر .. لقد قلت لى فى اليوم التالى لوصولنا ان ثمة آخرين يحسن بك أن تتهمهم أولا .. هل تذكر ؟..

ـ نعم يا سيدى .. اننى أذكر ذلك ..

www.ibtesama.com/vb

ـ حسنا .. والآن أريد منك أن تفصح لى عن مقصدك وأنت تتحدث بهذه العبارة .. تستطيع أن تتكلم بحرية مطلقة .. ولن يغضبنى منك شيء ..

ـ لم أكن أعنى شيئا يا سيدى .. كنت حاد الطبع فى ذلك الوقت وتكلمت بغير تدبير ..

ـ هل أنت متأكد من ذلك ؟..

ـ تماما يا سيدى ..

كان الطريق أيضا من هذا الاتجاه مسدودا ، لقد اتخذوا كل احتياط .. انتشرت الكلمة : يجب ألا تقولوا شيئا يزعج المريض لو بدا يلقى بأسئلته .. راوغوه ..

ـ هذا كل ما هنالك يا كليمان .. أشكرك ..

وذهب السائق ، يخطو بهدوء ، احتياط آخر ولا شك .. لكم هو مفزع محير كل هذا .. بحث هيرمانتييه عن سجائره وأخرج واحدة أشعلها وأطلق من فمه سحابة دخان .. انها سيجارة أخرى من تلك السجائر الفرجينية اللعينة .. لقد ظلت كريستيان عدة أيام تصر على شراء السجائر الامريكية بدعوى أن السجائر الأخرى تجعله يسعل .. ان هذا أمر لا يمكن أن يعقله.. فهم من ناحية يكدون أذهانهم كذبا عليه من أجل اظهار عطفهم ولطفهم ، وهم من جهة أخرى يتجاوزون عن عشرات الاشياء التى تجعل حياته عبئا ينوء به كاهله ..

وشيئا فشيئا بدد هواء الصباح المنعش الرطب ما داخله من كآبة .. لم يعد الآن خائفا ، بل لم يكن خائفا فى الحق من قبل .. وذهنه الآن صاف قوى كالعهد به .. سيظل يلعب دوره حتى النهاية . دور الرجل الأعمى الذى لا يعرف بالضبط من يتبع أو عمن يبحث ..

وكان ثمة شعاع من ضوء الشمس قد سقط على الحوض .. انه يحسه كلما مد يده ليتناول شيئا من فوق الرف الزجاجى ..

www.ibtesama.com/vb

لاشك أن اليوم سيكون أيضا حارا شديد الحرارة .. وسمع صوت أقدام . لا شك أنه هيوبير يرتدى حذاء الخروج . وسمع صوت شيش يرتطم بالجدار . نافذة تفتح . كريستيان قد نهضت اذن . وفى المطبخ سمع صوت البن يطحن .. ماكسيم وحده الذى لم يستيقظ على مايبدو .. فكر هيرمانتييه أن يقرع بابه .. لعله يستطيع أن يستفسر منه عما كان يفعل بالسيارة .. أن ماكسيم يسلم بالأشياء أكثر من اللازم ، وهو سريع الى انتهاز الفرص .. هذا الشيك الذى وقعه له بخمسة وثلاثين ألف فرنك .. كان من الممكن أن يجعله ماكسيم بمائة ألف فرنك ..

يا للسماء ! أمسك هيرمانتييه طرف الحوض بيديه ليحتفظ بثباته وتوازنه ، هذه الكلمات التى اخترقت ذهنه فجأة دون داع ! شعر بأن وجهه يشحب من جراء خاطره .. ذلك الخاطر عن الشيك والمائة الف فرنك .. لم يستطع أن يتخلص منه .. وفغر فاه وهو ينحنى على الحوض والشك يكبر فى ذهنه.. لا . مستحيل أن ماكسيم لا يستطيع .. بالعكس انه يستطيع ذلك تماما ، مثلما استطاع تلك الخدع الكثيرة التى راحت تتزاحم فى ذاكرة هيرمانتييه لعلها لم تكن موضع مؤاخذة خطيرة ، ولعلها لم تفقد ماكسيم سحره .. لكنها كانت خدعا برغم ذلك .. كانت شهية ماكسيم مفتوحة للحياة بشكل كبير ، لا يجعله يرفض شيئا يتيح له متعة فيها ..

وخلع هيرمانتييه فانلته ، وبدأ يغتسل ، ألا يريد أن ينتهى ؟ ألم يكن فى مقدور كريستيان أو هيوبير أن يشتما شيئا لو أن ماكسيم أراد أن يلعب لعبة ما . كريستيان على وجه أخص لا يمكن أن يفوتها شىء فيما يتعلق بالمال ! . الا اذا كان هناك آخرون يحسن به أن يتهمهم أولا .. ان كليمان كثيرا ما يكون فى لاروشيل ولن يفوته ما يقال فى البارات أو فى الكازينو هناك .. فماكسيم معروف لرواد هذه الأماكن على طول الساحل ..

تناول هيرمانتييه بعض الماء ، وتذكر أخاه ، وهو يشرب من نفس هذه الكوب ليبتلع أقراص الاسبيرين ، وشعر بتقزز اذ يتهم أخاه على هذا النحو ـ دون دليل ـ دون ظل من دليل ..

www.ibtesama.com/vb

وقال هيرمانتييه لنفسه : اذن لقد صفرت الى هذه الدرجة واصبحت أشك فى كل شيء وفى كل انسان لمجرد اننى لا أراهم .. هل من العجب اذن ان يكذبوا على ؟ انهم محقون فى ذلك كل الحق .. فان الحقيقة لا يمكن أن تقال لرجل مريض ..

لكن ، حتى فى الوقت الذى جرت فيه هذه الكلمات فى ذهنه كانت ثمة فكرة أخرى تلاحقها ، هل ثمة سبب حقيقى يحول دون أن يزيد ماكسيم على المائة الف .. لماذا لا يكتب مائتين ، أو ثلاثمائة الف ؟ وهذه اللهجة التى كان يبتدره بها ملاطفا مداعبا .. هذا أمر مفهوم كذلك .. أليس من الطبيعى أن يحتفر المهزوم ويخدعه .. ثم يسلبه ؟..

كانت كل كلمة وكل صورة تتوالى على ذهنه تعذبه . وجرع كوبا آخر من الماء وعالج تثبيت رباط عنقه بغير احكام . ثم ارتدى سترته ومس عقربى المنبه وهو يمر بجواره . كانت الساعة الثامنة والربع . لا شك أن كريستيان قد ارتدت ثيابها الآن .

مضى فى الممر بعد الأبواب ، ثم وقف على بابها وقال :

ـ هل أستطيع الدخول ؟

ففتحت له بنفسها ومر بيده أمام وجهه برفق كأنما ليساعده ذلك على تصورها أمامه . لكنه لم يستطع أن يتصورها . كل ما تناهى اليه منها هو عطرها الفاخر . كانت تقف هناك ـ شبح امرأة احبها فى الماضى كثيرا . وكان يقف أمامها وقد مد يده كالمتسول .

ـ حسنا .. ماذا هناك ؟

ـ هل أستطيع أن اتحدث اليك ؟

ـ يا له من سؤال يا عزيزى ريشار .. انك تبدو كمن جاء فى زيارة رسمية .

بالضبط . هذا بالضبط ما يشعر به . دخل ووقف بجوار الباب . خوفا من المقاعد والعثرات .

ـ سارتدى الروب حالا .

www.ibtesama.com/vb

اذن هى لم تفرغ من ارتداء ملابسها بعد . حاول أن يتصورها وهى فى ملابسها الداخلية . وكان من العسير أن يصدق ان هذه امرأته . نفس المرأة التى وضعت يدها فى يده وهما يتزوجان فى مذبح الكنيسة . وأخذ وجهه يذهب فى شتى الاتجاهات بالرغم منه وهو يتشمم الروائح التى أهلت عليه من مائدة التزين ومن الفراش . وداخله شعور بالذنب ، كأنما قد دهمته رغبة وحشية ، وأحس بأنه يريد أن يخفى وجهه .

ـ ها أنذا مصغية اليك .

قالت كريستيان ذلك بينما بدت مشغولة بمساحيق الوجه أمام مائدة التزين .

ـ أريد أن أحدثك فى شأن ماكسيم . هل تعتقدين انه يحمل معه كثيرا من المال هذه الأيام ؟

وسمع هيرمانتييه صوت الروب الذى ترتديه يحف بالسجادة ، وكان الصوت مفعما بالاغراء .

ـ اننى لم الاحظ شيئا . لكنك تعلم بالضبط ماذا اعطيته أنت ؟

ـ لقد وقعت له شيكا . وهو الذى ملأه .

ـ أوه .. اذن فأنت تعتقد ..

ـ انه مقامر . واننى متأكد من أنه ذهب الى الكازينو . وموقن أيضا من أنه خسر

ـ أستطيع أن أستفسر عن ذلك بسهولة .

ـ أشكرك يا كريستيان . سأكون مدينا لك لو فعلت . ربما أكون مخطئا ، ولكننى لن أستطيع أن أتخلص من هذه الفكرة حتى أستيقن منها على الوجه الاكمل .. اننى أخشى أن أكون قد مددت له حبل الأمل . يجب أن أضبط أمره . فثمة أشياء لا أحبها . انه يستخدم هذا المكان بحرية مطلقة ، كأنما هو فى فندق ، واذا أراد

www.ibtesama.com/vb

السيارة أخذها بغير استئذان .. اننى أنوى أن أحادثه حالا فى هذا الموضوع .

ـ كـلا ..

ـ ماذا ؟ الا توافقيننى على ذلك ؟

ـ ليس الأمر كذلك . اجلس يا ريشار

وتناولت ذراعه وقادته الى مقعد . وداخله مرة أخرى الاعتقاد بأن هذه امرأته ، وأن هذه غرفته مفتوحة أمامه لأن هذا حقه . وفى الوقت نفسه داخله الشعور بأنه على وشك أن يحطمها . فجلس فى مكانه متوترا متحفزا . وسمعها تقول :

ـ ان ماكسيم ليس هنا . لقد ذهب . ذهب الليلة الماضية

ـ أعلم أنه خرج . لكنه عاد .

ـ كلا . لقد ذهب الى الابد !

فصاح هيرمانتييه والقلق ينهشه :

ـ اسمعى ! لقد نلت الكفاية من كل هذه الغوامض والأسرار .

فقالت بحزن :

ـ ليس ثمة سر فى ذلك . ان ما كنت أخشاه حدث بالفعل ليلة أمس . لقد توجه الى المطبخ لسبب أو لآخر فنشب شجار بينه وبين كليمان . وعندما وصلنا اليهما أنا وهيوبير ، كانا على وشك الالتحام . لقد كان مشهدهما يثير الاشمئزاز . وأراد كليمان أن تنزل اليهما . لكننى بالطبع لم أتحمل فكرة ايقاظك .. فضلا عن أن هذا لم يكن له داع . وقد أدرك ماكسيم موقفه ، وانه مخطىء وفضل أن يرحل على الفور دون أى نقاش آخر . يا للوقت العصيب الذى عشناه . مارسيلين فى جانب تبكى مر البكاء . وكليمان فى جانب آخر يهدد بالرحيل أيضا . وقد بذلت جهدا كبيرا فى اقناعه بالتعقل . وفى النهاية أخذ هيوبير ماكسيم فى السيارة الى لاروشيل حتى يستطيع أن يستقل أول قطار فى الصباح . والواقع أنه كان معه ...

www.ibtesama.com/vb

ـ كان يجب أن تدعونى !

ـ لم يكن وجودك ليساعد على وضع الأمور فى نصابها . لقد كانا مثل خصمين يتناحران . لقد كان الأفضل لك أن ..

ـ هل كانت الفكرة فكرة ماكسيم ؟ أعنى ذهابه ؟

ـ ليس بالضبط . لقد قلت له ذلك . بطريقة لطيفة بالطبع . وقلت له اننى آمل أن يعود بعد ما تكون النفوس قد هدأت .. أما الآن .. خلو من أجل خاطرك ..

ـ وماذا قال فى ذلك ؟

ـ لم يقل شيئا . لم يحتج . ذهب وحزم أمتعته بينما كان هيوبير يحضر السيارة . وقد تحدثت اليه قبل رحيله فاعتذر بأنه كان محتدا طاش صوابه . وطلب منى أن أعتذر لك أيضا .

ـ وهل هذا هو كل شىء ؟

ـ نعم .

ـ هل تعتقدين أنه كان يعنى ما قال بالفعل ؟

ـ أنا متأكدة من ذلك

ـ وأين أنزله هيوبير ؟

ـ فى فندق الجزيرتين . اذ كان ثمة عاصفة مخيفة فى لاروشيس

ـ هل استفسرت منه عما اذا كان معه ما يكفيه من مال ؟

ـ لم أفكر فى الأمر . فقد تتابعت الأحداث بسرعة . ويجب أن أعترف لك أن اهتمامى الأكبر كان منصبا على ابعاده عن المنزل .

ـ ومتى عاد هيوبير ؟

ـ مع الواحدة .. لماذا ؟ .

وتردد هيرمانتييه . هل يعترف بأنه سمع صوت السيارة ؟ وبأنها ، بدلا من أن تذهب وتعود ، فعلت العكس تماما ؟! نعم .. جاءت ثم ذهبت . ليس ثمة سبيل لانكار ذلك . لكنه لن يكسب شيئا من التفوه بهذا الأمر .

وغمغم هيرمانتييه :

ـ مسكين ماكسيم . اننى لم أكف عن الرثاء له طول الوقت .

www.ibtesama.com/vb

ـ انك لن تعود الى مساندته الآن ؟ أليس كذلك ؟ منذ لحظة فقط كنت مستعدا لأن تصدق أسوأ ما يمكن أن يقال عنه . اننى لم أعد أستطيع أن أفهمك .

ـ هل كان يبدو عليه التعب ؟

ـ انه بالطبع لم يكن يبدو فى أفضل حال . أنت تعلم الحياة التى يحياها ، فماذا تتوقع غير ذلك ؟

ـ لعله كان من واجبنا أن نعنى بشئونه أكثر مما فعلنا . انه رجل مريض . والواقع أنه فى محنة أجدر بالرثاء من محنتى . اننى أريد أن أطلب منك شيئا يا كريستيان . لكن يجب أن تعديني بأنك لن تتضايقى .. اجعلى هيوبير يقودك بالسيارة الـ ...

ـ الى لاروشيل .

ـ نعم الى لاروشيل . لست أعتقد أن القطار الذاهب الى ليون قد قام بعد . اعثرى على ماكسيم واعيديه هنا !

ـ لكن يا ريشار ! انك لا تدرك أن ..

ـ اننى أدرك أنه فى حاجة الى معونة ، واننى أنا الوحيد الذى يمكن أن أسدى اليه هذه المعونة . اننى أريده أن يعلم ان بيتى مفتوح دائما له ، واننى لن أدير له ظهرى مهما حدث .

ـ انك ستضعنى بذلك فى موقف خاطىء .

ـ لا .. البتة .

ـ وماذا يكون الحال اذا عاد ؟ ان هذا مستحيل . فان كليمان سيرحل على الأرجح .

ـ فليرحل ! اذا كان الخيار بين اخى وبين سائقى ...

ووقف هيرمانتييه . كان قد بدأ يغضب . واتخذ فمه سمة الجمود . لقد ظن لوهلة أن حريته المنزلية قد انتهت . يا للفكرة ! انها لم تنته ـ انها أبعد من أن تنتهى . ويجب ألا يلين .

ـ يجب أن تطيعيننى .. قولى لماكسيم أن يعود .. قولى له أننى أصر على ذلك .. أما عن كليمان ، فاننى سأتولى أمره .

كان هـذا الصوت هو الذى خلق له أعداءه من قبل .. فكان يتوقع من زوجته الرفض أو الاحتجاج على الأقل . لكم تمقته فى

www.ibtesama.com/vb

لحظات كهذه ! انه حتى هو نفسه لم يكن راضيا عن حاله . لكنه على أية حال لن يتراجع .

تقدم صوب الباب ثم تحول قائلا :

ـ ان ماكسيم لم يتعد طور الطفولة . وحتى ان كان قد غشني في بعض مالي . فانني أستطيع أن أتحمل ذلك .

لم يبدر من كريستيان أى صوت . من الممكن أن تكون قد غادرت الغرفة . فخرج واتخذ طريقه أسفل الدرج . وكان هيوبير يتناول الافطار فى الشرفة . فقفز على عجل .

ـ صباح الخير يا ريشار . هل قضيت ليلة طيبة ؟

ـ يعنى !.. لا تقم . ان كريستيان كانت تحدثنى فى شأن ماكسيم .

ـ الآن .. لقد قالت لك اذن ...

ـ اننى أريد اعادته على الفور .. ولست أشك فى انه اخطأ بمشاجرته مع كليمان . لكننى لا أستطيع أن أتصور ذهابه الى ليون . انه سيسقط مريضا للتو . وليس ثمة وقت نضيعه . اننى أريد منك أن تأخذ كريستيان فى السيارة الى لاروشيل ، وأن تضعا أيديكما على ماكسيم وتعيداه هنا سواء رضى أو كره .

ـ هذه فكرة طيبة . اننى أؤيدها . ويجب أن أعترف اننى شعرت بالرثاء لماكسيم وأنا أراه هكذا يطرد كخادم من الخدم .

وأنصت هيرمانتييه وحواسه مرهفة . كان ثمة شيء غريب يبدو فى الطريقة التى يتحدث بها هيوبير . ما هذا الشيء ؟! لا شك أنه مرتاح . ربما أكثر من اللازم . كشخص يستعيد هدوءه بعد فزع مفاجيء .

ـ أخبرنى بالضبط يا هيوبير عما حدث بالأمس .

قالها هيرمانتييه فى لهجة عادية جاهد لتبدو عفوية .

ـ ليس هناك كثير يمكن قوله . كنا قد انتهينا من اللعب وفى طريقنا الى الفراش . فقال ماكسيم انه يشعر بالظمأ ، وذهب ليحضر زجاجة من الجعة . ولابد أنه صادف مارسيلين وحدها وبدأ يغازلها

www.ibtesama.com/vb

.. وفجأة جاء كليمان . وسمعنا ـ صوتيهما يعلوان ـ أنا وكريستيان . وعندما وصلنا اليهما كانا على وشك التضارب .

وبدأ هيرمانتييه يتناول افطاره ، وهو يحاول أن يتصور الحادث . ماكسيم قد التفت ذراعاه حول مارسيلين ـ وربما يكون ذلك بقدر يكفى لاثارة كليمان . لكن لماذا أراد أن يعجل بشجار ؟

ـ ألم يحتج عندما قالت له كريستيان أن من الأفضل أن يذهب ؟ .

ـ كلا .

كان هذا هو الأمر الغريب فى الموضوع

ـ سأذهب لأخبر كليمان باعداد السيارة

قال هيوبير ذلك فاستوقفه هيرمانتييه قائلا :

ـ يستطيع هو أن يخرج السيارة ، لكنك أنت الذى ستعود بكريستيان وماكسيم . فلو رأى ماكسيم كليمان لفسد كل شىء .

ـ بالطبع ، بالطبع . يا له من غباء منى ..

لم يبد قوله هذا أيضا طبيعيا . وشم هيرمانتييه على الفور رائحة « الروبسوس » بعد أن أخرج هيوبير علبته ، كما يفعل دائما فى لحظات اضطرابه . ثم سمعه يتمم حديثه قائلا :

ـ من الأفضل أن نذهب على الفور كما قلت .. وآمل أنه لن يمضى وقت طويل حتى نعود بالابن الضال الى البيت مرة أخرى ..

جوفاء . هذه النبرة كلها جوفاء . لكن هيرمانتييه تظاهر بأنه لم يلحظ شيئا . واغتصب ابتسامة وسمع وقع خطوات كريستيان فى الردهة .

ـ اذهب الآن . كلما أسرعت كلما كان ذلك أفضل .

وتوقف عن الأكل ليستطيع أن ينصت جيدا . وسمع صوت السيارة وهى تبتعد . نفس الصوت الذى سمعه فى الليل . لا ، من المستحيل أن يخلط بين قدومها وذهابها . والتقط شطيرة من الخبز وبعض الزبد . لم تكن الزبد جيدة . لم يكن فيها ملح كاف . أم هل الخطأ خطؤه أيضا . هل يمكن أن تخدعه حاسة الذوق كذلك ؟

www.ibtesama.com/vb

ـ هل انتهى سيدى من افطاره ؟
ـ تقريبا . تستطيعين أن ترفعى الصحاف .. لكن أخبرينى يا مارسيلين .. أين كليمان ؟ .
ـ انه فى الحديقة يرشها .
ـ أشكرك .

دفع هيرمانتييه مقعده الى الوراء . ما جدوى أن يستفسر من هذه الفتاة ؟ انها ستكذب ، لتبرىء نفسها مما حدث . أو لعلها بالعكس تثير تفاصيل محرجة ليتضايق فيكف عن سؤالها .. العاهرة ! نزل الى الحديقة . ومضى الى بابها ثم عاد ـ كليث يذهب ويجىء فى قفصه . الراحة ! انهم يسمونها الراحة . وهى أكثر من ذلك بكثير .. انها اجتناب للحياة واعتزال لها تماما . كأنما هو محبوس فى دير . هذا هو التعبير المضبوط . هل هو محق فى أن يمضى فى الحياة على هذا النحو . ليست هذه أول مرة يوجه الى نفسه هذا السؤال . لكن ثمة شعور بالمرارة واحساس بالكرب يمنعه من الاجابة . هذا الاحساس لم يفارقه منذ زار الشاطىء .

انه الآن يعلم لماذا يريد أن يعود ماكسيم . انه يريده أن ينام فى الغرفة المجاورة . ولن يرفض ماكسيم ذلك . فاذا حدث شىء أثناء الليل فلن يحتاج هيرمانتييه الى أكثر من الخبط على الجدار . انه الآن فقط يدرك أن غرف النوم الأخرى متباعدة تماما عن غرفته . انه معزول كأى مجذوم . لماذا ؟ هذا سؤال آخر من الأسئلة الحقيقية . ذلك انه يستطيع أيضا أن يسأل : ولم لا ؟

ـ هل أنت هناك يا كليمان ؟
ـ نعم يا سيدى . هل سمعتنى وأنا أرش الأرض بالخرطوم ؟

يبدو أنه لا يصادف كليمان الا ويجده يبعثر الماء هكذا .

ـ تعال الى هنا يا كليمان .

وسمع صوت حذائه . وشم رائحة عرق وثياب مبتلة ، فابتدره :

ـ لقد علمت بما حدث ليلة أمس
ـ آه !

www.ibtesama.com/vb

هذه النبرة مرة أخرى .. النبرة التى لا تنم عن ارتياح .

ـ آمل أن تصفح عن أخى .

لم يكن هيرمانتييه قد اعتاد الاعتذار .. فضلا عن أنه لم يشعر حقا بأسف لما فعله ماكسيم ... على أية حال كان يجب على كليمان أن يحتفظ بود الفتاة وعواطفها لو أمكنه ذلك .

ـ يجب ألا تنسى أن أخى رجل مريض . وهذا هو السبب فى أننا سنعيده الى هنا .

ـ ستعيدونه الى هنا ؟!

وفغر كليمان فاه . وبدت فى لهجته التى لا تنم عن التصديق نبرة وقحة .

ـ هذا يدهشك ؟ أليس كذلك ؟

ـ نعم انه .. انه يدهشنى .. بعد الذى حدث ..

ـ حسنا . هذا هو ما سيكون . ويجب أن تفهم تماما أننى لن أتسامح فى نشوب أى شجار آخر

ـ تستطيع أن تستريح الى هذا يا سيدى .

هذه العبارة أيضا رنت جوفاء .. كان كليمان يلعب دورا على ما يبدو ، بل ودورا يلذ له أيضا .

ـ حسنا . الزم كلمتك . هذا هو كل ما عندى .

قال هذه العبارات باقتضاب ، فرد عليه كليمان

ـ حسنا يا سيدى .

هذا الصوت ! انه يحاول به أن يوفق بينهما لكنه لا يستطيع أن يخفى رنة غبطة واضحة فيه . يا له من فاسد ! لا شك أنه كان يسره أن يسدد الى ماكسيم ضربة فى فكه ، لأنها عندئذ انما تكون مسددة الى هيرمانتييه نفسه . لكنه ـ هيرمانتييه ـ لم يكن فى حاجة الى أن يحبه أحد ـ لا من مرءوسيه ولا من أى مخلوق كان ـ ومن ثم هز كتفيه مستخفا ومضى صوب باب الحديقة . وكانت الزهور قد انتشر شذاها والهواء مفعم بطنين الحشرات . لا شك أن شجرة الخوخ قد تملقتها الذنابير .. أمسك بقضبان الباب ، التى كانت ساخنة كأعمدة محماة . وأخذ يتلهى لحظات بفكرة الخروج

www.ibtesama.com/vb

والسير الى القرية . لكنه لم يجرؤ . بسبب كليمان ، الذى لا شك يقف ويرقبه ، وهو يبتسم .

لا بأس . الفكرة جذابة على العموم . مجرد أن يسير ويخلف وراءه البيت والأسرة وهذا الخوف المدمر ، الذى يعلم تماما انه سيطارده ليلة بعد أخرى . هل هى غلطته أن يصبح هكذا جبانا ؟!

عاد ادراجه . من حسن حظه أن لديه ماكسيم . واعتراه شعور بنفاد الصبر اكتسحته اكتساحا لغير سبب .. لكم يتوق ان يرى ماكسيم مرة أخرى . لا بأس ان كان قد انتزع منه قدرا من المال . مجرد وجوده فى البيت سيكون مبعث راحة له . ما دام ماكسيم هنا فلن يحدث أى شىء مخيف .

عاد هيرمانتييه الى الشرفة ودق الجرس لمارسيلين .

ـ أريدك أن تعدى الغرفة التى تقع بجوار غرفة نومى . لأن أخى سينام فيها من الآن فصاعدا .

ماذا حدث ؟! هل قال شيئا غريبا غير عادى ؟ لماذا لم تجبه ؟ لماذا لم تتحرك ؟ كان يعى تماما وجودها أمامه وقد سكنت كالحجر .

ـ ألم تسمعى ما قلت يا مارسيلين ؟ .

ـ أجل يا سيدى .

بدت كأنها تغتصب الكلمات اغتصابا . وكان صوتها يرتعد .

ـ الغرفة المجاورة لغرفتى . سأستطيع بذلك أن أحسن رقابتى عليه . فيخطر الى الحذر فى خطوه .

ـ نعم يا سيدى .

ـ ماذا حدث ؟ . هل تبكين يا مارسيلين ؟ . مارسيلين ! . تعالى هنا !..

لكنها كانت قد لاذت بالفرار وسمعها فصعد الدرج بهرولة . اذن فهى تحب ماكسيم ! لعله قسا فى الحكم عليها . قام من مكانه وصعد بدوره ، وفى أعقابه رائحة الأزهار والورود ـ انتشرت على السلم . وعندما دخل غرفته جذب مقعده الى النافذة واشعل سيجارة . وسرح بفكره لحظة ، ثم غمره التعب من جراء ليلته التى

www.ibtesama.com/vb

قضاها بلا نوم فثقل جفناه . وما لبث أن تفتحت عيناه على أحلام نومه . فلم يسمع صوت السيارة وهى تعود . ولم يسمع الهمس الذى دار الى أسفل الدرج . ولم يسمع كذلك صوت الأقدام التى شرعت تصعد الدرج .. كانت كريستيان قد عادت وأخذت تقرع بابه عدة مرات . وأخيرا تلاشت أحلامه وصحا .. وكان رأسه ثقيلا .. وذهنه قد حط عليه شيء كالضباب فلم يعرف أين هو بالضبط الا بعد لحظات .

ـ هذه أنا .. كريستيان .

قفز مرتاعا .

ـ تعالى .. ادخلى .. يالله .. أين هو ؟ .

لكنه كان قد أدرك الموقف حتى وهو يتساءل .. فجلس متثاقلا .

ـ لقد وصلنا متأخرين . كان قد سافر بالفعل .

ـ هل أخذ القطار ؟

ـ نعم .. ولكن ليس لليون . لا بد أنه استقل قطار باريس . على أية حال أبرق هيوبير اليه على عنوانه فى ليون ، على فرض أنه ذهب هناك . وقد بعث البرقية باسمك . وها هى ذى صيغتها : كل شيء على ما يرام . عد . المحب ريشار .

ـ هيوبير ؟ لم أكن أعهد فيه أن يقوم بمثل هذا العمل الذى ينم عن ذكاء . حسنا . ليس ثمة ما نستطيع أن نفعله الآن سوى أن ننتظر . ولنأمل أن يكون هذا الأحمق على درجة من التعقل تجعله ..

ـ بالضبط . وحتى يحين ذلك الوقت عليك أن تبعد هذا الأمر من ذهنك تماما . فاننى أعلم انك ستقلق نفسك بسببه أكثر مما ينبغى .

وتوقفت بعد أن قاطعته على هذا النحو ، ثم استطردت :

ـ هل تعلم من قابلت اليوم فى لاروشيل ؟ آل بيليم !

ـ لا يهمنى أمرهم ! .

ـ حقا يا ريشار ! مع أنهم أبدوا كل الاهتمام بالسؤال عنك .. انهم سيحضرون لزيارتنا غدا ..

www.ibtesama.com/vb

ـ هنا ؟

ـ لقد قلت لهم على أية حال أنك لا تود مقابلة أحد ، وانك ستبقى ملازما غرفتك على الأرجح .

ـ بالتأكيد .. اننى لا أستطيع أن احتمل وجودهم . ولا حتى فى الأيام الماضية .. والآن ..

ـ لكننى لم أستطع أن أكون وقحة معهم . فاضطررت الى أن أقول لهم انه يسرنى بالغ السرور حضورهم . أما أنت فيجب ألا يشغلك هذا .. فسأقوم بالاعتذارات اللازمة .

ـ الحق أنك تحرصين أنت نفسك على ألا أقابل أحدا ؟!

ـ ريشار !

ـ فانهم قد يفزعون مما يشاهدون ! أليس كذلك ؟

ـ لا أود أن تتحدث هكذا يا ريشار .

ـ حسنا .. اننى كنت امزح فقط . لكن ما الذى يجعلهم يحرصون على القدوم هكذا ويقطعون كل هذا الطريق الى هنا ؟

ـ اعتقد أنهم يريدون أن يتحققوا مما فعله أجوستينى فى البيت . فان بيتهم يحتاج بدوره الى اصلاح . وهم لا يعرفون احدا يقصدونه لذلك . وأعتقد أنهم قد جمعوا شيئا من المال .. فقد ابتاعوا ميلين آخرين من الارض فى روبيه . ولديهم سيارة باكار فاخرة .

ـ لن استطيع أن احبهم حتى ولو ملكوا نصف دستة من هذه السيارات !

ـ انك اذن مصمم على أن تسلك ازاءهم سلوكا غير مقبول .. يجب ان انزل الآن .

وخرجت من الغرفة وأغلق هيرمانتييه الباب وراءها . كما لو كان المعتدون قد حاصروا غرفته بالفعل ! آل بيليم ! مجرد معارف .. اناس يجيئون الى روشيل كل عام لقضاء اجازة الصيف . الرجل ربعة قد أمحت حواجبه وبرزت له بدل الذقن ثلاثة ذقون ! والمرأة سمراء .. جافة .. ثرثارة . أسنانها مطعمة بالذهب كقارئة البخت !

www.ibtesama.com/vb

وركل هيرمانتييه مقعداً اعترض طريقه . لو بدأ الناس يتوافدون على البيت للزيارة ، لرحل بدوره . لذهب وانضم الى ماكسيم فى أى مكان . ولمضيا معا .. لا يهمه الى أين . هو وحده مع ماكسيم ! لكن المسألة الوحيدة الباقية هى هل يرضى ماكسيم بصحبته ؟!

- ٨ -

قال هيرمانتييه لهيربير :

ـ كل شىء قد تم اذن .. عليك أن تبدأ من الغد فترسل فى استدعاء وكلائنا فى اسبانيا والبرتغال . لقد كنت أفكر فى الموضوع ليلة أمس واقتنعت تماما باننا يجب أن نبدأ بهذين البلدين . فبثمن لايتجاوز تكاليف المصباح سنتمكن من القيام بمبيعات لاحصر لها هناك ، ثم نبدأ بعد ذلك حملة فى سويسرا وايطاليا . اننى أؤمل فى النجاح أعظم الأمل . واعتقد اننا يجب أن نكون قد شرعنا عملياتنا عند أول اكتوبر .. لكن يجب أن نتباطأ فى شىء يا هيوبير . اننا اما أن نكسب كل شىء أو أن نضيع كل شىء .. والكارتل تقف لنا بالمرصاد تريد أن تجعلنا ننكفىء على وجوهنا لو أتيح لها ولو نصف فرصة .. والآن متى ستذهب ؟ .

ـ الساعة الآن الثامنة والربع . مازال فى الوقت متسع .

ـ متسع ؟ ! ان أمامك ساعة واحدة بالضبط . واذا لم تكن كريستيان مستعدة فى خلال عشرة دقائق فيجب أن تذهب بدونها . يجب الا يفوتك هذا القطار . أما هى فتستطيع أن تأخذ السيارة بعد ذلك لتذهب الى السوق كما تريد .

ـ لا أظن أننى شاهدتك من قبل مرهف الأعصاب هكذا . اهدأ يا هيرمانتييه . اننى أعدك بأننى لن أدع الأمور تفلت منى .

ـ لا تنس أن تراسلنى بانتظام . لا تتصور أن هناك تفصيلات لا اعبأ بها . أريد أن أعلم كل شىء . ثم يجب الا تنسى أيضا ماكسيم ، ابرق الى الليلة اذا عثرت عليه فى ليون .

ـ سأفعل ذلك بالطبع ، لكنك تعلم تماما انه ليس ثمة أمل

www.ibtesama.com/vb

فى لقائه . كان يستطيع أن يكتب الينا اذا شاء . لقد مرت ثلاثة أيام منذ بعثت اليه بتلك البرقية .

ـ نعم نعم .. اننى أعلم ذلك ، لكن اذا لم يكن هناك فى ليون فأين يمكن أن يكون اذن ! .

وشرع هيرمانتيه يده واخذ يتحسس ما أمامه حتى عثر على قرصى الاسبرين فابتلعهما مع رشفة من القهوة .. واستطرد :

ـ أين يمكن أن يكون؟ أتعلم ما أخشاه بالضبط أن يكون المرض قد ثقل عليه بشكل يمنعه من الكتابة . أنه مجرد شعور ، قد يكون شعورا سخيفا غير معقول ، لكنه يملا نفسى.

ـ يجب ألا تبدو هكذا نافد الصبر يا هيرمانتييه .. سيكون الوقت متأخرا تماما عند وصولى الليلة فلن استطيع أن افعل شيئا . لكننى سأستفسر عنه فى الصباح ، واننى موقن من أننى سأستدل على شىء . وأنا شخصيا أعتقد أنه عاد الى خليلته الممثلة.

ـ كم الساعة الآن ؟

ـ الثامنة والثلث .

ـ يحسن أن تذهب اذن .. لا تنتظرها .. أين كليمان ؟ .

ـ فى الجاراج . السيارة معدة تماما . وحقائبى موضوعة فيها . ليس ثمة مايستوجب قلقك . اننى لا أحب أن أراك هكذا .

ـ لا بأس .. انه مجرد صداع .

كان يجب ألا يقول ذلك . فقد شعر بهيوبير عند الطرف الآخر من المائدة يتفحصه بامعان ..

ـ هل كثيرا ما ينتابك هذا الصداع ؟ .

ـ انه الحر فى الواقع .. الحر يصيبنى باعياء .

ـ نفس الشىء . لو كنت مكانك لاستدعيت ميرودى . لقد كان يشرف عليك جيدا وقت اصابتك فى الحادث . وتستطيع كريسمان أن تدبر أمر حضوره هذا الصباح .

ـ لا أريد أن أقابل أحدا . ولا حتى ميرودى .

ـ الحقيقة أن هذا بالضبط ما شغلنى . لماذا لا تقابل الناس ؟

www.ibtesama.com/vb

لقد أصبحت ناسكا مثاليا أتذكر كيف رفضت مقابلة آل بيليم ؟ ان هذا لا يفيدك فى شىء .

وقام هيرمانتييه دون أن يحير جوابا وأشعل سيجارة . كان يدخن الآن كثيرا .. أكثر مما ينبغى . وكان لسانه يلذعه وفمه من المذاق دائما . ومد يده الى الدورق الزجاجى فأسرع هيوبير وصب له كوبا من الماء وأخذ يراقبه وهو يشرب .

ـ فلتهدأ الآن . سأعود فى خلال شهر وأتوقع أن أجدك عندئذ قد استعدت طبيعتك .

ـ مرة أخرى ـ استطاع هيرمانتييه أن يلحظ هذه النبرة ـ نبرة تنم عن عدم اخلاص فى هذا القول . كانت الكلمات أشبه بما يلقيه الزوار فى آذان شخص عاجز لزم فراشه ولا جدوى من شفائه .

ـ لا تشغل نفسك بأمرى . واذا حدث خطأ ما فى المصنع فلا تتردد فى الاتصال بى . سأحضر فى لحظة . والآن سأرافقك الى السيارة .

كانت الريح قد اشتدت . ريح جنوبية حارة خانقة . فغمغم هيرمانتييه فى ضيق وهو يمسح العرق عن جبينه وعنقه .

ـ هذا الحر اللعين ..

وبدا وجهه محمرا وداخلته رغبة عارمة فى أن يحك ندوبه حول جفنيه . ولم يحتج عندما تناول هيوبير ذراعه وقاده نحو الجاراج ، وهو يقول بيقين غير معهود .

ـ يجب أن تكون لك ثقة بى اذا أردت أن تسير أمورك على ما يرام ـ والا فستحرق نفسك من القلق . اننى أعدك بأن أشرف على كل شىء وكل ماعليك أن تجلس متراخيا وتستمتع بفراغك . انك تحب هذا المكان . أليس كذلك ؟

كان هيرمانتييه على وشك أن ينفى ذلك .. لكنه فضل أن يلزم الصمت فى آخر لحظة . لو قال لا لكان صادقا . انه لايحب هذا المكان . انه لايشعر بالسعادة . كل يوم يمر يزيد من وحشته الليون . انه هنا يختنق ببطء ـ ليس من الحر وحده .. انه

www.ibtesama.com/vb

لا يستطيع أن يوضح ذلك ، لهيوبير على وجه أخص .
ووصلا الى السيارة .
ـ آه .. ها هى ذى كريستيان .. الى اللقاء يا هيرمانتييه .. كن دائما مرفوع الرأس .

وصافح هيرمانتييه شريكه بينما كانت كريستيان تتخذ مقعدها فى السيارة وتقول من النافذة .
ـ هل تريد شيئا ؟
ـ لا .. اذهبا .. الوقت متأخر .

وسمع هيرمانتييه صوت تحرك السيارة وابتعادها .. وأنصت هنا بأمعان مرة أخرى . ليس ثمة محل لخطأ . وأغلق باب الحديقة وهو يهز كتفيه ، واستغرق منه ذلك بعض الوقت . ثم مسح وجهه بمنديل وأشعل سيجارة أخرى .
كان أمامه يوم طويل ـ ساعات بطولها خالية الا من التأمل وامعان النظر ـ همومه التى لا يستطيع أن يشرك فيها أحدا . لايوجد الآن أحد ولا ماكسيم يحادثه . آه لو عاد ماكسيم ؟ ! لكن أيعود حقا ؟ انه حساس ، وقد اخرج من المنزل صباحا بغير حفاوة . لقد أصبحت فكرة العيش بغير ماكسيم عبئا لايحتمل .

لكنه عزى نفسه بأنه كان فى الماضى يستطيع أن يحسن أموره بغير ماكسيم .. فى الماضى نعم .. لكن كل شىء كان مختلفا فى ذلك الوقت .. كان لديه عمله ، ولديه خصومه يواجههم من كل جانب . أما الآن فقد انتهت المعركة .
عاد أدراجه عبر الممر وهو ينحنى الى الأمام كأنما ليصد موجات الريح المشتدة . يجب أن يقابل ماكسيم ! يجب ، وسيسأله على الفور عن هذا الشىء الذى يخافه الجميع . سيسأله ويحمله حملا على اخباره الحقيقة .
نفس التسلط القديم ! كيف يمكنه أن يحول بين هذه الخواطر المتسلطة وبين أن تدور هكذا فى رأسه .. كذبابة ملحة ، نعم هذا حق ، ثمة شىء يخشونه . والا فلم يحيطوه هكذا بتلك المراقبة التى يكاد يلمسها لمسا ؟ انهم يتظاهرون بمعاملته على نفس النحو

www.ibtesama.com/vb

الذى كانوا يعاملونه به من قبل . لكنهم لايفعلون . الجو قد تغير الآن . لاشك أن لوثييه قد حذرهم من شىء مخيف ، فجعلهم يحيون فى قلق دائم ، صاروا بمرور الأيام أقل قدرة على اخفائه . انهم يراعونه لكنهم فى الوقت نفسه يحذرونه . تماما كما هو الحال مع حيوان ضار قد استؤنس ، يخشى فى الوقت نفسه من أن ينقلب الى ضراوته الطبيعية .

لم يكن هيرمانتييه يعتقد أنهم يخشون تحوله الى الجنون ، ولم يكن لديه من مبرر حاسم قاطع لهذا اليقين الذى يداخله ، لكنه كان مجرد الهام .. والمرء الذى يعيش مثله فى ظلمة دائمة ، يضطر الى أن يضع الكثير من ثقته فى الهاماته . لاشك انه مرت به أوقات كان هو نفسه يشعر بأن رأسه قد طارت منه ، أو أن عقله قد ضاع ـ وقت أن تحسس شجرة الخوخ وثمراتها مثلا . لكن هذه الأوقات لم تكن لتطول ، انه قد يرتكب أخطاء ، وقد يقع ضحية التصورات والاوهام ، وقد يفزع من جراء ذلك . لكن هذا كله لايزعزع يقينه من سلامة عقله .

لا . انه شىء آخر غير الجنون . انه يبدو بالضبط كأنهم يتوقعون أن يدهمه فجأة مرض غامض ، جراثيمه تتولد الآن فى هذه اللحظة بين أنسجته . هذا يفسر موالاتهم لأمره ـ كأنهم يحاولون أن يجعلوا أيامه الأخيرة مريحة قدر المستطاع . كل هذه الأكاذيب الصغيرة التى اكتشفها كانت أكاذيب بيضاء ترسل بلا حرج فى غرفة المريض أو قرب فراش الموت .. أكاذيب قد تنطق بها شفاه الراهبات والرهبان .

توقف هيرمانتييه . حاول أن يتصور مايمكن أن يكون عليه هذا المرض وأين يمكن أن يصيبه فى جسمه . كان يشعر بأنه فى تمام الصحة . لكن كان هناك الصداع بالطبع ، وهذا شىء سيىء الدلالة فى حد ذاته . كانت الدماء تتدفق فى رأسه ، كطعنة خنجر فى كل مرة . وفيما عدا ذلك لايوجد شىء . ربما يكون مرضه من هذا النوع الذى لايمكن ادراكه الا فى اللحظة الأخيرة .. كانسداد

www.ibtesama.com/vb

الأوردة . وربما لاتزال هناك شظية من القنبلة اليدوية قد سكنت من جسمه مكانا لايمكن التطرق اليه ـ كمخه مثلا ـ وأصبح تحركها يهدده بشلل تام . ان هذا هو المرض الذى يخافه أكثر من غيره ـ مرض مخيف للضحية ولكل انسان حوله . ولعل هذا المرض قد بدأ ينتابه بالفعل ـ لعل هذه الهلوسة هى أعراضه الأولى !

وضع هيرمانتييه يده على رأسه وشعر بالدم ينبض فيها ، ويتخلل هذه المادة السحرية الثمينة التى تتولد فيها الأحلام والآمال . ربما تدهمه النوبة بغير انذار فيرقد على الأرض فجأة ، كتلة من اللحم لاحول لها ولا قوة . تنفس بصعوبة . هل هذا هو السبب فى أن كريستيان قلما تخرج الآن . كريستيان التى كان لديها دائما مايشغلها من الامور ، والتى كان لديها أيضا مايشغلها عن الناس . هل هذا هو السبب فى أنهم يريدون جميعا منعه من العودة الى العمل . هل هذا هو السبب فى حضور ماكسيم .. ليشهد النهاية ؟ ! لو استطاع فقط أن يعرف ماقاله الوثييه بالضبط . ترى هل أشار الى « الموعد » ؟ فى خلال ستة أشهر . ثلاثة ؟. ربما أقل .

كان الاعياء قد دب فى هيرمانتييه عندما وصل الى الشرفة ، كان يبدو عجوزا متعبا . فتهالك فى كرسيه ، ونادى مارسيلين

ـ نعم يا سيدى .

ـ احضرى لى زجاجة من الكونياك وكأسا .

ـ هل سيبدأ سيدى تناول المشروبات فى هذا الوقت من الصباح ؟

ـ افعلى ما آمرك به !

أراح رأسه على كفه وحاول أن يسترخى . ها هو ذا قد أخذ يعالج اللغز حتى انتهى فى آخر الأمر الى تفسير يوضح كل شىء وشعر بارتياح غامض برغم ما هو فيه من ضعف ووهن . لقد كان يتفاخر دائما بقدرته على أن يفكر فى الأمور الى أن ينتهى بها الى شىء محدد .

www.ibtesama.com/vb

عادت مارسيلين بالشراب وصبت له شيئا منه فى الكوب .

ـ ان هذا خطأ ياسيدى . ان الكحول سيزيد من ظمئك فى هذا الجو الحار

ـ هذا يكفى يامارسيلين .

عادت الى المطبخ ، وتناهى اليه منه صوت غسيل الصحاف . فتناول جرعة ، ثم أخرى . وأحرق الشراب زوره . لا . إن نظريته لاتفسر كل شيء . انها لاتفسر مثلا لماذا ينام وحده تماما فى الجناح الأيسر .أو لعلها تفسر .لو كانت كريستيان قد جاورت غرفته ، ألم يكن من الممكن أن يثير هذا شكوكه ؟ ثم ألم يحضر بعضهم فى غرفته تلك الليلة ليتحقق من أنه نائم . انه موقن من أنه كان ثمة أحد ، وان كان يعجز عن اثبات ذلك . ربما أقلقهم أمره لأنه كان قد أغلق الباب فأرسلوا أحدا عبر النافذة ليستيقن من أنه لم يمت !

أفرغ كأسه فى جوفه ، وسقط ذراعه الى جانبه . لقد كان تواقا الى الحقيقة . أما الآن وقد عرفها فهى تبدو له أسوأ مما كان يمكن تصوره . لم يجرؤ على التحرك . وتفصد العرق الغزير من خديه وجبهته وعنقه . وعلقت ملابسه بجسمه ، وحاش صدره بقشيان غامض . أليس الافضل فى هذه الحالة أن يقتل نفسه . بالتأكيد . الافضل أن ينتحر وهو فى حالته تلك . لكن فليفرض أنه مخطىء . فليفرض أن الفكرة كلها كانت مجرد وهم خدع به نفسه ؟ فليكن مستعدا على أية حال ، وعندما يحضر ماكسيم سيحمله على أن يأتى له ببعض السم . هل يعترض ؟ لن يعترض اذا كانت المسألة تتعلق بشلل ـ لايمكن أن يكون بهذا القدر من القسوة . سيجيبه الى ماطلب بمجرد تصوره راقدا فى الفراش لاحول له ولا قوة ، وربما لسنوات ـ مشهد يصد الجميع وينفرهم .

تحسس الزجاجة ووضعها بين شفتيه ـ خوفا من أن يتساقط منها شيء من الشراب لو حاول أن يفرغه فى الكأس . وعندما وضع الزجاجة تناهى اليه صوت جرس الكنيسة .

كان الجرس يرن فى ايقاع رتيب . فتناول الزجاجة من

www.ibtesama.com/vb

جديد وأخذ يجرع منها ليسكت هذا الصوت . لايمكن أن يكون ثمة جرس يدق ! الساعة لم تتجاوز التاسعة والنصف الا بقليل . ولا تقام صلاة فى التاسعة والنصف فى مثل هذا اليوم .. هذا يعنى ...

أخذ ينصت برغم ارادته . هذا هو الجرس .. جرس واحد تأتيه دقاته مع الريح واضحة ، ثم تتضاءل . لو كان هذا وهما لكان بالحق وهما غريبا . ظل فترة لا يسمع شيئا يحسب الايقاع فى ذهنه مع ذلك . ثم .. ها هو ذا يأتيه من جديد . على نفس الايقاع .

وضع الزجاجة بجواره على أرض الشرفة . وقام بهدوء كأنما يخشى اذا قام بسرعة أنه تفسد حركته هذا الرنين . وتقدم على أطراف أصابعه الى باب الحديقة . كانت ريح الجنوب تهب شديدة الحرارة ، من أفق ربما يكون ملبدا بالعاصفة ـ تزفر بين الأغصان وعند أطراف الشرفة . لكنها لم تكن لتستطيع أن تسكت هذا الجرس العنيد الذى لايكف عن الرنين .. فى ذهنه . لو كان هذا الرنين حقيقيا لـ ...

تحول هيرمانتييه وصاح فجأة بصوت مختلف .

ـ مارسيلين !

ودهش عندما جاءه صوتها قريبا منه ؟

ـ نعم يا سيدى . أنا هنا .

ـ كم الساعة ؟

ـ العاشرة الا عشرين دقيقة .

ـ اذن لماذا يقرع هذا الجرس ؟

ـ أى جرس ؟

ـ تعالى هنا واسمعى .

انه يسمعه الآن بوضوح أكثر من قبل . وان كان صوته رقيقا يأتى اليه مذبذبا . لو كان موسيقيا لاستطاع أن يستدل على النغم !

ـ عفوا يا سيدى .. ولكننى لا أسمع صوت جرس يقرع

www.ibtesama.com/vb

ـ هيا يامارسيلين ! .. لا أظن أنك ستتظاهرين ..

ـ اننى واثقة من أنه ليس هناك جرس . وعندما تهب الريح فى هذه الأنحاء ، فمن المستحيل سماع أجراس القرية . فضلا عن اننى لا أكاد أتصور أن يقدم أحد على قرع أجراس فى مثل هذا الوقت من النهار .

ـ ربما يكون ثمة زفاف .. أو جنازة .

ـ هكذا فى وقت غريب ! كنا نسمع هذا الجرس لو كان بالفعل يدق . ولقد ذهبت لاحضار الخبز هذا الصباح ، ولم يذكر لى أحد شيئا .

ومضى هيرمانتييه بعض خطوات فى الممر .. لم يعد يستطيع الآن أن يسمع شيئا ، ولا حتى عندما كور يده على أذنه . كانت الريح قد سكنت لفترة . ولا شك أن الجرس قد توقف .

ـ لابد أن سيدى مخطىء من المحقق أن نستطيع سماعه الآن لو كان يقرع .

ربما تكون على حق . ربما يكون ثمة مركز عصبى فى مخه لايعمل جيدا . ربما يكون يسمع أصواتا لاوجود لها .

ـ لندخل الآن . لا حاجة بك الى أن تقولى شيئا من هذا للسيدة .

لو كانت كريستيان هنا لوضعت مره فى نصابه . لتظاهرت بأنها تسمع الجرس بدورها عاد الى مقعده وغرق فى تأمل مضطرب . نعم . من المحقق أن كريستيان كانت ستكذب عليه . لكن هل يعنى هذا أن مارسيلين تقول الحقيقة ؟ ربما تكذب هى أيضا . ربما تكذب لفرط افتقارها إلى اللباقة ، لخوفها من أن تنطق بشىء غير سليم . انها لاتحسن اخفاء الأمور .

والآن . الى اين تقوده أفكاره ؟ انه كمن يربط نفسه ويحكم تعقيد الرباط . تحسس الزجاجة لكن مارسيلين كانت قداخذتها . لعلها ظنت أن الخمر قد لعبت برأسه . نعم . هذا هو السبب الذى جعلها تتحدث معه بهذه الطريقة ـ بنبرة قاطعة جازمة . كأنها تقول له لاتكن بهذا الحمق !

www.ibtesama.com/vb

لكن الشيء المحير حقا هو ايقاع هـذا الجرس .. كان ايقاعا مضبوطا . لو كان قد تخيل قرع الجرس لكان من المحقـق أن يسمعه مختلفا ـ ولكان نغمه قد ظل يتردد في مسمعيه .

لم يستطع هيرمانتييه أن يبقى جالسا وقتا طويلا . فقد داخله نفس شعور القلق المحموم الذى كان ينتابه وهو على وشـك أن يخترع شيئا . ودخل الردهة واستغرق مدة أطول من المعتاد حتى عثر على العمود الذى يقع فى أسفل الدرج . الا أن أخطاءه لم تعد تضايقه أو تشغله الآن . فقد كان مستغرقا تماما فى خواطره ، ودخل غرفتـه وفتح النـافذة ومال على افريزها ثم ألقى عقب سيجارته وأشعل سيجارة أخرى . لعله ليس من الحكمة أن يدخن هكذا . ربما يسـقط فجأة ميتا . لن يهمه الامر كثيرا اذا حـدث ذلك على أية حال ! وتناهى اليه صوت السيارة تعود . ستصعد كريستيان ولا شك لتغير ملابسها قبـل أن تلتفت الى شئـون المنزل .. عليه اذن أن ينتظر .

كان يشعر بطعم الغبار فى فمه . لم يعهد ريحا من قبل تهب بمثل هذه القوة ـ والمرارة . أخـذ يلهث ويشدد قبضتـه على منديله . لكنه لم يعان من المرارة بالقدر الذى عاناه من الفـكرة التى أخذت تتضح فى ذهنه على نحو مرعب .

سمع كليمان يوقف السـيارة بعيـدا ، ومد يديه يتحسس عقربا المنبه . الحادية عشرة والنصف هذا ماكان يتوقعه تقريبا ، فتح الباب بوصـة أو بوصتين وأخـذ ينصت . تناهت اليـه غمغمات ، لاتتجاوز الهمس الا بقليل . لم تكن كريستيان قـد صعدت بعد وأخذت تتحدث كالعادة الى مارسيلين . كانت لاتزال تتحدث اسفل الدرج . وظلت كذلك وقتا طويلا قبل أن تصعد ، وسمع وقع خطواتها على السلم ـ ثم فى الممر ـ فى الجناح الآخر ، وبعد ذلك بدقائق سمعها تهبط من جديد . بخفها هذه المرة .

الآن اذن .. أدار هيرمانتييه جهاز الراديو وضبطه على موسيقى صاخبة . كان يرتعش من فرط اضطرام عواطفه ويبلع ريقـه بصعوبة . وتوقف عند الباب . كان هناك أحد يعبر غرفة المائدة ،

www.ibtesama.com/vb

واستطاع أن يتعرف على صوت كريستيان لكنه لم يستطع أن يتحقق من الكلمات . وتريث فترة خالها دهرا ثم تقدم متلصصا ، وقبل أن يضع يده على مقبض باب كريستيان توقف . كان يعلم مقدار الالم الذى ينتظره فى الداخل . وكان يحاول أن يستجمع قواه ليواجهه .

وعندما دخل ، تحسس طريقه بحذر صوب دولاب الملابس ، وحاذى فى طريقه مقعدا ثم مائدة . كان أقل صوت يمكن أن يفضح وجوده ، وكان يريد أن يكون وحده عندما يعثر على الدليل الذى جاء من أجله .. وفتح باب الدولاب وبدأت يداه تعبثان ، ووجد القبعة على الفور وتحسسها . نعم . وجد حولها طيات من مادة خفيفة . نسيج من الحرير .

وسقطت يداه الى جنبيه وأحنى رأسه . ووجد من العسير أن يحفظ توازنه . كان قد وعد نفسه ألا تطرف له عين ، لكنه الآن تساءل عما اذا كان سيصمد ولا يسقط وينهار . وشعر بألم فظيع فى مقلتيه اللتين لم تعد فيهما قدرة على البكاء . وأخذ يتنفس بعمق محاولا أن يحرر صدره من التقلص الذى انتابه . لو كان مقدرا له أن تجيئه النوبة يوما ، فهذه هى اللحظة المناسبة . لقد عاش مافيه الكفاية !

أغلق الدولاب وتراجع . لم يحاول أن يسير بهدوء . قد يستطيعون سماعه ، لكنه لم يعد يعبأ . كانت الصدمة الأولى قد ذهبت ولم يبق الاشىء كالذهول لم يع معه بالضبط أين يذهب . ودخل غرفة لكنه أدرك أنها ليست غرفته . فقد انتشرت فيها رائحة هواء فاسد ، بسبب الاغلاق ، مخلوطة برائحة زهور ذابلة . لكنه لم يعرف غرفة من هذه الا عندما تحسس الأطراف النحاسية للفراش ، فأدرك أنه فى حجرة ماكسيم . ثمة غريزة قوية قادته الى هنا بغير وعى . جلس على حافة الفراش وأخذ يعبث بيده فى الغطاء وتنهد . ولم يستطع أن يجلس ساكتا لوقت طويل لأن السكون لم يكن محتملا . فقام يتجول فى الغرفة ويتحسس مافيها . وبدا له أن ماكسيم لم يخلف شيئا وراءه . حتى الساكسوفون أخذه

www.ibtesama.com/vb

معه . ووجد على المكتب زهرة ذابلة . فالتقطها ووقف لحظة يفرك أوراقها بين أصابعه ـ وهو يبصر بعين ذهنه مشهدا لايراه أحد غيره . وكان يغمغم بشيء بين الفينة والفينة ، كشخص يتحدث أثناء نومه .

وتذكر فجأة أن هيوبير قد وعده بارسال برقية . فرمى بساق الزهرة على الأرض وغادر الغرفة دون أن يعبأ باغلاق الباب . أراد أن يعود الى حجرة كريسيان ليتأكد .. فهو قد ارتكب عدة أخطاء بالفعل على أية حال . وعليه الآن أن يتيقن قبل أن .. لم يستطع ان يكمل عبارته فى ذهنه .. قبل أن ماذا ؟ .. ربما قبل أن ينتهى الى قرار هام ، لو كانت لاتزال له القوة على اتخاذ قرار.

بدا له الممر بغير نهاية . وكان يضطر الى التوقف أحيانا ليتأكد من مكانه . وكان فى كل هذه الاحيان يلقى باذنيه الى أسفل الدرج . كانت مارسيلين تعد المائدة . وذكره رنين الاكواب برنين جرس الكنيسة . ومضى . هل سيجد كريستيان هذه المرة فى غرفتها ؟ واذا وجدها ـ هل يملك الشجاعة الكافية لأن يقول لها ما يفعله بالضبط ؟.

كانت الحجرة خالية لحسن الحظ . لقد اعتقد ذلك على الأقل . فمن المحقق أن كريستيان كانت ستتحدث اليه لو كانت هناك . عاد الى الدولاب وفتح بابه وعبثت يداه فى رفه . لم يجد هذه المرة شيئا سوى المناديل والجوارب وعلبة من اللافندر . أما حيث وجد القبعة من قبل فلم يكن ثمة شيء .

وقال هيرمانتييه لنفسه : لقد فعلت كل ما أمكنها تصوره . حتى هذا فكرت فيه . يالكريستيان المسكينة .. كيف استطيع أن أفيها حقها من الشكر !

كان الوقت قد فات . لم يعد من الممكن حتى أن يضغط على يد كريستيان ضغطة رقيقة . لن يقول شيئا . سينتظر . لو امتد عمره أياما قلائل ، ولو وجد فى نفسه القدرة على أن يتكلم بهدوء ، لأخبرها عندئذ برأيه فيما عملت . لكنه الآن عليه أن يستجمع كل ارادته ليتصرف على نحو عادى ، كأنه لايعلم شيئا .

www.ibtesama.com/vb

وصاحت كريستيان من أسفل الدرج :

ـ الغداء معد ياريشار .

فغادر الغرفة بأسرع مايستطيع .

ـ ريشار .. هل أنت هناك ؟

ووصل الى أول الدرج عندئذ وصاح بصوت عال :

ـ نعم .. اننى آت .

لكنه لم ينزل على الفور . مسح وجهه بمنديله وحاول أن يعيد الهدوء الى ملامحه . لن يكون من السهل أن يبدو طبيعيا .

وعندما ظهر أخيرا ، تساءلت كريستيان على الفور بقلق :

ـ هل أنت متعب ؟

ـ كلا .. لكننى أغفيت فترة ولم أستيقظ بعد تماما على مايبدو . أوه .. هذا صوت الراديو يأتى من غرفتى . لقد نسيت أن أغلقه . هل تفعلين ذلك يامارسيلين ؟

وذهبت مارسيلين لتغلق الراديو ، بينما نشر هيرمانتييه منشفته وتحسس الخبز الموضوع بجوار صفحته . وقالت كريستيان :

ـ كان هناك مسافرون كثيرون .لكن هيوبير استطاع الحصول على مقعد ..

كانت رائعة . طبيعية تماما . هذا أفضل على أية حال . ان ذلك يساعده على أن يقوم بدوره .

ومضت تقول :

ـ لقد سررت اذ وجدته فى حال طيب ، منذ فوضت اليه الأمر وهو يبدو كرجل آخر . وقد وعدنى مرة أخرى بأنه لن يضيع وقتا فى البحث عن ماكسيم . ولن يمر وقت طويل حتى نسمع منه شيئا .

ـ لقد تأخرت فى العودة .. أليس كذلك ؟

ـ توقفت فى القرية . كان أحد مخازن الغلال يحترق . وكان الناس يحتشدون ويتناقلون دلاء الماء . ربما تكون قد سمعت الجرس . لقد قرعوا جرس الخطر من أجل ذلك .

www.ibtesama.com/vb

ـ نعم .. لقد خيل الى اننى سمعت شيئا . الا أن مارسيلين أقسمت اننى مخطىء .

يا لكريستيان المسكينة . انها لاتستطيع أن تعرف انه وضع يديه على قبعتها !

ـ ٩ ـ

دق هيرمانتييه الجرس وطلب زجاجة أخرى من الكونياك منذ عدة أيام وهو يحاول أن يخدر نفسه بالخمر . وكان يخجل من الشرب أمام كريستيان ، فضلا عن أن الخمر لم تحقق غرضها ـ لقد أسكرته حقا ولكن دون أن تنتشله من حالة الاكتئاب التى غرق فيها والتى تترك آثارها فى كل ركن من البيت ..

كان يشعر بقلق أكثر من قبل . فيتهالك فى مقعد وقد يغفى دقيقة أو دقيقتين ، لكنه سرعان ما ينتبه ويمضى متجولا فى الحديقة . وهناك تطارده الشمس بشواظها على رأسه فيعود الى الداخل ، حيث يتناول قرصا من الأسبرين ، ويضع رأسه تحت الصنبور . ثم يخطو فى غرفته جيئة وذهابا ، وهو يغمغم بكلمات غير مفهومة .

وكانت كريستيان لا تغادر البيت أبدا ، وتكتفى بأن ترسل مارسيلين فى السيارة لتشترى حاجياتها من السوق . وكان هيرمانتييه يشعر بيقظتها الدائمة . وكانت اذا اضطرت الى الصعود لحظة تعهد الى أى شخص بأن يكون بقربه . وكانت تطيل فترات تناول الطعام الى أكبر قدر ممكن . كما أن مارسيلين بدأت تهتم باعداد الطعام وأخذت تتفوق على نفسها فيه . لكن كل هذه الأطعمة والحلوى الجذابة لم تكن تستطيع أن تنتشله من تأملاته واكتئابه . وقد بذلت كريستيان جهدها لتجذب اهتمامه الى الأحداث المحلية وما يدور حولها من قيل وقال .. مثل زواج ابنة أحد المزارعين من أحد تجار المحار فى موران ، وتحويل محل مارسيرو للبقالة فى لاروشيل الى منتدى لشرب الشاى . فكان ينصت لها متأدبا ، لا يوجه اليها سؤالا واحدا . وكان لا يهتم بشىء حتى اذا تأخر وصول

www.ibtesama.com/vb

البريد ـ حتى عندما قرأت له كريستيان خطابا من هيوبير لم يبد عليه الا أقل الاهتمام :

« لقد اتخذت الخطوات اللازمة مع وكلائنا والأمور تسير على ما يرام .. والتقريرات التى كنت متلهفا عليها ستصل فى الاسبوع القادم ... »

كان يتثاءب اذا سمع فقرة تتناول التفاصيل الخاصة بصناعة المصباح . حتى فى النهاية لم يبد عليه رد فعل عندما أضاف هيوبير كالعادة فقرة عن ماكسيم .

« ان ماكسيم قد عاد الى خليلته الممثلة كما كنت أتوقع . وهى الآن فى رحلة تمثيلية . وأعتقد أنهما موجودان معا فى جيراردميه هذا الأسبوع » .

ووعد هيوبير كالعادة أيضا بأن ينهى اليه كل معلومات جديدة تصله فى هذا الشأن . وقالت كريستيان :

ـ فأنت ترى الآن يا ريشار أنك مخطىء تماما فى أن تشغل نفسك بأمره . انه جواب أفاق . ولا نملك أن نفعل شيئا ازاء هذه الحقيقة .

فهز لها رأسه موافقا وجرع كأسين من الكونياك فى تلاحق سريع . ثم رقد على مقعده الطويل وقال :

ـ أظن اننى سأغفو يا كريستيان . لماذا لا تخرجين قليلا ؟

وقامت وتركته لكنه لام نفسه وهو وحيد لأنه لم ينتهز الفرصة . لقد كان قد اعتزم مرة أخرى أن يحادثها ، غير أنه كان يؤجل الحديث كلما أوشك أن يخوض فى الموضوع .

وجاءته الفرصة فى وقت آخر من نفس النهار . كانت كريستيان هى التى مهدت للموضوع وكانا يتناولان القهوة فى الشرفة . وكان كليمان ومارسيلين قد ذهبا يشتريان بعض السمك للمساء . كانت لحظة هادئة ـ قطعتها كريستيان بقولها :

ـ اعطنى هذه السترة لأثبت فيها ذلك الزرار الذى يوشك أن يسقط .. وتستطيع مارسيلين أيضا أن تكوى هذه الكرمشة البادية ..

ووجد هيرمانتييه نفسه يقول على الفور من وحى لحظته :

www.ibtesama.com/vb

ـ نعم .. ويمكنك أيضا أن تضعى حول الذراع شريطا من الحرير الأسود !

كان هذا هو كل شيء . كانت كريستيان تدير الملعقة فى فنجانها فتوقفت فجأة . ورقد هيرمانتييه مرتاحا . لقد أزاح عن صدره العبء أخيرا . لو كان قد أدرك سهولة ذلك من قبل لكان قد انتهى منه منذ وقت طويل . وضعت كريستيان قدمها برفق . وشعر بأنها تميل نحوه ، ففمفم :

ـ لا تنزعجى . لقد صمدت للصدمة الأولى ، وأنا لا زلت حيا على كل حال . لكننى أريد منك أن تخبرينى بالحقيقة كلها

ـ يا عزيزى ريشار .. لو علمت ما عانيته من عذاب .

وأمسكت يده وضغطتها . وخال أنها تبكى

ـ أشكرك يا كريستيان

ـ كيف عرفت ؟

ـ قبعتك ! تحسست اطارها فعثرت على الشريط الحريرى الأسود .. وعندما فكرت أنت فى اخفائها ـ كان الوقت قد فات . كنت قد عرفت .. ثم لا تنسى الجرس .. لقد كان جرس جنازة يدق !

ـ لم أكن أريد أن ...

ـ أعلم يا كريستيان . لا تبكى . لقد كنت مثالية فى سلوكك وتصرفك ؛ كذلك كان هيوبير ، لو كان هناك أحد أخطأ ـ فهو أنا .

تلاشت من رأسه كل مظاهر القلق والمخاوف والأخطار والاشباح . لم يبق الا حزن لطيف

ـ أعلم أنك كنت تخفين شيئا عنى . وكان هذا هو التفسير الوحيد لكل ما أحس . اننى أدرك أشياء كثيرة بعد أن صرت كفيفا هكذا .

وضغطت كريستيان على يده مرة أخرى . وقالت :

ـ يجب أن تغفر لى وتصفح عنى لأننى كذبت عليك . لقد أخبرت لوثييه أن هذه الطريقة ستكون شاقة . وكنت أشعر فى بعض الايام أننى على وشك الجنون

لم تكذبى يا كريستيان الا لكونك أخفيت عنى الحقيقه .. وليست هذه كذبة خطيرة ..

www.ibtesama.com/vb

وصمت هنيهة ثم قال :

ـ حكاية المطبخ هذه ـ شجار المطبخ . لقد كانت صحيحة .. أليس كذلك ؟

ـ نعم . كان ماكسيم وكليمان ملتحمين بشدة . ثم أخذ ماكسيم يسعل فجأة . دهمته نوبة سعال مؤلمة ، مختلفة عن كل نوباته السابقة . فأرسلت هيوبير ليحضر ميرودى . وكان كليمان يبدو معذبا .. ظن أنه الملوم وأخذ يفرك يديه .. وكان ميرودى على وشك أن يأوى الى فراشه ، لكنه ارتدى ملابسه بسرعة وجاء فى خلال نصف ساعة . وعندما شاهد ماكسيم قال على الفور انه لا يمكن عمل أى شىء ، وأنه يحتضر .

ـ لو كان عندنا هذا التليفون ..

ـ لم يكن هذا ليغير من الأمر شيئا . لقد كانت رئتاه يا ريشار فى حالة مفزعة . لو كان قد عنى بأمره قبل ذلك بستة أشهر ... لقد كان يبدو وهو فى حالته تلك لا مفر هالك . كذلك كان يبدو فى حالة سيئة خلال الاسبوع الماضى ، وكان يسير من سيىء الى أسوأ .

ـ هل تعنين أنه لم يكن يعلم خطورة مرضه ؟

ـ يبدو أنه لم يكن يعلم ، اذا وضعنا فى الاعتبار كل هذه المشروعات التى كان يعدها . هل تعلم أننى لاقيت عنتا كبيرا وأنا أحاول اقناعه بالقدوم الى هنا لقضاء أجازة . لقد كان يعتزم تولى هذه الوظيفة فى لابول .. لا ، لست أعتقد أنه كان يعلم شيئا عن مدى خطورة حاله .

ـ ان الخطأ خطئى فى الواقع .

ـ كلا يا ريشار .. يجب ألا تعتقد شيئا كهذا . لقد كان يتدهور ولم يكن حتى فى مقدورك أن توقف تدهوره .

ـ هل تألم كثيرا ؟ هل عرف أنه يموت ؟

ـ لا .. انه فقد وعيه بسرعة .

ـ اننى أقدر لك موقفك يا كريستيان . لكن كان يجب أن تخبرينى بالحقيقة .

ـ ظننت سأخبرك . كنت أريد ذلك . لكن ميرودى هو الذى

www.ibtesama.com/vb

مانع . انه يعلم انك فى حالة مضطربة لذلك أراد أن نخبرك بالنبأ تدريجيا . وقد ساعد ميرودى هيوبير فى حمل ماكسيم الى المكتبة. وهى الحجرة الوحيدة التى لا تدخلها .. لا تنس قهوتك .. انها ستبرد !

ـ لا أريد شيئا منها .. لكن عندما خرج هيوبير بالسيارة أول مرة ، هل أخرجها من الجاراج بيده ـ أعنى بدفعها بيده ؟

ـ نعم . كذلك دفعها عندما عاد أخيرا بعد أن أوصل ميرودى الى بيته . كان من الأهمية بمكان الا نصدر أية ضجة . وكنا مستعدين لأن نبذل أى شىء فى سبيل منعك من النزول .

بدأ النور ينبلج ! هذا هو السبب اذن فى أنه سمع السيارة تصل أولا ثم ترحل ثانيا . ولا شك أنهم أرسلوا كليمان ليراقبه .وعندما لم يستطع أن يدخل من الباب ، لكونه مغلقا ، تسلق من الشرفة ودخل الغرفة من النافذة .

اذن فهو لم يخطىء . ولعله لم يخطىء أبدا برغم كل المظاهر التى تبدت له . غير أنه استبقى هذه الخواطر فى نفسه ولم يشأ أن يفصح عنها أمام كريستيان . فقد كان لما حدث وقع شديد عليه لم يترك فى نفسه القدرة على أن يدخل فى مناقشات . ثم انه كانت هناك أشياء أخرى تحتاج الى التفكير قبل أن يفصح عنها ـ شجرة الخوخ مثلا. رائحة أشجار الصنوبر . كل الاشياء الاخرى التى قوضت ثقته .

تمخطت كريستيان فى منديلها ثم قالت :

ـ الآن وقد عرفت كل شىء يداخلنى برغم عنى شعور بالارتياح . لا تستطيع أن تتصور الكابوس الذى عشت فيه ، وأنا أقرأ لك كل هذه الخطابات من هيوبير بصوت مرتفع ، وأعلم أنك ستكتشف الأمر لا محالة ان عاجلا أو آجلا . ان من السهل على الأطباء أن يقدموا نصيحة كهذه . انهم لا يدركون ما تنطوى عليه هذه النصيحة من مشقة .. لم أشعر أبدا بالهدوء فى أية لحظة .

ـ لكن أظن أننى عندما أرسلتك الى لاروشيل لاحضار ماكسيم .. كنت فى الواقع تذهبين لتعدى الجنازة ، أليس كذلك ؟

ـ نعم .

ـ وزيارة آل بيليم .. أظن أنك اختلقت هذه المسألة اختلاقا .

www.ibtesama.com/vb

ـ كنت مضطرة الى ذلك يا ريشار . كنت مضطرة الى أن أتذرع بشيء يجعلك تبقى فى غرفتك عندما يأتون لنقل الجثة . لم نكن نستطيع أن نخاطر بابقائها هنا .. قريبا منك هكذا

ـ اننى أدرك ذلك .

لكنه مع هذا لم يستطع أن يمحو من نفسه شعورا بالضيق . لقد جعلوا منه شخصا أحمق . كان يؤمن ايمانا راسخا بحكاية آل بيليم هؤلاء . كانت كريستيان تتحدث عنهم حديثا طبيعيا . ان من الصواب بالطبع أن تكذب لو كان الطبيب قد أمرها بذلك . لكنه لا يستطيع أن يفسر لماذا أصبحت هكذا فجأة تجيد الكذب وتستمرئه ؟ هل كان يستطيع هو أن يلعب دورا مثل دورها ؟ .. وهيوبير أيضا .. هيوبير الذى كان يعتبره دائما انسانا بليدا ـ قام بدوره كذلك على نحو رائع . كذلك فعل كليمان . برغم أن كلا منهما لم يكن فى مقدرة كريستيان . فقد استطاع أن يلحظ أكثر من مرة نبرة زائفة فى صوتيهما . أما مارسيلين فقد كانت أقلهم مقدرة . وعندما بكت لم تفعل ذلك حزنا على ماكسيم ، بل لأنها كانت قد خانتها شجاعتها . ومع ذلك فانها مثلت هى الاخرى دورها ولم تتخل عنه ..

كان من العسير على هيرمانتييه أن يشعر بالشكر والعرفان لهؤلاء جميعا . لقد خدعوه على أية حال ، واذا خدع المرء شخصا آخر فانه لا يملك الا أن يحتقره قليلا . وليس ثمة من يستطيع أن يشعر بالعرفان من أجل ذلك

وقالت كريستيان :

ـ كانت الجنازة مؤثرة . كان الجميع هناك

ـ هل تولى الأب ميشيلون الصلاة ؟

ـ بالطبع

ـ ألم يشعر الجميع بالدهشة لعدم وجودى هناك ؟

ـ كلا . لقد أدركوا الموقف . كنت أستطيع أن أتبين ذلك من طريقة سؤالهم . لقد تأثرت بالغ التأثر . لم أكن أعرف أننا نتمتع فى جيرتنا بهذا القدر من الاحترام .

www.ibtesama.com/vb

كاد أن يبتسم . هذه الملاحظة . نفس ما اعتادت كريستيان أن تدلى به من ملاحظات .

ـ هل انتشر النبأ فى ليون ؟

ـ فكرت أن أبلغهم هناك . ثم عدلت عن ذلك . لم يكن له هناك أصدقاء حقيقيون . ثم اننى فكرت فى هذه الممثلة وخشيت أن تحضر وتشترك فى الجنازة كأنها أحد أفراد العائلة . اننى لم أبلغ النبأ حتى لجيلبرته . لذلك لم يحضر الجنازة الا أناس من جيرتنا . لكننى أظن أن ماكسيم كان يفضل ذلك .

ـ هل أمرت باقامة ضريح له ؟

ـ نعم .. من لوبير بالطبع . ان القبر يقع فى مقابر ديران بروجيه . لقد أقمنا عليه لوحة من الجرانيت يعلوها صليب . انه شاهد بسيط ، لكنه جميل .

ـ لكن هذا يعنى أن هيوبير لم يستقل ذلك القطار الى ليون .

ـ أظن أنك لم تكن تود أن يبقى بعيدا عن الجنازة . فضلا عن أنه لم يحدث فارق كبير . فقد استقل السيارة العامة التى تقوم فى منتصف النهار .

ـ من تكفل بالنفقات ؟ .

ـ نفقات الجنازة ؟.. هيوبير . تستطيع أن تسددها له شيك فى أى وقت . ليس ثمة داع للعجلة .. كيف تشعر الآن ؟

ـ كمن انشق جنباه .. أمر طبيعى .. الى حد ما .

ـ لا يمكن أن يكون شعورك أسوأ من شعورى .. آمل ألا تكون مغضبا منى .

ـ أبدا .. الواقع أننى أنا الذى يجب أن أطلب صفحك . اعلم أننى لم أعد شخصا سهل المعاشرة فى هذه الايام .

ـ يا لك من مسكين .

وبتت على شعره فنسى تعاسته لفترة .

ـ هل تشعر بصداع الآن ؟

ـ لا .. انه يأتينى فى المساء . انه الحر . لم أعهد صيفا بهذا الحر من قبل .

www.ibtesama.com/vb

ـ انك لا تحسن الى نفسك بكل هذا البراندى الذى تتناوله . اننى لم أتحدث فى هذا من قبل ، لكننى أعلم أن لوثييه لا يقره .

ـ لا تعبئى به ! من الأفضل أن تذهبى وتستريحى قليلا يا كريستيان . اننى أود شيئا من الراحة لنفسى أيضا . سأفكر فى ماكسيم . عندما كنا أطفالا معا .

ـ ألا تريد شيئا قبل ذهابى ؟

مالت عليه وقبلت رأسه ثم ذهبت .

وجلس هيرمانتييه ساكنا كأنما يود أن يطيل هذه اللحظات . نعم . لقد قبلته . بدافع مفاجىء ولا شك ، لكن بغير نفور أيضا . لقد فقد أخاه ، فهل سيستعيد زوجته ؟! هل الحياة قد فتحت له صفحة جديدة ؟ ان كلا منهما لا يعرف عن الآخر الا القليل ـ وهذا اس المشكلة يجب اذن من الآن فصاعدا أن يحرصا على ألا يقف شىء بينهما .

وهمس له من قرارته صوت : لا تنس أنك ستموت . لا تنس ذلك . اذا كانوا يعاملونك معاملة كريمة ، فذلك شفقة بك ـ ليجعلوا أيامك الأخيرة محتملة !

قام كأنه يريد أن يواجه هذه الأفكار على نحو أفضل . مهما كان سخف هذه الافكار فانها تنتشر فى رأسه كالجراثيم . لماذا يستبقيها فى ذهنه ؟ أليس هو من غيرها تعيسا بما فيه الكفاية ؟

دار حول المائدة وقد تدلى كتفاه وثقل تنفسه . حاول عبثا أن يركز ذهنه على شىء آخر .. وسمع صوت السيارة تعود ، ومارسيلين تدخل بأحمالها . ثم سمع صوت الثلاجة يغلق . لقد وضعت السمك فيها .. وفجأة حزم أمره .. يجب أن يذهب الى هناك . فى مثل هذا الحر بعد الظهر لن يكون ثمة أحد هناك ، لا أحد يراه . حتى اذا رآه أحد ، ماذا يهم ؟ . مضى صوب الجاراج .. حيث كان كليمان مشغولا بدلو من الماء .

ـ ماذا تفعل يا كليمان ؟

ـ أنظف السيارة ـ مما علق بها من رائحة السمك .

ـ تستطيع أن تنهى هذه العملية فيما بعد .. أريد السيارة الآن ..

www.ibtesama.com/vb

ـ حسنا يا سيدى .

صعد هيرمانتييه بجواره فى كرسى القيادة . وما لبث أن قال لكليمان عندما شعر به أمام عجلة القيادة :

ـ اذهب بى الى المقابر .

وبعد لحظة صمت .. جاءه صوت كليمان مغايرا .

ـ حسنا يا سيدى .

كليمان ليس بأحمق . لا شك أنه انتهى الى أن كريستيان قد تركته يذهب لسبب أو لآخر . كان يتوقع أن يوبخه . لكنه لم يفعل . ومضت السيارة بلطف ، وأخذ هيرمانتييه يفكر . حتى لو كان قد علم بموت أخيه منذ أيام لبقى هذا فى رأسه دون أن يخترق الطبقات التى تلى ذلك فى مخه . ان ماكسيم لا يزال شخصا حيا فى ذاكرته ومن العسير أن يشعر بأنه ولى وذهب . ان الاشخاص بالنسبة لانسان كف بصره مثله هم مجرد ذكريات . انه يذكر ماكسيم ويتمثله كما كان فى العام الماضى ـ تدب فيه الحياة وترتسم على وجهه تلك الملامح الساخرة .

كان ماكسيم جوابا ، يستخف بالامور . وتلك كانت فلسفته فى الحياة . وقد اعترف هيرمانتييه لنفسه بأن السبب الذى جعله لا يحاول جادا اصلاح أخيه هو أنه كان يحبه كما هو . لقد كان هو نفسه نشطا ايجابيا لا يحتمل حياة الرفاهية والدعة والفراغ ـ لذلك كان الى حد ما يستمتع بتصورات أخيه . أنه يستطيع أن ينفق على ابن ضال مثله ، تماما مثلما ينفق الآخرون على يخت أو خيول .

حقا ، لقد حاول مرة أو أكثر أن يحد من اسراف أخيه ، لكنه لم يكن يلح فى ذلك على نحو يضطره الى الامتثال . كان ماكسيم مثل من هم على شاكلته ، سريع الانزلاق ، وكان يعلم انه لو شدد عليه هيرمانتييه الخناق ، فان الامر لم يكن ليحتاج منه عندئذ الا أن ينطق بكلمة حب واحدة ليجده تحت رحمته .

كذلك كان ماكسيم متمردا فى كل ما يتعلق بصحته . كم حاول هيرمانتييه أن يجره جرا الى طبيب .. مجرد نظرة واحدة كان

www.ibtesama.com/vb

يستطيع بها أن يتبين أنه لم يكن قويا . فى الثانية والعشرين أصيب بالتهاب رئوى تخلص منه بمعجزة . وقال الاطباء عندئذ أن عليه أن يلزم الحذر . لا افراط . لكن لم يكد يمضى أسبوع حتى كان ماكسيم مندفعا الى استراليا فى أعقاب مغنية وقع فى هواها . وكان يعد بأن يصلح من أمره كلما عاد من احدى مغامراته تلك . لكنه لم ينفذ وعده قط . كانت الصحة عنده كالمال شيئا ينفق . وقد ظل ينفقها بسخاء حتى آخر أيامه . وكان هيرمانتييه يخشى دائما أن تحدث له كارثة مفاجئة . أما الآن وقد حدثت ، فانه لا يكاد يصدق . وكان يعلم أنه سيبقى هكذا مستعصيا على العزاء .

ومس كليمان ذراعه :

ـ لقد وصلنا يا سيدى . هل تحب أن تنزل هنا .

كان هيرمانتييه ، وقد احتوشته أفكاره ، قد نسى المقبرة . ونزل كليمان وفتح له الباب .

ـ يحسن بك أن تتناول ذراعى ياسيدى .. فالعمل فى الممر لم يتم بعد .

كانت هناك أكوام من الرمال والزلط . فقبل هيرمانتييه على مضض أن يقوده كليمان . ولاحظ أنهما تحولا يمينا ثم انعطفا يسارا . كان يعرف المقبرة جيدا ولذلك لم يجد صعوبة فى التعرف على قبر ماكسيم عندما وقف كليمان وقال :

ـ هذا هو يا سيدى .

تحسس هيرمانتييه بقدمه طرف القبر الحجرى . وعندئذ ، ولأول مرة ، شعر بلوعة الفراق فأطلق آهة لم يستطع منعها برغم وجود كليمان .. وخرجت الآهة كأنها تمزق صدره تمزيقا . لكنها كانت آهة واحدة . وأخذ هيرمانتييه يردد اسم ماكسيم فى قرارته ، وهو يقف صامتا ، كأنما يناجيه .

لقد ظل عشرين عاما يعتبر نفسه حاميا لأخيه . لكنه الآن صار يعتقد أنه أضعف الاثنين ـ أنه أتعسهما . فبكى بغير دموع . وتقلص وجهه فى اكتئاب . ولوح لكليمان بيده يبعده : لكنه لم يفهم .. ففالب نفسه لينطق بكلمات :

ـ اذهب . عد ياكليمان . أحضر بعض الزهور .

www.ibtesama.com/vb

ـ هنا كثير من الزهور ياسيدى
ـ لا يهم . أريد أن أضع بعض الزهور بنفسى
وتردد كليمان . ألم يخبروه مرارا ألا يترك سيده وحيدا ؟
ـ اذهب .
ـ حسنا ياسيدى .

سمع صوت قدميه والرمال والحصى تتكسر تحت وقعهما . وتحولت السيارة ومضت . ولم يعد صوتها يبلغه . فمد يده وأخذ يتحسس الشاهد . كان من مادة جيدة ، ناعما ، دافئا كمخلوق حى . والتمس هيرمانتييه شيئا من العزاء فى هذا الشاهد ، دون أن يعرف لذلك سببا . لقد كان ماكسيم يحب الاشياء الجميلة . وهو الآن يرقد تحت احداها فى هذا الركن الصغير ، لا يقلقه صوت سوى الريح ، والطيور ، والبحر .

وسمع هيرمانتييه صوتا فى قرارته يطلب من ماكسيم الصفح والغفران .

كان يود أن يصلى ، لكنه نسى كل الصلوات التى تعلمها وهو طفل . لقد كان يعمل بجهد كبير ، ويكافح بضراوة عظيمة ، حتى لم يعد له وقت ليفكر فى الموت .. فضلا عما قد يأتى بعده ، قدلاتكون هناك حياة أخرى ، برغم وعود القساوسة . لكنه كان يأمل بكل قوته ألا تكون هذه هى النهاية بالنسبة لماكسيم . انه من أجله يرضى بأن يؤمن بالسماء . شرع يده ورسم علامة الصليب على صدره . وخنقته غصة . هل يستطيع حقا أن يعود الى ليون مرة أخرى ؟ هل يمكن أن يقدم على هجر ماكسيم مرة ثانية ؟ الافضل أن يتبع نصيحة كريستيان ويبقى هنا ـ على الاقل لفترة . سيأتى الى المقبرة كل يوم ويضع زهورا على قبر ماكسيم .

وهمس كأنه يعتذر لأخيه :

ـ ها أنذا ياماكسيم . ها أنذا .

ربما لن يمر وقت طويل قبل أن يلحق بأخيه . ربما لن ينقضى هذا العام الا ويكون قد رقد بدوره فى قبر مجاور . انه لم يشغل نفسه أبدا بشراء قطعة من الارض تكون مثواه الاخير . لم يكن آل هيرمانتييه من هؤلاء الصنف من الناس الذين يبنون لأنفسهم مقابر

www.ibtesama.com/vb

عائلية تستقر فيها رفات الاجيال مع رفات الاسلاف . انه شخصيا يفضل أن يرقد هنا بجوار أخيه . ان كريستيان ستقدر مشاعره.

مد يديه نحو طاقات الزهور . كانت لها رائحة كريهة . كانت زهورها قد أحرقتها الشمس وسيقانها صارت هشة . لم يكن من العدل أن يلوم كريستيان . فقد كان أمامها الكثير لتفعله . لكنها كانت على الاقل تستطيع أن ترسل مارسيلين بزهور جديدة .

كانت الطاقات تبدو كبيرة . ما هذا الذى هو مكتوب على شرائطها .. الى أخى ؟ .. الى ماكسيم ؟

الشىء الذى يجب عمله الآن هو طرح هذه الطاقات بعيدا . أن ماكسيم كان يسخر منها على أية حال . انه يفضل أن يبقى ولا شىء فوقه الا هذا الشاهد الحجرى الذى تنعكس عليه السحب وتحسس هيرمانتييه الصليب . كان لوبريه قد أحسن عمله . فالصليب مصنوع من نفس الجرانيت ، طويل يفتح ذراعيه على سعتهما . وصادفت أصابعه الاحرف ، ولم يجد صعوبة فى تبين الشطر الاخير من الاسم :

مانتييه

كانت الاحرف واضحة . وتحتها وجد تاريخا ـ ١٩٤٨ ـ فنقل يده نحو اليسار قليلا وتبين التاريخ

١٨ يوليو ١٩٤٨

واوغلت أصابعه نحو اليسار ليجد تاريخا آخر .

٢٣ فبراير ١٩٠٢

ها هو ذا يوشك أن يفقد توازنه من جديد ! من المؤسف أنه لم يثابر على دروس « البريل » ولو فعل لكانت قد نمت عنده حاسة اللمس . عاد يلمس التاريخ مرة أخرى بصبر . نفس الشىء. لايستطيع أن يفشل فى التعرف على الـ ٢ وعلى الـ ٣ . ثم أن ماكسيم مولود فى أبريل . شهر بخمسة أحرف . والشهر الذى أمامه بستة أحرف !

اوشك أن يقسم . ان ٢٣ فبراير ١٩٠٢ هو تاريخ مولده هو، لا مولد ماكسيم !

www.ibtesama.com/vb

لا شك أن فى الامر خطأ . قال لنفسه : هذه نتيجة رغبتهم فى أن يتولوا كل شىء بأنفسهم . لكن هذا لايفسر شيئا على أية حال . لايمكن أن تكون كريستيان وهيوبير على جهل بتاريخ مولدماكسيم . حتى ولو كانا يجهلانه ـ كان من الممكن أن يعرفاه من بطاقته الشخصية . لكنهم بالطبع كانوا فى عجلة من أمرهم . لا شك أنهم قد فقدوا صوابهم .

نعم . لاشك فى ذلك . انهم معذورون . لكنه لايستطيع أن يترك الامور كما هى . يجب أن يقوم لوبريه بصنع صليب آخر . التكاليف لاتهم . مسكين ياماكسيم . كل شىء من حوله لايريد أن يبدوجادا!

رفع هيرمانتييه يده ليبدأ تلمس الاحرف من جديد . لا بأس من التحقق من كل شىء حتى يأتى كليمان .

هيرمانتييه

ترى هل وضعت كريستيان اسمى ماكسيم قبل لقب العائلة . لقد كان له اسمان فى الواقع . ماكسيم هنرى . لا . ان هناك اسما واحدا . كان من العسير أن يتعرف عليه على الفور . لكنه لم يكن ماكسيم ولم يكن هنرى .

ماذا ؟!

ركع على احدى طاقات الزهر وأخذ يتحسس الاحرف محموما بكلتا يديه . لا يمكن ! قام مرة أخرى ومسح العرق الذى غشى وجهه . لا شك أنه يوشك على الجنون هذه المرة . كان ثمة سيارة تقترب . يأتى صوتها من بعيد . هذا كليمان يعود .

جرى بأصابعه بسرعة على الاحرف مرة أخرى بينما أخذ الفزع ينساب فى عروقه . فقد أتيح له أن يقرأها كلها .

ريشار هيرمانتييه

٢٣ فبراير ١٩٠٢ ـ ١٨ يوليو ١٩٤٨

اذن فهو هذا الميت الذى أقيمت له شعائر الكنيسة ودفن فى هذه الارض ! ريشار هيرمانتييه لم يعد له وجود أمام العالم كله ! ها هو ذا يرقد تحت لوحة من الجرانيت ، ميتا منذ ١٨ يوليو !

وتراجع هيرمانتييه عندما أحس بوقع خطوات كليمان على الرمل والحصى . لم يكن يفكر فى شىء . لا ماكسيم ولا أحد على الاطلاق .

www.ibtesama.com/vb

كان مذعورا . قد ركبه الفزع حتى النخاع . يبدو كمخلوق ضعيف لا حول له ولا قوة ، بعد أن شله الرعب .

وتوقفت الخطوات بالقرب منه ، وقال كليمان :

ـ هذه هى الزهور ياسيدى .

ـ ١٠ ـ

تناول هيرمانتييه الزهور ووضعها على القبر ثم وقف فى خشوع وقد اشتبكت يداه وانحنى رأسه . ولم تنطق ملامحه بشىء . كان فى الواقع هادئا يركز كل جهده فى أن يبقى منتصبا . كان يود أن يرقد ـ فى غرفة رطبة كجثة هامدة ـ عقله صفحة بيضاء كعقل رجل ميت . انه ميت .. أليس كذلك ؟ ان هذا مكتوب ومنحوت على قبره . أما مايقف الآن فخيال ـ شبح أفلت من القبر ورفض أن يرقد فيه .

ومع ذلك فانه يشعر بعضلات هذا الشبح تتوتر وهو يهتز أماما وخلفا محاولا أن يحفظ توازنه .

ـ يجب أن نعود أدراجنا الآن ياسيدى . فالشمس اليوم شديدة القسوة .

هز رأسه دون أن يستطيع التفوه بصوت . يجب الآن أن يكون حريصا لايبدد جهده . وفيم ينفق جهده وهو ميت ! شعر بجسده متلظيا . لا . لايمكن أن يكون ميتا . ولو كان ميتا فلا شك أن هذه نار جهنم تحرقه !

ـ يحسن أن تضع قبعتك على رأسك ياسيدى .

التقط كليمان القبعة المعلقة بلوحة الجرانيت وسلمها اليه . كان قشها خشنا هشا . فتحسسها هيرمانتييه ليتأكد من أنها قبعته . كان عليه الآن أن يتحقق من كل شىء ، ولا سيما قبعة الحديقة هذه لأنها بالنسبة له صديق قديم موثوق به . لو كانت هذه القبعة غير حقيقية ، فلن يكون ثمة شىء حقيقى اذا . وضعها ببطء على رأسه . وتذكر عندئذ قرع الجرس . أن الجرس لايقرع الا فى جنازة . وبنفس المنطق ـ ان القبر والشاهد لايقامان الااذا

www.ibtesama.com/vb

كان ثمة جثة بالداخل . الزهور كذلك دليله . لايمكن أن يكون القبر فارغا . لابد أن ماكسيم فيه .

كان هذا الخاطر لدهشته مطمئنا !وشعر هيرمانتييه بالخجل للراحة التى أحس بها . وطاوعه صوته أخيرا :

ـ حسنا .. فلنذهب .

اذن فماكسيم هناك . مدفون تحت اسم أخيه ! هراء ! غير معقول ! لا يمكن أن يوقع ميرودى على شهادة الوفاة بهذا الشكل لكن بالطبع .. لم يكن ميرودى هو الذى حضر .. لقد كذبت كريستيان .. لابد انهم جاءوا بشخص آخر ..

ـ لا تمش بسرعة يا كليمان ..

لم يكن ثابتا مستقرا على قدميه ، فاضطر الى التعلق بذراع كليمان . وكان يشعر بألم فى مؤخرة عنقه . ولم يكن يحس شيئا حوله سوى صمت المقبرة الرهيب ، لا تقطعه الا صوت قطرات ماء هناك بجوار أشجار السرو . وخيل اليه للحظة أن أفكاره ليست سوى أحلام . فقد كانت تتشكل من أجزاء صغيرة غير متجانسة لا صلة بينها ولا رابط .

اذن فهم استعوا طبيبا آخر غير ميرودى ـ طبيبا جديدا على الارجح . قالوا له ان الرجل المحتضر هو ريشار هيرمانتييه . هل كان يمكن أن يشك ؟ لا يمكن . لاشك أنه وقع شهادة الوفاة دون تضرر . ثم نقلت هذه الشهادة مع غيرها من أوراق ماكسيم الى مكتب تسجيل الوفيات . لماذا يشكون بدورهم هناك ؟ المسألة فى منتهى البساطة .

الآن انتهى كل شىء . مات هيرمانتييه العظيم ونثر على جثمانه الماء المقدس ! بورك ثم دفن . تخيل هيرمانتييه القرية كلها تمر أمام النافذة ، تودع جثمانه . وتصور مصنعه فى ليون وقد أغلق يوما . حدث كبير . أسلاك التليفون تتناقل النبأ بسرعة ولهفة : هل سمعت .. لقد مات هيرمانتييه . وبموته أصبحت الامور مختلفة أليس كذلك ؟

مختلفة بالطبع ، مختلفة تماما بالنسبة للكارتل ! سيدفع القائمون عليها الرشوة الواجبة لهيوبير وكريستيان ويبعدونهما عن الميدان ..

www.ibtesama.com/vb

ـ السيارة هنا ياسيدى .

لعنة الله على السيارة . لقد أوشك هيرمانتييه أن يرى ضوء النهار !؟ لقد فزع هيـوبير . فزع من الصراع العنيف الذى كان المصنع سيواجهه فى خلال أسابيع . لم يكن ثمة أمل فى الاتفاق مع خصومهما . لاشك أنه فضل أن يعقد هدنة معهم مادام فى الوقت متسع . فضل أن يستسلم للكارتل ، لينقـذ أمواله . كان هـذا واضحا . وكان من الواضح أن كريسـتيان شريكتـه . قد ألقت بأسهمها فى صفه . انها حقيقة لا تسر رجلا كفيفا مثله ؛ لكنه لايملك الا أن يقرها . لقد انتهى أمره على أية حال .. أليس كذلك ؟

وتهالك هيرمانتييه فى مقعده بالسيارة . وكان اهتزازها على سطح الارض غير المستوية يجعله يشعر بغثيان تجيش به معدته . لماذا لم يأته الموت عاجلا ؟ كان يجب أن يأتيه وهو قائم فى المقبرة . الاوراق التى ظل يوقعها طيلة الشهر الماضى ، والتى كان يعتبرها أوراق العمل العادى ، يمكن أن تكون أى شىء آخر : تعهـدات أو عقود أو حتى شهادة تسليم واذعان . لعله وقع متنازلا عن كل شىء . لعل مصنعه لم يعد له الآن كيانه المستقل . أما عن ثروته الخاصة فالسماء وحدها تعلم مابقى منها بعد كل هذه الشيكات التى وقعها .

كانت الاسئلة تنفجر فى رأسه كالقنابل سؤالا بعـد سؤال . وأغلق النافذة التى بجواره ، لكن الهواء ظل يأتيه بروائح شتى لقد انتهى اللعب الآن . وخسر كل شىء . أصبح نكرة بل لم يعد مخلوقا حيا على الاطلاق . لم يعد هناك مايستطيع عمله . هل يكتب الى أمه ؟ لمن ؟ لاشك أنهم سيقطعون الطريق على رسـائله . ثم كيف يشرح الموقف ؟ لاشك أن نبأ موته قد نشر فى الصحف ، مشفوعا بصورة له . ولا شك أنه الآن على وشك أن يحتويه النسيان . ولن يستغرق ذلك طويلا !

ان ماكسيم قد يستمر حوله القيل والقال وقتا أطول ـ بسبب مغامراته . لكن من يمكن أن يخمن ماحدث له ـ لهيرمانتييه . انه حجر دوار . انسان من السهل أن يختفى بين يوم وليلة ـ وقد يعود الى الظهور . فاذا لم يعد ، فسرعان ماينسى .

لم يعد هناك ما يمكن عمله . لاشىء على الاطلاق .

www.ibtesama.com/vb

ـ لقد وصلنا الى البيت ياسيدى .

بالطبع . لقد وقفت السيارة . وهذا كليمان يساعده على النزول . كادت صيحة تفلت من هيرمانتييه عندما أحس بلمسة يده . لاشك أن كليمان يعرف الحقيقة . فلماذا سكت ولم يفصح عنها ؟ ومارسيلين ؟ من الواضح أن لهما ضلعا كذلك . لقد تسلما ثمن السكوت ولن يكشفا شيئا على الاطلاق .

تحسس هيرمانتييه الارض الصلبة تحت قدميه وقال :

ـ حسنا . سأتلمس الآن طريقى الى الداخل بنفسى .

سار عبر الممر القديم . أم ترى قد تغير بدوره ؟ ربما يسير الآن عبر متاهة لاعودة منها ؟ كل شىء أضحى الآن محتملا . لقد تحول العالم فى نظره الآن الى فراغ مخيف ، تسكنه مخلوقات خفية تتطلع اليه وتحدق فيه وتشير نحوه بأصابعها . وسمع مواء من خلفه . وأراد أن يسرع لكنه لم يستطع . كان قد أشرف على حال يمكن معها لأقوى انسان فى هذا العالم أن يجثو على ركبتيه ويطلب الرحمة .

وكريستيان . كريستيان قد سمحت بهذا . وأكثر من ذلك . انها لعبت فيه دورا رئيسيا . واصطدمت أصابعه بزجاج الشرفة . وعرف أنه فى خضم مشاعره قد أخطأ الطريق الى الباب . فعالج الوصول اليه وكان ثمة من يقف هناك .

ـ أهذه أنت يامارسيلين ؟

ـ نعم ياسيدى .

ـ أين السيدة ؟

ـ انها ..

وسكتت فترة . ظن أنها ستقول « مشغولة » ، لكنها استطردت :

ـ انها فى غرفتها .. سأدعوها ياسيدى .

ـ لا .. لاتزعجيها .

سار متراخيا وأخذ يصعد . وتقطعت أنفاسه فجلس على رأس الدرج . ونزع قبعته ورماها فى الممر ، ثم خلع نظارته ومسح عدستيها وهو شارد اللب . كان البيت رطبا هادئا . كأنه نائم فى أحضان حديقة الزهور . لا بأس . انه سيوقظ كريستيان حتى لو

www.ibtesama.com/vb

كانت نائمة . لقد حان الوقت لكى يفرغ همه من صدره ، لكى يخوض المعركة الفاصلة بعد أن عذبته الشكوك طويلا ..

قام وتحسس الجدار . كيف يمكن أن تدافع عن نفسها ، هذا النحت على شاهد القبر يتطلب تفسيرا وشرحا طويلا ! توقف عند بابها . لايمكن الآن أن تتذرع بالعطف والشفقة عليه . لن يدعها تفلت الآن بمثل هذه الوسائل . لا يمكن أن يكون للشفقة صلة بالموضوع .. لايمكن أن تهبط الشفقة الى هذا الغور السحيق من الرياء والخداع .

قرع الباب ثم فتحه بشدة دون أن ينتظر ردا . وسمع صيحة مخنوقة .. ثم ..

ـ يا الهى .. ريشار .. أين كنت ؟ ماذا حدث ؟

لا شك أن منظره الآن فظيع . محمرا بالغضب لامعا بالعرق . وسمع صوت مقعد يدفع نحوه ، لكنه نحاه :

ـ لقد كنت فى المقابر .. وتحسست الكتابة مصادفة .. قرأتها !

ـ قرأتها ؟!

ـ نعم ..

ـ أيها العزيز المسكين !!

شعر بتأثر وأحس بأنه لن يستطيع أن ينطق الكلمات التى ظل يدبرها فى ذهنه . انه غريب . ها هو ذا فى حضرة كريستيان لكنه مستعد لأن يقبل أى شىء . أى شىء الا الخيانة .

ـ ريشار !.

ـ لا . لاتقوليها . اننى أعرف ماستقولينه .. أن لوثييه طلب منك أن تخفى عنى الصفقة .. اننى لن أعود أبدا الى ليون .. أبدا .. اننى لن أستطيع بعد الآن أن أدير مصنعا ..

ـ لكن ..

ـ دعينى أكمل حديثى . لقد كنت تعامليننى دائما كأننى معتوه مسكين ..

ـ كلا ياريشار .. انك مخطىء . والدليل على ذلك أننا أبقيناك معنا .. لقد أراد لوثييه أن نرسلك الى مصحة عقلية .

www.ibtesama.com/vb

ـ هل هذا سبب كاف لـ ..

ـ انك لاتعلم كل شيء .. حاول الآن أن تنصت الى بهدوء .. اجلس أولا .

ـ حسنا ..

ـ لم يكن لوثييه قلقا بشأنك فحسب ، بل قلقا من أجلناكذلك

ـ ماذا تقصدين ؟

ـ أظن أنك تدرك .. لقد ظن لوثييه أنك قد تصبح خطرا

ـ أنا ؟ خطر ؟!

ـ لقد أجريت لك جراحة مخيفة .. ثم لاتنس أن عندك دائما ميلا الى الشعور بالاضطهاد .

ـ وهل كان من اللازم أن تضعى اسمى على شاهد القبر ؟.

ـ هذا أنت بالضبط ! أترى كم من السهل أن تثور ثائرتك .. اننى أعترف بأننى أخطأت فى ..

ـ فى توقع وفاتى ؟!

ـ أرجوك ياريشار ! انك لاتجعل الأمر يسيرا بالنسبة لى . ان ما أريد أن أقوله يحز فى نفسى .. نعم . لقد ظننت ان من الافضل حسبانك ميتا . بعد كل مافعلت ، بعد كل ماحدث انك لم أكن أريد الناس أن يعرفوا .. أن يعرفوا الحقيقة ؟

ـ تخشين ما قد يقوله الناس ؟

ـ ليس هذا عدلا . المسألة تتعلق بالفخر بك . بالفخر بك وباسمك . لاتظن أنك الوحيد الذى عانى وتألم .

وتمخطت فى منديلها وجلست بجواره ، ثم استطردت :

ـ لماذا لم تكن لدينا الشجاعة قط على أن نتحدث بصراحة ؟ لو كنا قد فعلنا لكنا الآن قد وفرنا على أنفسنا الكثير من الجراح والآلام . ان غلطتنا كانت فى اعتقادنا أن فى مقدورك التعلق بالحياة من حيث تركتها . لقد كان يجب على لوثييه أن يقول لك ..

ـ أننى محكوم على بالموت ؟

ارتعد صوت كريستيان وهى تقول :

ـ لست أدرى . هذه عبارة تفزعنى . حاول أن تتفهم الموقف . هل كنت مخطئة فى اننى أردت احضارك الى هنا لتشعر بالراحة ؟

www.ibtesama.com/vb

هل أنت تحس بالتعاسة فى هذا البيت ؟ ألم يكن هذا هو الحل الامثل ؟ ها أنت ذا بعيد تمام البعد عن مشاكل العمل . وهيوبير قدير تماما على ادارة المصنع .

ـ كلا .. ولكن هذه ليست سوى مسألة تفصيلية . هناك شيء آخر ياكريستيان . كان من الممكن أن تدهمنى نوبة . ربماكنت أجن . ربما كنت أقتل نفسى .. كل هذا محتمل .. ولكن من المحتمل ايضا أن أبقى سليم العقل ، على ما يرام تماما ..

ـ اسكت ياريشار !

ـ لا حاجة بك الى الخوف . اننى هادىء تماما . وما دامت كل الصدمات التى عانيتها قد فشلت فى أن تفقدنى توازنى ، فثمة فرصة طيبة لأن تتبدد مخاوف لوثييه ولا تتحقق لفترة طويلة على الاقل ، ان لم يكن الى الابد . فى هذه الحالة كيف أبدو ؟ بتلك الكتابة على الشاهد ؟.. ماذا يمكن أن تقولى فى هذا ؟ .. لكنك محقة فى شيء واحد .. هو أنه قد حان الوقت الذى نتصارح فيه .. ان ماكتبته على هذا الشاهد معناه أنه يجب أن أكون ميتا ، لا جسدا بالطبع ـ بل قانونا . أن أكون ميتا بصفة رسمية .. واذا كان يجب أن أكون ميتا ، فلا شك أن السبب هو الكارتل !

مد يده وقبض على ذراع كريستيان :

ـ هذه هى الحقيقة . أليس كذلك ؟ لقد أراد هيوبير أن يستسلم . وكانت هذه هى فرصته المواتية . لاشك أنها كانت فكرته . أن يستفيد من موت ماكسيم .

ـ نعم .

ـ الخنزير !

ـ لكن هذا ليس عدلا .. هل يمكن أن تقطع لى بأن هذا المصباح سيحقق النجاح ؟ هل يمكن أن تؤكد لى بشرفك أنه ليس مغامرة ؟

ـ ان هناك مخاطرة بالطبع ، لكنها مخاطرة مقبولة . وأنا أعلم تماما أنه لو كان الامر بيدى لسجل المشروع النجاح المطلوب .

ـ ربما صح هذا لو كنت فى حالتك الاولى . لكنك لم تعد الرجل الذى كنت . وهذا يجعل المسألة أكثر من مغامرة . هل فكرت فى هيوبير ، الذى تخاطر بماله ؟ هل فكرت فى ؟ هل فكرت

www.ibtesama.com/vb

فى عمالك ؟ لو فشل هذا المصباح لحدث انهيار مالى فظيع .
لا بأس أن يخاطر المرء بماله لكن الأمر يختلف اذا كان المال ملكا لآخرين .. انك تريد أن تقف ضد الكارتل بأى ثمن . لماذا ؟ هل أنت واثق من أن هذا ليس مجرد غرور ؟!

ـ كلا . انه ليس مجرد غرور .. أقولها مخلصا . اننى أحب أن أظهر بمظهر طيب . لكن ليس هذا هو كل شىء . لقد أردت أن أكسب احترامك ياكريستيان . وأقول احترامك لأننى أخجل من أن أستخدم كلمة أخرى !

وضغط عندئذ ذراع زوجته على نحو أشد .

ـ اننى أحسن الحديث فى الاعمال أكثر من الحديث فى المسائل العاطفية . اننى أعلم تماما أننى لم أكن أبدا رفيقا مثاليا .. لكننى كنت أود أن أقتنى ثروة ـ من أجلك .. لقد كان يسعدنى أن أراك موضع تكريم الدنيا كلها . أن أرى الحديث ينقطع بين الجالسين عندما تدخلين صالونا من الصالونات . ان السلطة فى يد امرأة شىء جميل ياكريستيان . كان هذا هو كل ما أستطيع أن أهبك اياه . وكان هذا شيئا لايستطيع أحد غيرى أن يعرضه عليك . لاتحدثينى عن هيوبير . اننى أعلم أنه يحاول جهده . لكنه ينتمى الى هذا الصنف الحذر الجبان ـ أولئك الذين يخاطرون فى نطاق ضيق ، ويرتعدون لذلك أيضا . انه رجل لايستطيع أن يمسك سوى دفتر نظيف مرتب . أما أنا ـ فلو كنت ساندتنى لكنت قد ..

وكور هيرمانتييه قبضته وضرب صدره ثم استطرد :

ـ انك لاتعلمين كم من القوة لاتزال تدب فى جسدى . لوكانت لديك الثقة بى ياكريستيان .. اننى أعلم أننى ربما أبدو كدب أخرق . لكن الدب يتمتع بالقوة ـ وبالولاء . لم أكن أريد مقابلا لذلك . ربما تربيته عفوية .. لا .. ولا حتى هذا .. ربما مجرد كلمة ودية .

ـ أرجوك يا ريشار .. يجب الا تثير أعصابك .

ـ ولم لا ؟. ان العالم يفص باناس كثيرين من الهادئين الحذرين .. يعيشون على هامش الحياة . والآن أريدك أن تصدقينى القول ياكريستيان .. هل تمت تسوية كل شىء على نحو لانقض فيه ولا ابرام ؟

www.ibtesama.com/vb

ـ كلا ..

ـ اذن .. متى سيوقع هيوبير الهدنة ؟.

ـ لا أدرى . ربما فى الايام القليلة القادمة . انه لايزال مترددا.

ـ مترددا ؟! بالطبع . ان هيوبير يتردد . انه لايفعل شيئا سوى التردد . لقد ظل أربعين عاما يتردد فى عيشه ! واذا كان لم يوقع بعد . فان الأوان لم يفت اذن. اننى سأنزل قريبا الى أرض المعركة . يجب أن تبرقى اليه . قولى له أن يكف يده . اننى لازلت الرئيس . اننى لا أعبأ برأسماله . لو فقده فذلك لأنه لم يكن ليستحقه قط ! ولو نجحت لأثرى هو الى عشرة أضعاف . لو كان يخاطر بماله ، فاننى أخاطر بحياتى كلها . اننى أمنعه من أن يتردد مرة اخرى !

قام هيرمانتييه ودار حول المقعد الذى جلست فيه كريستيان. ثم انحنى عليها وأردف من جديد لكن فى لهجة رقيقة مختلفة :

ـ اسمعى ياكريستيان . لقد أخطأ لوثييه . اننى لن أصبح خطرا بالمرة . لن أصبح خطرا عليك بالذات . حتى لو جن جنونى فاننى عاجز عن ايذائك . اننى لست غاضبا منك بالرغم من كل ماحدث . لقد جئت بى الى هنا وجعلتنى رهن اشارتك .عزلتنى وعاملتنى كما لو كنت مجنونا . كل هذا لايهم . اننى مستعد لأن أنسى كل هذا اذا تركتنى أخوض معركتى الاخيرة العظمى . من أجلك ياكريستيان . لأننى أود أن ..

وفجأة ضغط بوجنته على وجنة زوجته وقال :

ـ كان من الممكن أن يكون كل شىء سهلا لو كنت قد أحببتنى !

ظلت كريستيان ساكنة مشدودة . فمد هيرمانتييه أصابعه وتحسس وجهها . ولمس أدمعها !

ـ ان هذا لأكثر مما طلبت ياكريستيان .

وظل فترة صامتا . يشعر بسكينة فى أعماقه . وسعادة جعلته لايقول شيئا .

وفجأة داعبت أنفه رائحة ما . ظن فى البداية أنها مجرد وهم. ثم حاول أن يقرنها بشىء فى غرفة كريستيان . اناء من الورد .. وربما ، لم يغير ماؤه . أليس ثمة بعض الزهور تطلق عندما تذبل رائحة تشبه رائحة « الروبسوس » !!

www.ibtesama.com/vb

لا .. ليست هذه رائحة زهور ميتة على وجه التأكيد ..

وعندئذ تناهى اليه صوت قرقعة خفيفة . فعرف على الفور أنه ليس ثمة مجال للشك . كانت الرائحة منبعثة من علبة « الروبسوس » التى اعتاد هيوبير أن يحملها ويفتحها عندما يتناول منها قرصا .

قام هيرمانتييه بغير تردد .. ونحى يده عن وجه كريستيان .. وكان قلبه يصخب بشدة فى صدره . لكن لم يكن ثمة من يسمعه سواه .

وغمغم : أشكرك ياكريستيان . أشكرك . لن أنسى لك معروفك!

كان صوته يهتز . لكن كان هذا فى صالحه على أية حال . سار بعيدا عن المقعد : خطوة . خطوتين . ثلاث . لابد أنه الآن فى منتصف الغرفة .

وقالت كريستيان :

ـ الى اين أنت ذاهب ؟

ـ سأرقد قليلا .. أشعر برغبة فى النعاس .

نعاس حقا ! كأنه سيجرؤ على أن ينام بعد اليوم ! لكن يجب أن يحكم المظاهر . سار صوب الباب . وقبل أن يغلقه وراءه نظر الى زوجته مبتسما ـ كانت ابتسامة جافة ، لكنها ابتسامة على كل حال . وسارع الخطو فى الممر ، ليعود الى وحدته فى غرفته . وخال فجأة أنه سمع خطوات تأتى فى أعقابه . فتوقف لينصت . لا شىء . لا شىء بالطبع .. لن يجرءوا ! ليس بعد !

واقتحم غرفته وأغلق الباب خلفه . ثم توجه الى النافذة وأغلقها . لكن كيف يتحقق أنه ليس فى الغرفة أحد غيره ، فكر أن يفتش الغرفة متحسسا كل ركن . لكنه قرر فى النهاية أن ذلك غير ضرورى . ان كليمان ومارسيلين مشغولان باعداد الطعام . وعندما اقتنع بأنه وحده غسل وجهه بالماء البارد ، ثم ذهب ورقد على الفراش .

الأمر كذلك اذن ! هيوبير هو حبيب كريستيان . هل يمكن أن يفكر فى احتمال آخر ؟ هيوبير له الحق فى أن يدخل غرفة نومها . لقد كان هناك ، يمتص أقراصه من الروبسوس ويراقب الملهاة

www.ibtesama.com/vb

المهينة بين خليلته وبين زوجها ـ ويجد فيها مسلاة له ولا شك .
نعم . لقد شاهد هيوبير كل شيء . سمع كل شيء . وربما شارك أيضا فى الحوار باشارات يديه !

لكن بالرغم من كل هذا كانت الدموع قد تساقطت على وجنتى كريستيان . لقد لمسها بنفسه ولا يستطيع أن ينكرها . هل من الممكن أن تكون قد بكت فى حضرة هيوبير ؟ هذا ممكن بالطبع . أليس الكذب قد سرى فيها مسرى النخاع ؟! انها تمثل . وهذا هو كل شيء . فمنذ متى اذن يتآمران ؟ منذ شاركه هيوبير فى العمل ـ مقدما من كريستيان . أم هل ياترى كان هذا منذ الحادثة فقط؟ من العسير أن يجزم . ان الشك لم يساوره أبدا . ليس هذا النوع من الشك . لقد كان ينتقدها حقا ويفكر فيها كمخلوق أنانى بخيل . لكنه لم يتصور خيانتها وغدرها . لقد كان يعتبرها مصابة ببرود جنسى . لكنها الآن مع هيوبير ..

تقلب هيرمانتييه فى الفراش . كان كل خاطر جديد ينهش بدنه . لقد لعب دور الزوج بينما كان هيوبير يستمع ـ ويداه فى جيبه ـ الى تأوهاته ووعوده وحنانه الاخرق . هذا المسكين هيوبير ـ الذى كان يأتى وراءه دائما ـ والذى كان يستطيع فيما سلف من أيام أن يسحقه تحت قدميه . هذا الهيوبير يستمتع الآن بلذة الانتقام . هل هى ملهاة ؟ أنها مهزلة فى الواقع . هيرمانتييه العظيم قد سلب الآن كل جعجعته . هيرمانتييه الذى كان يعتقد أن الآخرين يفزعون منه ويخشونه !

آه . الخادمة القديمة بلانش ! انه يدرك ذلك الآن . لقد اكتشفت مايجرى . ولهذا السبب طردت من البيت طردا . هذا هو السبب الذى جعلها لاترغب فى العودة . ولا شك أن كليمان يعلم كذلك . ومارسيلين أيضا . كم يسخرون منه وراء ظهره . حتى ماكسيم ..

لا . ليس بهذه السرعة : ماكسيم لا . ماكسيم لم يكن يستطيع أن يخمن ذلك .

حبس هيرمانتييه أنفاسه .. لم لا ؟ ليست هذه هى الطريقة المثلى لوضع السؤال . المسألة أنه ليس ثمة مبرر للشك فى ماكسيم

www.ibtesama.com/vb

.. فى أنه يعرف أو كان يعرف . الأمر واضح . لقد جاء ماكسيم الى هنا بدافع الحب لأخيه ، بعد أن قالوا له أنه فى حالة خطرة . لم يعلم ماكسيم أكثر من ذلك . لو كان قد علم لفضح أمرهما على الفور . لا . أن من الممكن استبعاد ماكسيم . وربما كان من حسن حظه أنه مات فى الوقت المناسب .

ارتفق هيرمانتييه الفراش بكوعه وجذب ياقته . كانت النافذة مغلقة ، لذلك ثقل الهواء فى الغرفة وفسد . وتنهد هيرمانتييه هامسا لنفسه انه لايتحمل ذلك . الا أن الفضول حفزه على أن يتفلفل فى تفحص مأساته . كان يجب أن يصل الى قرارها .

لو كانت كريستيان قد كذبت فى بعض أشياء ، فلا بد أنها كذبت فى أشياء كثيرة أخرى . ولو كانت قد قبلت أن تكون خليلة هيوبير ، فلابد أنها قبلت شروطه فى كل شىء . ولو كانت قد أقنعت هيرمانتييه بالمجىء الى الريف ، فلا بد أنها فعلت ذلك باشارة من هيوبير — لتدع الميدان خلوا من سواه . ولعلها حاولت عمدا أن تدفعه الى الجنون بتلك الفكرة التى لم تتوان عن بثها فى رأسه ، وهى أن سلامة قواه العقلية قد صارت مهددة . لقد كانت دائما تتحدث فى الموضوع وان كانت بالطبع تنسبه كله الى لوثييه . لوثييه قال هذا ولوثييه قال ذاك . لعل لوثييه لم يفه بكلمة واحدة فى مسألة الجنون . لعلها اختلقت الحكاية كلها اختلاقا . وأوعزت اليه بها تحت ستار لهفتها على سلامته .. ثم هذا الكلام المنحوت على الشاهد ..

وفكر هيرمانتييه : هب أننى أعلنت عزمى على العودة الى ليون . ماذا يفعلون عندئذ ؟!

أقلقه السؤال أو بالاحرى أزعجه فجلس ودفن وجهه فى ذراعيه . نعم . هذا كل ما بقى له . أن يقرر العودة . كيف يمكن أن يمنعوه؟ حتى اذا لم يفعل شيئا على الاطلاق ، فمؤامرتهم تلك لن تصمد طويلا . انها ستبقى تحت رحمة أى عابر يطرق الباب . انه معروف فى الجوار . ويمكن لأى شخص يرفع بصره فوق باب الحديقة أن يراه — أو حتى فى المقابر . عندئذ يكون الزيت قد صب فى النار !

لابد أنهم فكروا فى ذلك . لابد أنهم اتخذوا حيطتهم . بالضبط . هذا هو ماحدث بالضبط . هذا هو السبب فى عودة هيوبير .

www.ibtesama.com/vb

كان المفروض أن يكون هيوبير في ليون . لقد عاد متسللا لـ .. متسللا ؟! كيف يمكن أن يتيقن من ذلك ؟! لعله لم يذهب على الاطلاق ! هذا أمر لايهمه كثيرا على أية حال . المسألة هي أن هيوبير هنا الآن . موجود بصفة سرية . لذلك لايمكن أن يطول بقاؤه .

وتأوه هيرمانتييه وهو جالس بلا حراك . كانت الحقيقة تتكشف له لحظة بعد أخرى . ربما كان قصدهم في البداية أن يكسروا شوكته ويقلموا أظافره . لكن وفاة ماكسيم غيرت كل شيء . كانت فرصة أتيحت لهم فانتهزوها . لقد مات هيرمانتييه الآن ـ مات قانونا ! بقي أن يجعلوا الحقائق تتمشى مع القانون . وما أيسر ذلك . مجرد حفرة في قاع الحديقة تعد له ! من يمكن أن يكشف الامر ؟ ربما يسوى كل شيء قبل أن يبزغ نهار يوم جديد .

نهض هيرمانتييه وأشعل سيجارة . المهم ألا ينهار الآن . ألا يظهر لأحد أنه يعرف شيئا ، انه لن يمكنهم من هذه الراحة أبدا . ذهب الى الحمام وغسل وجهه مرة أخرى ومشط شعره . ثم تحسس عقربي المنبه . النصف بعد السابعة . في خلال دقائق قليلة سوف يدعونه الى العشاء . فتح النافذة ـ لم يعد الامر يهم الآن . سمع خفق أجنحة الطيور واشتم رائحة القش في الارض . انه لايكره كريستيان . لايستطيع بعد أن يكرهها . لكن الامر يختلف مع هيوبير . انه يود أن يخنقه . لكن ليس من المرجح أن يتاح له ذلك . ان هيوبير لن يظهر في المعركة الا في آخر لحظة بالطبع . عندما تهوى الضربة عليه .

مال هيرمانتييه على افريز النافذة . وبدا انه يستمتع برطوبة المساء . لعل كليمان يراقبه من الحديقة . من حسن الحظ أنه لايستطيع أن يراقب أفكاره وخواطره . كان هيرمانتييه يتأمل عندئذ كيف يمكن أن يقوموا بالمهمة الباقية . أن هيوبير يكره سفك الدماء ولا شك . وكريستيان ، برغم قسوتها ، لن تريد شيئا يثير الشبهات . هل يشير ذلك الى استخدام السم ؟!

ـ ريشار

كان هذا صوتها . تناديه من أسفل الدرج ، تماما مثلما تفعل في اى مساء آخر .

www.ibtesama.com/vb

ـ اننى قادم .

تنهد وسار ببطء صوب الباب . لن يكشف أمرى أحد . هذا أشق الاعباء . ألا يدع أحدا يكشف أمره . تقدم فى الممر . أين هيوبير ؟ هل لايزال مختفيا فى حجرة كريستيان ؟ أم هل هو يتجول على أطراف أصابعه . فى بذلته السوداء ؟

بلغ هيرمانتييه أول الدرج ، فسمع الارض تطقطق من خلفه . لكنه لم يعبأ . ربما كان ذلك بسبب الحرارة الشديدة . وأخذ يهبط خطوة خطوة .

وسمع كريستيان تقول :

ـ العشاء معد . وأنت لابد جوعان !

كان صوتها رقيقا عطوفا . تماما كما يجب !

وجلس هيرمانتييه .

ـ اننا نتناول الليلة عشاء باردا . أظن أنك تفضل ذلك .

وقرعت الجرس وصاحت :

ـ اننا فى الانتظار يامارسيلين .

-١١-

ربما يكون هيوبير موجودا . وربما كليمان أيضا ـ لد يد المساعده أو على الاقل لجر الجثة الى الخارج . وفكر هيرمانتييه: لا . ليس هذا معقولا . لايمكن أن يحدث شىء مادامت كريستيان موجودة . انها لن ترغب فى أن يتم ذلك أمامها . ربما بعد تناول القهوة ، عندما تتركه وحيدا ..

سمعها تسأله :

ـ ألا تريد مزيدا من السلطة ؟

ـ لا . أشكرك .

ـ انك لم تأكل شيئا

ـ لست جائعا .

قامت مارسيلين بابدال الصحاف ، وسمع كريستيان تصب النبيذ فى كأسه . فارتشف رشفة تذوقها بحذر . ولم يجد فيها

www.ibtesama.com/vb

طعما غير عادى . ووضعت مارسيلين طبقا آخر على المائدة .
كريستيان :
ـ هذه بعض شرائح السمك . ومعها بعض المايونيز .
ـ أعطينى قليلا منها .
ـ خذ شيئا من المايونيز معها . ان مارسيلين قد أعدته بالطريقة التى تحبها ـ وأكثرت من المسطردة .
لم يبد فى صوتها أى اختلاجة . لعل هذا الاهتمام مجرد افراط فى العناية به .
ـ شيئا قليلا .. لمجرد ذوقها .
لكن لماذا كل هذه المسطردة ؟! انه لم يكن يصر على وجود المسطردة بهذه الكثرة . تناول قطعة السمك التى أمامه وقلبها بالشوكة والسكين ، وهو يشعر كأن مئات من الاعين تحدق فيه . لو تردد فى أكلها لفهموا أنه كشف لعبتهم ، ولأجهزوا عليه فورا . وضع قطعة صغيرة فى فمه ولاكها وهو يتذوق المايونيز . ربما كان الموت مختفيا فى طيات هذه المسطردة ! لابأس . لابد أن يمضى الى النهاية .
وقالت كريستيان :
ـ أخشى أن يكون السمك قد تفتت . اذ من العسير المحافظة عليه فى مثل هذا الجو .

ثم شرعت فجأة تتحدث عن أهالى القرية . لم هذا السيل المتدفق من القيل والقال والثرثرة فى سير الناس ؟! هل هى تحاول تحويل انتباهه ؟ مم ؟ من مذاق السم ؟! أم ترى قد دسوا له منوما ليفقد قدرته على المقاومة . بدا له أن كريستيان تلهبه بهذا المايونيز . وكانت المسطردة تحرق لسانه فى كل مرة يتناول فيها الطعام . كم من الزرنيخ الآن قد ابتلع ياترى ؟!
وضع الشوكة والسكين وقال :
ـ لست أدرى ما بى اليوم . اننى لا أشعر بجوع على الاطلاق

هاهو ذا قد كشف أمره . لم يعد ثمة مهرب الآن . لقد كان يظن أن كريستيان هى أداة فى يد هيوبير . لكن كلما قلب الامر فى ذهنه كلما مال الى الاعتقاد بأن الامر عكس ذلك تماما . انها هى صاحبة

www.ibtesama.com/vb

الامر منذ البداية . ربما اضطرت الى الضغط على هيوبير لترغمه على الانحناء لرغبتها . انه الآن يستطيع أن يستعيد فى ذهنه كل الاشياء الصغيرة التى تنحو الى تأكيد هذه الفكرة .

ـ لقد انتهينا من العشاء يامارسيلين . سنتناول الفاكهة الآن .

قالت كريستيان ذلك ، فبادر قائلا بدوره :

ـ لقد اكتفيت !

ـ حقا . لن تتناول شيئا من الفاكهة ؟ بعض الخوخ الناضج؟ سيكون مرطبا فى هذا الجو .

ـ كلا . شكرا .

ـ لعلك تشعر بوعكة ؟

بدت اللهفة فى صوتها . لكن لعلها فى هذه اللحظة بالذات تتفرس فى ملامحه باحثة عن أول أعراض التسمم ! لعلهم جميعا الآن يقتربون منه ليمعنوا النظر . غير أنه مع ذلك ظل هادئا . وحتى فى هذه اللحظة انبثقت فى رأسه فكرة غريبة : ربما يكون كل هذا حلما .. كابوسا مفزعا !

ونهض قائلا :

ـ سأتناول قهوتى فى الشرفة ..

ـ كما تشاء .

وأخذ يجر ساقيه الى الباب ، تتبعه كريستيان . هذه هى اللحظة المناسبة . لماذا ينتظرون ؟! ان هيوبير أقصر منه وكليمان ليس أطول منه . ربما يخافونه برغم عجزه . لكن أليس هو الآن يشتط فى خواطره . ألم يكن قد انتهى الى أن الوسيلة لابد أن تكون السم ؟! سم سريع لايترك له فرصة لأن يفعل شيئا .

لكن لو كان سما سريعا ـ فمعنى هذا استبعاد المايونيز . اذ لو كان قد دس فيه لكان قد سرى الآن وبدت أعراضه . انها القهوة اذن !

ـ ها هو ذا مقعدك الطويل .. الا تجلس ؟

خانها صوتها هذه المرة . تهدج قليلا . قليلا جدا لدرجة انه لم يكن ليلاحظه فى أى وقت آخر لايدقق فيه السمع .

www.ibtesama.com/vb

ـ كلا .. اننى لن ارقد فى هذا المقعد . لاننى سـاوى الى الفراش بعد قليل .. اننى متعب . لكننى سأكون على مايرام غدا

وجذب كرسيا عاديا الى المائدة . وصبت كريستيان القهـوة ووضعت قوالب السكر فيها . وانصت الى صوت الملعقة وهى تدور فى الفنجان . وتوارد عليه نفس الخاطر الاول : ربما تكـون المسألة كلها من وحى خياله ! لكنه استبعد هذا الخاطر فورا . لو شك الآن لضاع لا محالة . يجب الا يشك فليس ثمة مبرر للشك فى صحة ما انتهى اليه .. انه يعـلم أن هيوبير فى البيت .. وكل ما تلا ذلك يأتى بطريقة آلية ..

ـ أخشى أن تكون مارسيلين قد أثقلت القهوة قليلا هذه الليلة . أتريد قطعة أخرى من السكر ؟

ـ كلا .

نفخت كريستيان فى قهوتها لتبردها . ثم سمع صوت رشفتها . وبعد ذلك مس فنجانها الطبق . وأشعل سيجارة ليكسب بعض الوقت . كانت القهوة أمامه وكان مآله الى شربها . فليس أمامه أى مبرر لرفضها . لو وجدها مرة المذاق لتوقف . لكن هذا لن يفيد الا فى تأجيل النهاية . وحتى اذا قام الى غرفته فربما ينهالون عليه ببلطة وهو فى طريقه اليها . لابد أن هيوبير قد فكر فى كل شىء .

رفع فنجانه . وبدا له أن كريستيان قد تسمرت فى مكانها . تنسم القهوة فوجد لها رائحة طيبة . وضع شـفتيه على حافة الفنجان وتظاهر بالارتشاف . وأحس بالخجل لأنه يسـتمسك هكذا بحياته التعسة ! لم يكن هذا حبا فى الحياة ـ فقد ولى حبه فى الحياة وانقضى . لكنه كان غريزة لم تزل مركبة فيه ـ غريزة مواجهة التحدى وخوض المعارك . وعندما أنزل فنجانه صـدمه بطرف المائدة فتحطم ولوثت القهوة يده .

وقالت كريستيان بصوت لم تستطع أن تخفى به ضيقها :

ـ أيها العزيز ريشار !

ـ اننى آسف ..

ـ ستنظف مارسيلين كل شىء .. وتحضر فنجانا جديدا ..

ـ لا عليك .. أظن اننى سأوى الى الفراش على الفور .. طابت ليلتك ياكريستيان .

www.ibtesama.com/vb

كان أصعب شيء أن يسير مبتعداً دون عجلة . كان قد تصنع التعب وجاهد ليبدو هكذا فى خطوه نحو الباب . وعند أسفل الدرج توقف . كانت المحنة أكثر مما يحتمل . ثم شرع يصعد الدرج مستعينا بحاجز السلم ، وأذناه تتفقدان الصمت الذى ران على البيت . وأيقن أنه ليس ثمة أحد يتبعه . لكن ربما يكون الخطر أمامه لا خلفه . ربما فى هذه اللحظة بالذات يعد له كمين أو يصوب اليه مسدس .

لا يمكن أن يطول ذلك .. لن يقدر على الصمود .. وصل الى أول الدرج . انه لايزال حيا ـ لكن كدودة يمكن ان تنسحق فى اية لحظة تحت قدم من الاقدام . مضى فى الممر ، هيكلا قوى البنيان، لكنه مهزوم كانسان . دخل غرفته وأغلق الباب بالمفتاح . ثم شرع يمد وجهه هنا وهناك يتنسم أى حركة فى الهواء قد تدل على وجود عدو . وتحسس زر الكهرباء . لم يكن النور مضاء فعبر الغرفة وتحسس مصباحه الذى الى جوار فراشه . كان باردا . ليس ثمة أحد فى الغرفة اذن . لايمكن أن يخاطر أحد بمهاجمته فى الظلام .

لكن هل سادت الظلمة بالفعل ؟ تحسس عقربى المنبه . انها التاسعة . كلا .. العتمة لم تنتشر بعد . سينعكس على الغرفة نور الغسق . هذا الوهج الاحمر من الشمس الغاربة . انه يكفى لـ .. لا .. مادام لم يحدث شيء بعد الى الآن ، فالخطر معلق متوقف لم يدهمه بعد . لاشك أنهم يعتمدون على القهوة .. فاذا فشلت خطة القهوة كما حدث ، فلا بد أنهم فى حاجة الى قليل من الوقت لوضع خطة أخرى .

خطة تنفذ فى الغد ولا شك !

تثاءب هيرمانتييه بصوت مسموع ، ثم ألقى نفسه على الفراش . وسمع « سست » الفراش تحدث صوتا ينبىء بثقله . لو كان ثمة من يسترق السمع ، لاطمأن الى أنه اندس فى الفراش .

لم يكن ثمة مايستطيع عمله الآن سوى أن ينتظر ، وأن يبقى مستيقظا بأى ثمن . فشبك أصابعه وراء عنقه واسترخى . وحاول الا يفكر فى شيء . كانت الخواطر لاتحمل له شيئا سوى

www.ibtesama.com/vb

الالم وقد عانى منها الامرين . وهبط الظلام . استطاع أن يقيس تقدم الليل برطوبة الهواء على جبهته . ستنتشر العتمة قريبا تماما ـ ومعها الامن .

سينامون جميعا عند منتصف الليل . لاشك انه يوم شاق بالنسبة لهم أيضا . هل سيطلع القمر ؟ ليس من المرجح ذلك . فقد تذكر أن القمر لم يكن مكتملا عندما جاءوا الى الريف . حاول أن يحصى كم من الايام مضى منذ ذلك الوقت . لكن ذلك كان عسيرا . وتملكته الحيرة فترة ، ثم أقنع نفسه فى النهاية بأن هذه ليلة مظلمة . وتناهى اليه صوت جرس يقرع على بعد ـ نفس الجرس الذى دق من أجل ماكسيم ! فتقلب على جنبه وشد ركبتيه الى صدره . المه لم يخف . فشل فى حمل نفسه على عدم التفكير فى شىء .. فشرع فى اعادة النظر فى الموقف كله من جديد . وكان أمامه متسع من الوقت ..

لم يعد فى مقدوره أن يقنع نفسه بأن ماكسيم لم يكن يعلم . لابد أنه كان يعلم . لقد أثبت ذلك عندما قال له فى ذاك الصباح :

ـ انا أسرق ؟ ان هذا أعجب ماسمعت . يا أخى المسكين لو علمت ما أعلم ..

لو علم ما يعلم ! أى تفسير آخر يمكن أن يخرج به من هذه الكلمات الآن . لو كان قد مضى فى الحديث قليلا لربما أفصح له ماكسيم عن شىء . نعم . ماكسيم ـ ماكسيم أخوه ـ كان مشتركا أيضا فى المؤامرة . دفعوا له ولا شك قدرا وفيرا ليلعب دوره فى هذه الملهاة البشعة .

وسمع هيرمانتييه صوتا فى قراراته يتساءل : ماذا فعلت لهم ليعاملونى بهذه الطريقة؟ وحاول أن يبطىء تنفسه ليستعيد هدوءه . وقرع جرس الكنيسة من جديد . وبدا له أنه أوشك أن يغيب عن الوجود . لكن أصوات الليل كانت لاتزال تبلغه . نباح الكلاب على بعد وصيحات البوم وزمجرة البحر . ثم شعر بأنه يستعيد كل كيانه فجأة ، وهب قائما .

www.ibtesama.com/vb

سار على أطراف أصابعه الى النافذة وفتحها على سعتها . كانت الحياة هناك ـ العالم المصطخب فى انتظاره . وقفز على افريز النافذة ودلى نفسه منها . كان يعلم أن حوض الزهور تحته وأنه سيخفف من سقطته . ثم ترك نفسه . لكنه اصطدم صدمة شديدة هزت كيانه كله . وبقى جاثما على أربعة أطراف ، ساكنا لفترة ، يستعيد أنفاسه وينصت . كان كل ما فى البيت نائما . لم يجد من حوله شيئا سوى رائحة الزهور .

قام على قدميه .. وأزال الطين من يديه بمنديل .. كانت نظارته قد سقطت . لكنه لم يكن ليتوقف ويتحسس الارض بحثا عنها . وشعر بأنه سيكون بشعا من غيرها . لكن هذا لايهم . بل سيكون من السهل عندئذ أن يتعرف عليه أول من يصادفه . ابتعد عن الجدار وأخذ يتقدم منحنيا . الصمت يحتويه حقا ، لكنه الآن فى مكان مكشوف ، لايستطيع أن يتخلص من الشعور بأن ثمة غدارة مصوبة اليه . وكان عقله يدرك أن ليس ثمة شىء . وانهم لن يكتشفوا هربه الا فى الصباح . لكن هذا لم يمنع ذلك الاحساس من أن يطغى عليه .

وصل الى باب الحديقة فتعلق به كالغريق . ورفع وجهه الى السماء وتنفس بعمق ، محاولا عبثا أن يهدىء من صخب قلبه فى صدره . وفتح الباب بمنتهى الحذر ثم انزلق خارجا وأغلقه وراءه .

لقد هرب ! فر وصار حرا !

عرج الى اليسار وأخذ يحصى خطواته . انها نحو خمسين خطوة تقوده الى المنعطف ، حيث يتفرع الطريق الى القرية . واسترشد بحافة العشب ليستمر فى اتجاهه . مضت خمسون خطوة ولا أثر للمنعطف بعد . لكن ها هو ذا ، بعد عشر خطوات أخرى . القرية ليست بعيدة . على نحو كيلومتر . لن يضل عنها مادام يلتزم الطريق . وهناك يعثر على بيت ميرورى . ويأخذه ميرورى الى لاروشيل .

حتى لو لم يعثر على البيت فانه سيقرع أول باب يصادفه . الجميع يعرفونه . وسيخفون لمساعدته . وكان يرتدى صندلا ينعل من الكريب لايحدث صوتا . لكن هذا لم يسره . كان يريد أن

www.ibtesama.com/vb

يسمع وقع اقدامه ليأتنس برفقتها . كان الليل شديد الهدوء شديد السكون . وكان يشعر بالارتياح عندما يطأ بقدميه بعض الرمل والحصى . الارجح أن تكون السماء مزدهرة بالانجم والطريق ينساب لامعا كالنهر . وعلى يمينه يسطع نور الفنار لاشك كل ثلاث ثوان . ليلة تصلح للهرب . كان يود أن يستطيع العدو . لا خوفا فقد زايله الخوف ، ولكن فرحا وطربا . فقد بدأ يحس أنه يعيش ويحيا من جديد .

حتى لو لحقوا به هنـــا وأهووا عليه بشيء فانه لن يعبأ .. سيموت هنا فى العراء راضيا .. وفى أى مكان آخر غير هذا الفخ الغادر الذى أعدوه له بمكر واتقان .. لـكن الواقع أنه ليس ثمة فرصة كبيرة ليلحقوا به الآن قبل أن يصل الى القـرية .. لقـد أوشك على الوصول ، ولابد أن تكون البيوت الأولى قـد أصبحت على مرمى البصر . قهوة البابوا ، بصف أشـجارها القصـيرة فى أصص كالدلاء ، وحانوت الحداد ، ومحل تاجر الحبوب الذى تربض قطته الرمادية دائما فى النافذة ..

استحث هيرمانتييه الخطو ، كان يسـير وقد أشرع يديه الى الأمام ، لكنه الآن كان قد أيقن تماما من مكانه حتى أنه ترك ذراعيه تسقطان الى جنبيه ، فى خلال خمس دقائق سيـكون سـائرا فى شـارع القـرية ..

يجب ألا ينسى أنه ميت ! سيفزع ميرودى فزعا عظيما .. من الأفضل أن يشرح الموضوع أولا .. أن يصيح من وراء الباب بأنه ليس شبحا ! وانه حى لا يزال فى حاجـة الى المعونة . نعم . لابد أن يتجنب اخافة الناس .

خمس دقائق مرت . أخذ هيرمانتييه يتنسم الهواء .. هذه رائحة دكان الحداد على بعـد .. وهـذه ثلاثة كلاب من كلاب الحراسة تنبح وتشد سلاسلها كالمعتاد لدى اقتراب غريب . كم مضى عليه وهو يسـير ! من المتعـذر حتى أن يخمن .. بدا له أنه يسير من وقت طويل ، لـكنه بالطبع يمشى أبطأ من غيره ..

هيا ! فليشد الخطى أكثر .. أحس فجأة بأنه قد شرع يديه

www.ibtesama.com/vb

أمامه من جديد .. أرغم نفسه على وضع يديه فى جيبه وحاول أن يقنع نفسه بأنه ليس ثمة ما يخشاه . من المستحيل حقا أن يضل الطريق الى القرية . الطريق يمتد اليها مباشرة وليس ثمة منعطفات جانبية . يجب ألا يفقد شجاعته . سيظل يسير الى أن يدخلها ..

لكنه ظل يسير وقتا طويلا .. لم يستطع أن يتأكد كم من الوقت ، لكنها كانت نصف ساعة على الأقل .. لا يستغرق الأمر نصف ساعة ليسير المرء كيلو متر ، حتى لو سار مثله بخطى بطيئة مترنحا فى الطريق يمينا ويسارا ، توقف وتحسس الأرض .. أسفلت .. لكنه لم يتبين من هذا شيئا !

مضى من جديد لكن ثقته كانت قد ولت ، أخذت تنحسر مع كل خطوة ، لم يستطع أن يتخلى عن الشعور بأن ما يكتنفه ليس سوى أرض شاسعة من أراضى المراعى المعشوشبة .. امتدت يداه أمام صدره كأنه يخشى أن يصطدم بشىء .. لكن أخوف ما صار يخافه الآن ألا تكون القرية هناك ..

لم يمض عليه وقت طويل حتى كان يواجه الحقيقة ، انه ضل الطريق اليها .. انه لن يصادفها الآن .. لكنه كان قد اتخذ الطريق السليم .. الطريق الذى يؤدى مباشرة اليها .. كانت هذه هى المسألة ، حتى الطريق كان متآمرا مع كريستيان ! اذن فهذا هو السبب فى أنهم تركوه يهرب .

هلم الآن ! دعك من هذه السفسطة ! الأفكار ممنوعة مهما كان نوعها ، الطريق لن يؤذيه . انه مسالم تماما . وكل خطوة يخطوها عليه تباعد بينه وبينهم ، ومن ثم تقربه الى الأمان .. يجب أن يمضى ، ليس أمامه بديل آخر ، سيظل يمضى الى أن يسقط من الاعياء ، ويستطيع أن يمضى قبل ذلك بساعات ..

هناك سمع هيرمانتييه صوت أقدام تسير أمامه ، فتوقف .. كان ثمة شخص مجهول يصفر بفمه لحنا أثناء خطوه ، لعله من هواة السير فى الليل ، أو لعله فلاح قام مبكرا ليحضر ماشيته ..

www.ibtesama.com/vb

توقف الصفير ، لكن الخطوات استمرت ..
وصاح هيرمانتييه :

ـ هاللو ! هل تستطيع أن تدلنى أين أنا ؟..

توقفت الخطوات أيضا . صمت مطبق ..

ـ لقد ضللت الطريق ، لقد أجريت لى جراحة ولم أعد أستطيع أن أرى جيدا ..

بدأت الخطوات من جديد . لكنها أخذت تتراجع ، ثم تهرول.
وتوسل هيرمانتييه :

ـ أرجوك . أخبرنى أين أنا ؟..

حاول أن يعدو صوب الرجل ، لكن الأخير عدا بدوره ، كأنما ركبه ذعر مفاجىء . وظل صدى خطواته وهو يعدو يرن فترة فى الطريق .. ثم ساد السكون مرة أخرى .. وظل هيرمانتييه واقفا يملؤه الفزع . هل هو قد أضحى مخيفا لمن ينظر اليه بهذا الشكل؟ هل صار أسوأ من مجزوم ؟ أم هل تعرف عليه الرجل وظن أنه قام من القبر ؟ ! لو كان الأمر كذلك فالرجل اذن من أهالى القرية .. أى قرية ؟ أين هى هذه القرية التى تلعب معه لعبة الاستخفاء !

ربما لإذ الرجل بالفرار ليحذر القوم ، ومع ذلك فليس أمامه الا أن يستمر فى طريقه ، لابد أن يعثر على شخص ويتحدث اليه .. النهار أوشك أن يبزغ ، وعندئذ تبدأ مطاردته .

أخذ هيرمانتييه يغذى السير . وبدا له الطريق على نفس الوتيرة . ربما يأخذ قليلا فى الارتفاع كلما تقدم ، وربما يكون هو نفسه يتخيل ذلك من فرط تعبه . كان متعبا جدا . وكان وهو فى حالات تعبه يشعر بحواسه تخادعه . هل هذه رائحة أشجار الصنوبر التى يشمها ؟ ! انها تأتيه ضعيفة لكنه يكاد يجزم بوجودها . لقد قال ماكسيم يوما أن الأرض فى خلال الجو الحار تنبعث منها رائحة تشبه رائحة صمغ الصنوبر .. لكن ـ لعله كان يقول ذلك لمجرد مداعبته ..

وكلما تقدم كلما أحس بأنه يوغل وسط حسك كثيف خانق ،

www.ibtesama.com/vb

وكانت رائحة أشجار الصنوبر تكتنفه الآن من كل مكان . وكان على يسار الطريق منحدر ، لاشك ينتهى الى حفرة ، فالتزم جانب الطريق الآخر لكنه وجد نفس المنحدر ، وكانت رائحة الصنوبر الآن قوية نفاذة ..

شعر بدوار ، ودهمه خوف .. ففامر بالعدو .. وفجأة اصطدم رأسه وكتفه اليمنى بعائق ما ، فسقط وظل راقدا لحظات ينتظر الضربة القاضية .. لكنها لم تأت وظل الصمت من حوله مطبقا كما كان . كلا . انه لم يتعرض لهجوم ما ! شعر بنسمة تعبث فى أوراق فوقه لا تمتد اليها يده ، فأخذ يتحسس ما حوله حتى عثر على شيء صلب معدنى ، فنهض ، وكان الدم يجرى على ذقنه ..

كان وحده ، وحده تماما ، فأخذ يفحص ما اصطدم به .. وتبين انه اسطوانة بحجم جذع شجرة متوسطة ، ماذا يمكن أن تكون ؟ احدى علامات الطريق ؟ كلا . ثمة كرة عند الرأس ، حجمها كرأس الانسان ..

كان عقله فى دوامة ، ذقنه تؤلمه ، ويده اليمنى متورمة مشدودة . لكنه كان لا يزال يشعر بأن لديه القدرة على السير .. وأراد أن يتأكد من اتجاهه قبل أن يتخلى عن هذا الجسم المعدنى وربما يكون قد استدار من غير أن يشعر ، لكنه قرر فى النهاية أن كل الاتجاهات قد صارت خاطئة ، المهم أن يسير . أن يظل يسير الى أن يلقى حتفه بطريقة أو بأخرى .

تلاشت رائحة أشجار الصنوبر ، أو لعل مذاق الدم فى فمه قد غلبها . كان الجو رطبا ، والساعة لاشك أعمق ساعات الليل وأكثرها مدعاة للخوف . وانخفض الطريق وازداد الجو رطوبة .

وفجأة عطس ودوى صدى عطسته فى كل مكان ، كأنما دخل كهفا . فتنحنح وسمع صدى صوته أيضا .. وكان يبدو من خلال الصدى كأن صوته يتضاعف من حوله ..

www.ibtesama.com/vb

ـ هل ثمة أحد هنا ؟..

جاءه السؤال مرات على شكل صدى . ففكر هيرمانتيه : لابد أن أكون قد أصبت اصابة أبلغ مما اتصور . وأمسك أنفاسه وأخذ يتقدم وسط السكون الذى انتشرت فيه الرطوبة ـ سكون يشبه سكون ما تحت الأرض . والتقط نفسا .. ولمست كتفه جدارا من الآجر . تحسسه بيديه فوجده مبللا . وبدأ ممتدا بغير نهاية ثم انقطع فجأة وانقطع معه الصدى . ووجد هيرمانتيه نفسه يتحسس بقدمه الطريق مرة أخرى. كان نفس الطريق وان كان مندى . كأنما مسه ضباب .

سيظل يتبع الطريق مادام يحس به تحت قدميه ، مهما كان المكان الذى يقوده اليه . سيؤدى به هذا الطريق ان عاجلا أو آجلا الى منطقة مأهولة.. أم هل يلوذ بالفرار ـ منه كل شىء ـ حتى البيوت ـ بمجرد اقترابه ؟! هراء . انه سيصادف بالطبع قرية ان عاجلا أو آجلا ، أو على الأقل سيصادف نجعا صغيرا .

أخذ يتبع الطريق وهو يشعر بأفكاره تفقد تناسقها . مضى كدابة يسارقها النوم وهى قائمة على أطرافها . لعله ضل طريقه الى قريته هكذا .. لقد كان ذلك خطؤه .. كل شىء خطؤه ! حتى هذا الطريق الذى يسير فيه دون أن يعرف له عنوانا .. وفجأة سمع صوتا أطار من عينيه السبات . كانت ثمة قطة تموء . لايمكن أن يكون قد أخطأ . انه موقن تماما . وهاهى ذى القطة تموء مرة أخرى لتؤكد له ذلك . كانت شديدة القرب منه. قطة . جدار . حديقة . منزل . لقد وصل الى العالم أخيرا !

تقدم بحذر ، ويداه مشرعتان الى أمام . ولمس ما ظنه جدار حديقة ، لأن منتهاه كان فى متناول يده . وتحسس طريقه على الحائط ، فقاده الى باب . ولمع فى ذهنه خاطر مخيف. ربما يكون قد عاد الى النقطة التى بدأ منها . وربما يكون هذا هو باب حديقته ! انه يشبهه .

دب فيه الفزع فارتد الى الجانب الآخر من الطريق ، ليصطدم بباب آخر . كان يمكن أن يطمئنه ذلك لكنه لم يشعر

www.ibtesama.com/vb

بالاطمئنان .. كان قد استنفد شجاعته تماما وخارت قواه .. كل ما استطاع أن يفكر فيه هو أنه محوط بقضبان حديدية من كل جانب. قضبان حديدية وجدران ، كالسجن !

أطلق هيرمانتييه صيحة مكروبة ، ثم أخذ يعدو . وسمع صوت نفير سيارة . وفرامل تضغط . وصرخة عجلات تدوى.

ورقد هيرمانتييه ، نصف مذهول ، وجهه فى التراب. ورفعته أيد ، فقاوم .. حاول الهرب .. كل شىء الا أن يجروه الى السيارة .

لكنه لم يكن قويا بدرجة كافية . لم يستطع أن يقاوم . أرقدوه فى المقعد الخلفى من السيارة . حاول أن يسترق السمع الى ما يقولون ، لانهم كانوا يتحدثون بعضهم الى بعض ـ لكن أصواتهم كانت مختلطة مشوشة . ومضت السيارة .

حسنا .. فليرح نفسه الآن . يستطيعون أن يأخذوه الى أى مكان . كلما بعدوا به كلما كان ذلك أفضل . لم يعرف بالضبط ما حدث ولم يعرف ان كان يحتضر الآن أم لا ، لكن بدا له ان معجزة وقعت ، وأنه انتشل انتشالا من فخ .

وعندما توقفت السيارة ، كان فى سبات عميق .

- ١٢ -

جاهد لئلا يصدر منه صوت وهو يرتدى ملابسه . وأمسك بالمقعد الذى وضع عليه ملابسه ليثبته فى مكانه فلا يتأرجح اذ كانت له رجل أقصر من الأرجل الأخرى . وعندما أتم ارتداء ملابسه جلس على حافة الفراش .ثم رقد عليه بمنتهى الحرص ، حتى لا يحدث صوتا . ودفع بساقيه تحت أغطية الفراش ، وجذبها الى ذقنه . لو جاء أحد لظن أنه نائم . لكن ليس من المرجح ذلك . فالقاعدة انه لا يأتى أحد فى مثل هذا الوقت .

وكان جاره فى الغرفة ـ الى يمينه ـ يئن ويتوجع فى صوت متلاحق أجش ، أما جاره الى يساره فكان يطلق همهمات طويلة منخفضة لا يكف عنها أبدا . ربما كان يصلى طول الليل . وتناهى اليه فى مكان ما صوت الساعة تدق ثلاثة أرباع . وكان رنينها نقيا بطيئا يخلف فى النفس دعة وراحة .

www.ibtesama.com/vb

أخذ هيرمانتييه ، وهو تحت أغطية الفراش ،يحصى الدقات . وكان فخذه ملتهبا فى الموضع الذى حقنوه فيه . أراد ان يحك الموضع لكنه خال أن من الحكمة ألا يتحرك،وانه كلما استكمل راحته كلما كان ذلك أفضل . فحتى الساعة الواحدة ، موعد قيامه ـ يجب ألا يفكر فى شيء ـ أو على الأقل فى أى موضوع مهم .

كان قد اعتاد هذه اليقظات الطويلة ، وتعلم أن يكون صبورا .

وعندما دقت الساعة الواحدة ، تريث حتى خبا رنينها ، ثم جلس محاذرا ، ونفض عن جسمه الأغطية ، ونهض على قدميه . ولم يصدر عن نعله المطاط الا صوتا ضعيفا عند احتكاكه بالأرض المشمعة . وفتح الباب شبرا شبرا وأخذ ينصت متمعنا . لاشك أن ثمة مصباحا ينير الدهليز ، لكن ليس من المرجح أن يكون هناك احد فى هذه الساعة . الصمت مطبق .

خرج الى الدهليز . ها هو ذا قد بدأ مغامرته . لم يصادف أحدا يمنعه . لقد أحسن توقيت هربه هذه المرة . منذ يومين ارتكب خطأ فى فراره ، هو أنه بكر به قبل الأوان ، لم يكن لديه فرصة حينذاك . أما اليوم ، فحظه معه ، ولن يتمكنوا من امساكه بسهولة .

كان الدرج فى نهاية الدهليز . وكان الدهليز نفسه لا يسبب له متاعب على الاطلاق ، فهو مفروش ببساط من المطاط السميك يمتص أى صوت . أما الدرج ، فالمعتقد أنه يؤدى الى نهاية ردهة الدخول .. لكن ليس ثمة داع لأن يفكر فى ذلك قبل أن يصل الى هناك . الأهم من ذلك ان يعرف كم من الدرجات سيهبط ، لأنه لا يعرف بالضبط فى أى دور هو ، سيضطر الى أن يمنح ثقته كاملة لحاجز السلم ، ومن امتداده وانقطاعه سيعرف أنه بلغ الطابق الأرضى . وهناك سيتنسم طريقه الى المطابخ ، اذ لا شك أن باب الدخول عليه حارس . ومتى وصل الى غرفة العاملين فى هذه المستشفى ، أصبح من اليسير أن يصل الى الباب الخلفى . وحتى اذا لم يعثر عليه فستكون ثمة نافذة يقفز منها .

تناهى الى هيرمانتييه صوت ، صوت مصعد أخذ يتابعه ثم توقف فى الطابق الأعلى .. فتح بابه ثم أغلق بلطف ، لا شك أن

www.ibtesama.com/vb

أحدا خرج منه .. أراد هيرمانتييه أن يعرف أى طريق سلك هذا الشخص ، لكنه لم يسمع وقع أقدامه بسبب المطاط الذى يكسو الأرض ..

وفى أسفل الدرج انقطع حاجز السلم . اذن فهذا هو الطابق الارضى . ربما ردهة الدخول حيث يجلس الحارس فى شبه قفص هل ثمة أحد يراقبه الآن ؟ لا يبدو ذلك ، فليس ثمة صوت يأتيه من أى مكان .

أخذ يسير وهو يتلمس طريقه ، وفجأة مست يد كتفه ، فبوغت وأوشك أن يقفز من الفزع . وسمع صوتا يحدثه بالايطالية . لقد أمسكوا به ! شعر بأنه أضعف من أن يقاوم . ماذا تفيد المقاومة ؟ ستصرخ المرأة ـ صاحبة الصوت ـ تطلب النجدة . وعندئذ يتغلبون عليه مرة أخرى ويحبسونه فى غرفته ويخدرونه بالحقن .

أخذ يتوسل الى المرأة أن تدعه ،لكنها لم تكن تفهم الفرنسية. وبدأت تخاطبه من جديد بلهجة أشد . ثم دفعته وأغلقت بابا .. وشعر بأنه فى المصعد ، وانها تقف قريبة منه . حاول أن يفهمها الموقف . تكلم ببطء محاولا أن يميز كل حرف كما يتحدث المرء الى شخص أصم :

ـ اننى لست مريضا .. لست مريضا.. يجب أن أذهب.

وتوقف المصعد عند الطابق الأول :

ـ لابد أن أذهب .. ليس من حقك أن تحتجزينى هنا برغم ارادتى !

أخذت بيده فتركها تقوده ، لكنه لم يعد يكرر طيلة سيرهما فى الممر :

« انا ريشار هيرمانتييه .. هيرمانتييه .. هيرمانتييه صانع المصابيح الكهربائية .. انا ريشار هيرمانتييه .

دخلت معه الغرفة وأغلقت الباب ، ثم همست اليه بكلمة ايطالية لم يفهمها فكررتها له . لم يفهم أيضا فشرعت تخلع عنه ملابسه . وأطاعها دون اعتراض . وكان الرجل الى يمينه لايزال يئن ويتوجع والآخر يهمهم بصلواته التى لا تنقطع .

سمعها تلفظ عبارة التقط منها كلمة « ميديكو » . هذه

www.ibtesama.com/vb

كلمة يفهمها . الأرجح أنها ستدعو الطبيب القائم بالخدمة . هذا أفضل ، ربما يكون شخصا يحسن الاصغاء اليـــه .. اندس فى الفراش لـكنه بقى قائما على كوعه ، يحـاول أن يتتبع حركات المرضة .

ـ أترين ..؟ .. اننى هادىء . ليس ثمة داع لحقنى . كل ما احتاج اليه هو تليفون .. تليفون .. سمعها تنطق الكلمـة بالايطالية مصحوبة بضحكة قصيرة ، ثم وضعت يدها على جبهته .. فصاح:

ـ كلا .. كلا .. اننى لست مجنونا . اننى أعلم أن الجميع هنا يحسبوننى كـذلك . يا الهى ! أليس ثمـة أحـد يتحـدث الفرنسية فى هذه المستشفى اللعينة !

نهرته عن الكلام وطلبت منه أن يستريح . فرقد على ظهره ، نادما على انفجاره ذاك . لاشك انها ستبلغ الطبيب انه فى حالة هياج ، فيخدرونه من جديد .. كيف يمكن أن يفهمهم انه لم تعد هناك دقيقة واحدة يضيعها .

وفتح الباب وسمع صوتا يتساءل :

كان الطبيب .. كان مثل كل الأطباء الآخرين ذا صوت منغم لا يمكن معه أن يتفوه بشىء غير سار . أخذت المرضة تشرح له الامر . فجس نبض هيرمانتييه .

ـ اننى ... لست ... مريضا .

صاح هيرمانتييه بتلك الكلمات فى غضب ثم أردف :

ـ لست مريضا .. أريد أحدا ينصت لى فقط .

فهم من كلام المرضة لفظتى « بارلاتو » و « لنتـربريتى » ـ التحدث الى المترجم ـ فصاح من فوره :

ـ كلا..ان مترجمك لا جدوى منـه .. انه لا يعـرف من الفرنسية أكثر مما تعرفين . ويظن اننى شخص شارد العقل..

أخذ الطبيب يتكلم ، قال عبارة كان آخرها « دومانى » ، ثم أردف بالفرنسية « ديمان » .

غدا .. لقد حاول الرجل أن يقولها بالفرنسية .. بطريقة مضحكة !

www.ibtesama.com/vb

ـ اصغ الى يا دكتـور .. غدا يكـون الوقت قد فات .. سيحضرون لأخذى وابعادى .. هل تريدهم أن يقتلونى .. انهم سيفعلون .. متى وضعوا أيديهم على . ألا تفـهم ذلك .. هل بعثت برسائلى ؟

وأمسك بيد الطبيب :

ـ رسائلى ؟.. هل بعثتها ؟

ادرك من رد الطبيب انه بعثها ، فأردف :

ـ لكن وصولها سيستغرق وقتا . هذه هى المشكلة . انكم ستضطرون الى ابقائى هنا حتى تتاح للبوليس فرصـة لاجراء تحقيقاته .

واستجمع هيرمانتييه وقاره ورزانته محاولا التأثير فى الطبيب :

الطبيب :

ـ بوليسكم ... الا تدرك هذا ؟. البـوليس .. يجب أن يتصل بوليسكم بالبوليس الفرنسى . لابد من ارسال أحـد من ليون للتعرف على . ان عائلتى تتظاهر بأننى ميت .. لكن ..

قاطعه الطبيب بعبارة لم يفهم منها شيئا . لا فائدة . أدرك هيرمانتييه أن الطبيب يرد كيفما كان . انه لم يفهم ، بل لعله لم يستمع . أما الممرضة فكانت مشغولة . وانبعثت رائحة أثير ادرك منها انهم على وشك حقنه من جديد .

ـ انتظروا لحظة !.. أرجو أن تصغيا الى .. سـأتحدث ببطء شديد .. أترون .. اننى هادىء تماما . ان عقلى سليم .. استطيع أن ادرك الأمور مثلما تفعلان .. لقد قاموا بتهريبى من فرنسا وسجنونى فى بيت ..

وقفا على جانبى فراشـــه دون حركة .. ربما تأثرا بغـيرته واخلاصه الواضح فى الكلام .

ـ بيت بجوار البحر . يقع على مسير خمسة كيلومترات قلائل من حيث التقطمونى . يستطيع الذين جاءوا بى فى السيارة أن يدلوكم على المكان الذى سقطت فيه. لقد ظللت أسير بما لايتجاوز الساعة . ربما أربعة كيلومترات .. اربعة ..

وأشرع أربعة أصابع .

www.ibtesama.com/vb

ـ لقد اجتزت غابة من اشجار الصنوبر . ثم اصطدمت بمضخة بترول . وبعد ذلك امتد الطريق عبر نفق . لم أكن أعلم فى ذلك الوقت أنه نفق .. لكننى متأكد من ذلك الآن .

لم يقل الطبيب شيئا للممرضة . فاستطرد :

ـ هناك تفصيلات أخرى أستطيع أن أدلى بها اليكما . ان البيت لا يمكن أن يكون بعيدا عن القرية ، لأننى سمعت أجراسا، تستطيعان أن ترجعا الى سجل الكنيسة ، وان تعثرا على الشاهد .. ريشار هيرمانتييه ١٩٠٢ ـ ١٩٤٨ !

أحس بالممرضة تضع الأغطية عليه ، فدفعها مرة أخرى :

ـ انتظرا لحظة .. اننى لم أنته بعد مما عندى .. يجب أن تحاطا علما بكل شىء .. بالقصة الرهيبة كلها . فعندما سيأتون سيحشون رءوسكم بالاكاذيب . لقد جعلونى أعيش على الأكاذيب لكننى كشفت أمرهم فى النهاية .

سمع الطبيب يتكلم من جديد . لكن صوته كان مغايرا .بدا فيه الضيق وان حاول الا يظهره . أدرك هيرمانتييه أن الرجل يريد أن يعجل بالعودة الى فراشه الذى جرته الممرضة منه جرا . لم يكن ثمة ما يستطيع أن يفعله الا أن يذعن ويدعهم يحقنونه ، وعندما فرغت الممرضة غطته وجلست بجواره على الفراش بينما جس الطبيب نبضه .. لم يعد أمامه الا وقت قصير يتحدث فيه ، وعليه أن يستغل كل لحظة منه . انه يريد أن يقنعهم بأنه لا يحمل ضغينة ولا حقدا لأحد ، فاستطرد يقول :

ـ انهم ليسوا مجرمين فى الواقع . ان هيوبير يفتقر الى الشخصية فحسب . أما كريستيان فقد أرادت أن تنتزعني انتزاعا من المصنع . هذا هو السبب فى أنهما نقلانى خارج فرنسا ـ وقاما بدفنى فى مكان لا يعرفنى فيه أحد ـ ولا أستطيع أن أتحدث فيه الى أحد . ثم أرادا أن يعلنا موتى فى فرنسا . وعندما مات أخى كان من السهل عليهما أن يدفناه باسمى ! . ولو قامت صعاب لاستخدما الرشاوى فى التغلب عليها ، فلديهما من المال الكثير .

ترك الطبيب معصمه .

www.ibtesama.com/vb

ـ كلا .. لا تذهب . اننى أعرف ما تفكر فيه .. ان كل هذا محض أوهام وخيال . لكنهما اذا اعتقلا فسيدليان بكل شيء .. وسترى عندئذ ...

ثقل رأسه على الوسادة . وشعر بجسمه يتراخى . لكن عقله كان لا يزال صافيا . كانت العبارات تتشكل دون جهد منه، كأنما من تلقاء نفسها . وأيقن الآن أن الطبيب والممرضة ينصتان له بعناية واهتمام . لاشك أنهما بدآ يدركان مغزى القصة . لقد سكنا تماما فى مكانيهما . لابد أن يكونا هناك ـ كيف يمكن أن يذهبا بغير علمه ؟

استأنف هيرمانتييه شرحه . تحركت شفتاه. ولكنه لم يسمع لنفسه صوتا :

ـ كان هيوبير دائما على سفر .. فلم يكن من العسير عليه أن يعثر على فيلا تشبه فيلتنا فى لافنديه . البيوت من هذا الطراز كثيرة .. كثيرة . ثم ان المرء يستطيع أن يقوم بالكثير فى خلال خمسة اشهر . يستطيع أن يسد بابا ويفتح أبوابا جديدة ، ويبنى شرفة ـ وجاراجا ، وأى شيء آخر . يستطيع أيضا ان يعيد تنسيق حديقته .. لو لاحظت شيئا مختلفا لأسرعوا باصلاحه . كشجرة الخوخ الصغيرة . لقد ذهبوا وابتاعوا واحدة وزرعوها فى الأرض .. ان من السهل خداع رجل أعمى. يستطيع المرء أن يحمله على تصديق كل شيء تقريبا .

بدأت الكلمات تأتى اليه فى بطء متزايد . كان قد نسى الطبيب والممرضة . كانت عينه قد تحولت الى داخله .. الى ضوء الحقيقة الساطع ، الذى تناثرت من حوله الكوابيس والأوهام كخرق ممزقة .. لم يعد الآن فى حاجة الى جمهور يسمعه . انه يروى لنفسه مصيره التعس .

ـ رجل أعمى !. نعم .. انه يصدق كل شيء . يقولون له ان الرحلة قد استغرقت ثمانى ساعات كالعادة ، بينما هى فى الواقع قد استغرقت عشر أو اثنتى عشرة ساعة . يتعللون بعطل تافه مفاجيء ليخفوا التوقف عند الحدود . رجال الجمرك ؟! كلا . انهم لن يوقظوا العاجز المسكين الذى غلبه النعاس فى ركن من السيارة

www.ibtesama.com/vb

لقد دبروا أمرهم أحسن تدبير . وعندما أخرجوه لم يعد ثمة ما يخشونه . حتى لو اكتشف الحقيقة ـ ماذا يمكن أن يفعل ؟ لا شيء .

حدق هيرمانتييه فيما أمامه . هل كلمه أحد ؟ حاول أن يستعين بيده ليتحقق عما اذا كانت المرضة لا تزال هناك ، لكن يده لم تطاوعه .

وغمغم فى صوت غليظ :

ـ ثم هناك ماكسيم . يجب أن أحكى لكما قصة ماكسيم . لاشك أنهم وعدوه بقدر وافر من المال . وارتعد جسمه . وكان فمه مغلقا . لكن صوتا بداخله استمر يقول :

ـ لقد كان طيبا فى أعماقه لا غبار عليه .. لم يكن يعرف بالضبط ما يعمل . ولو عرف .. لـ .. كلا .. لن يعرف أبدا .. عندما مات .. أصبحت الأمور أيسر بكثير . لقد توفرت لديهم جثة للدفن ، فلم لاتكون جثتى ؟!

سال شيء من لعابه على ذقنه المرضوضة ، بينما هتف من أعماقه الصوت :

ـ أرأيت يا دكتور .. ليس أمامهم خيار . لابد أن يقتلونى الآن . يجب ألا تدعهم .. ألا تدعهم يأخذوننى بعيدا .. أتسمع يا دكتور ؟!

كان ثمة ضباب يكتنفه ويغوص فيه . لاشك أنه رأى علامة تبعث على ارتياحه . فقد تقلب بهدوء على جنبه وظهر على وجهه الدعة والسلام فى الضوء الخافت الذى ينتشر فى الغرفة الطويلة الخالية .

كانت الصلوات الى جواره قد انقطعت .

***

انحنى الطبيب المشرف على المستشفى وقبل يد كريستيان فى شهامة . ثم صافح هيوبير . وعاد يثبت بصره فى كريستيان معجبا ، فقد كانت جميلة ، معطرة ، ترتدى ملابس فاخرة . وأخذ يتحدث اليها بعض الوقت وهو يشير بيديه . وكانت عيناه

www.ibtesama.com/vb

تبرقان برغم أنه كان يحاول أن يظهر بمظهر مؤازرة وتعاطف بالنسبة لحال هيرمانتييه . وكان كلما تحدث ظهر فى فمه صف من أسنان فى نصاعة الثلج .

وتساءل هيوبير :

ـ ماذا يقول ؟

ـ انه يقول ان ريشار لا يزال مهتاجا . وقد اضطروا الى تهدئته بالحقن ، بعد أن حاول ليلة أمس أن يهرب من جديد .

وعبث الطبيب فى أحد الأدراج وأخرج عدة خطابات سلمها الى كريستيان . فاكتفت بالنظر الى أغلفتها ثم أعطتها لهيوبير ، الذى امتقع لونه عندما اطلع على العناوين . كان ثمة خطاب موجه الى وزير العدل وآخر الى المدعى العام ..

اخذ الطبيب يتحدث بسرعة وهو يفرك كفيه . وكانت كريستيان تبدو مهمومة ، تجيب بهدوء وتساءل هيوبير من جديد :

ـ ماذا يقول ؟

ـ أنه يقول اننا نرتكب خطأ بمحاولة اخراج ريشار واعادته الى البيت .. انه يقول ان ريشار ليس خطرا ، لكنه مع ذلك يحتاج الى وضعه تحت رقابة . انه ينصح بادخاله مصحة عقلية .

تناولت الخطابات ومزقتها بحزن واحدا بعد الآخر . وقرع الطبيب جرسا وألقى الى سكرتيره بأمر ما ثم أومأ برأسه الى كريستيان وهيوبير كى يتبعاه . وعبروا الردهة . وتوقفوا عند أسفل الدرج ، حيث كانت ممرضتان تهبطان بهيرمانتييه .

أخذ هيوبير يحدق فى الارض وهو يعبث بعصبية فى حافة قبعته . بينما كانت كريستيان تحدق فى الرجل الأعمى ، الذى كان يهبط ببطء ومفعول المخدر لم يزل مؤثرا فيه . ووجهت كريستيان سؤالا الى الدكتور فرد عليها باجابة قاطعة . وطلب منها هيوبير أن تترجم له .

ـ انه يقول ان ريشار فى نصف وعيه ـ وانه من المحقق أن ينام فى السيارة .

عض هيوبير شفته وقال :

www.ibtesama.com/vb

ـ يجب أن نسرع .

ثم تقدمهم وقد بدا نافد الصبر . أما كريستيان فأخذت تتحدث بلطف الى هيرمانتييه .. الذى كانت الممرضتان تسندانه، ورأسه مدلى . وعندما شاهدهم كليمان يخرجون قفز وفتح باب السيارة . وساهم الجميع ، حتى حارس البـــاب ، فى ادخال هيرمانتييه الى المقعد الخلفى . ووزعت كريستيان بعض المنح ثم توقفت لتتحدث قليلا الى الطبيب . وتحرك موتور الســيارة . وجاءت كريستيان أخيرا وجلست بين هيوبير وبين زوجها .

هنا مد هيرمانتييه ذراعه عبر النافذة وأمســك بالطبيب . وارتسمت على وجهه معالم جهد شديد كان يبذله محاولا أن يقول شيئا . لكن الكلمات لم تطــاوعه . ونحى الطبيب ـ الذى كان لا يزال يبتسم لكريستيان ـ الاصابع المتشــنجة عن سترته فى هدوء . ثم تحول الى هيرمانتييــه ـ فى الوقت الذى بدأ فيــه كليمان يقود السيارة ـ واستجمع الكلمات الفرنسية التى يعرفها ليقول :

ـ مع السيدة .. ستتحسن .. ستتحسن قريبا !

* * *

مقتطفات من صحيفة « بوبولو ديتاليا »
قضية غريبة

يفيد نبأ من أمالفى أنه تم اعتقال شخصين يتمتعان بالجنسية الفرنسية ، هما هيوبير ميرفيل ومدام هيرمانتييه ، للاشتباه فى تآمرهما على التخلص من زوج الأخيرة : مسيو ريشار هيرمانتييه من رجال الصناعة المعروفين فى ليون .

وكان أول من ألقى الضوء على هذه القضية ـ التى ستكون مثيرة على الأرجح ـ صحفى فرنسى يدعى مسيو بليش . وقــد تحدث مراسلنا اليه فوصف له كيف بدأ اهتمامه بالقضية :

اننى الآن أقيم فى روما من أجل العمل . وفى يوم ما تلقيت لدهشتى خطابا من والدتى تعلن فيه وفاة صديقى الحميم ريشار هيرمانتييه فى منطقة أمالفى . كنت قد قابلتــه قبل ذلك بعــدة أسابيع . وكان يبدو لى فى صحة جيدة ، فيما عدا أن بصره كف

www.ibtesama.com/vb

الحادث وقع له فى العام الماضى . وكان عندما قابلته على وشك أن يسافر الى منزله الريفى فى لافنديه . لم يقل لى شيئا عن سفره الى ايطاليا وبدا لى من الغريب أن يذهب الى هناك دون أن يخبرنى بذلك .

شعرت بحزن ، لكن حيرتى كانت فى مثل حزنى ، فاتصلت تليفونيا بوالدتى لتمدنى بمزيد من التفصيلات ، لكنها كانت عاجزة عن امدادى بشىء وكانت كل معلوماتها أنها قرأت نبأ الوفاة فى احدى صحف ليون .

لم أستطع أن أتخلص من الشعور بأن ثمة أمرا مريبا فى الموضوع . ففكرت ان أعجل بالسفر الى آمالفى ، عندما وقع بصرى على فقرة صغيرة فى احدى الصحف ، كانت فصل الخطاب . ففى مكان لا يبعد كثيرا عن هذه المدينة ، صدمت احدى السيارات رجلا أعمى أثناء الليل ، فنقل الى المستشفى فى ساليرنو . وكان المعتقد أنه فرنسى يعانى من اضطراب عقلى .

قرأت الخبر . فرنسى فى منطقة آمالفى ـ وأعمى أيضا ! لا يمكن أن يكون ذلك مصادفة . شرعت فى السفر على الفور . وحمدا لله اننى وصلت فى الوقت المناسب . فقد امكن انقاذ صديقى .

واستطردت صحيفة « بوبولو ديتاليا » تقول :

وقد علمنا ـ بعد أن تلقينا النبأ الأول من آمالفى ـ أن ريشار هيرمانتييه قد اعيد الى ساليرنو حيث قام البوليس باستجوابه . ويبدو من الأقوال التى أدلى بها أنه كان ضحية المؤامرات ودسائس غاية فى الغرابة . ولا تزال مدام هيرمانتييه حتى الآن ترفض الاجابة على الاسئلة ، بينما يصر شريكها على أن ريشار هيرمانتييه مجنون لا يتمتع بقواه العقلية ، ولا يزال التحقيق جاريا والجريدة ماثلة للطبع ـ ومن المتوقع أن تقام الدعوى قريبا على المتهمين .

« تمت »

www.ibtesama.com/vb

هيئة قناة السويس

مناقصة عامة

بين مقاولى القطاع العام

تطرح هيئة قناة السويس فى مناقصة عامة عملية انشـــاء المركز الثقافى والاجتماعى والمتحف والمـكتبة بالاسماعيلية ويمكن الحصول على مستندات العملية بالحضور شخصيا الى مقر الهيئـــة بالاسماعيلية ـ الادارة الهندسية (المشروعات) وذلك نظير دفع مبلغ ثلاثون جنيها .

وتقدم العطاءات باسم السيد 7 رئيس هيئة قناة السويس (الادارة الهندسية) فى ميعاد أقصاه الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم الاثنين ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٦٣ مصحوبة بتأمين ابتدائى قدره خمســـة آلاف جنيه ولن يلتفت الى أى عطاء يقدم بعد هذا الموعد أو غير مصحوب بالتأمين الابتدائى المذكور .

www.ibtesama.com/vb

الدار القومية للطباعة والنشر

www.ibtesama.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

العدد القادم

** معرفتي **
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

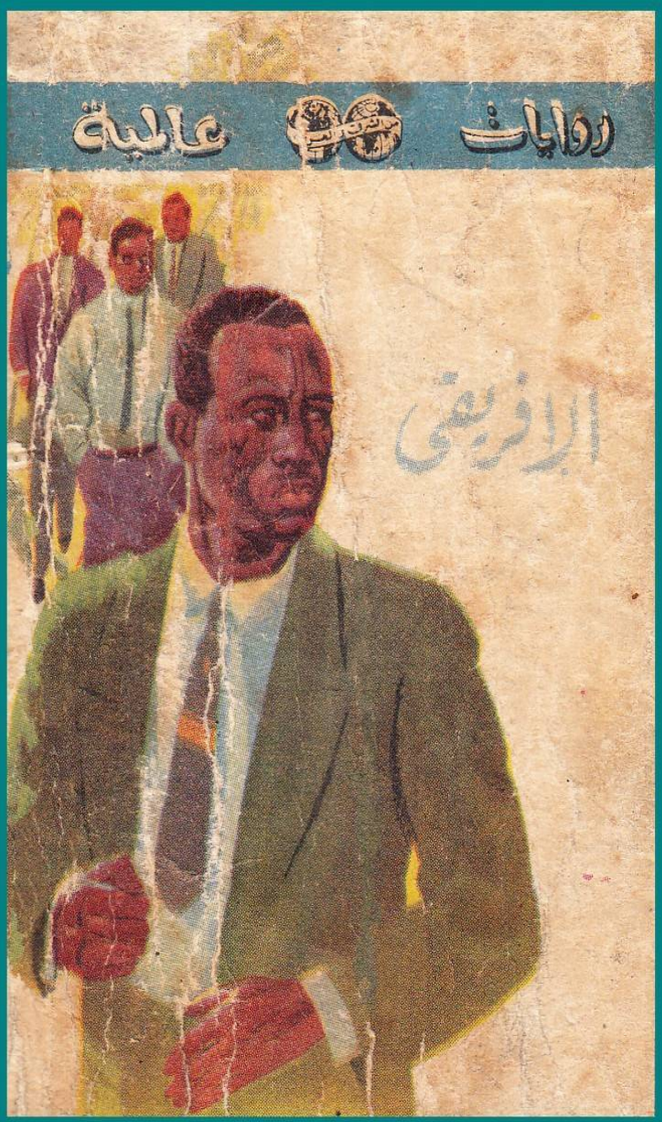

www.ibtesama.com/vb

www.ibtesama.com/vb

GREAT IS OUR GOD

حصريات مجلة الابتسامة

WWW.IBTESAMA.COM

www.ibtesama.com/vb